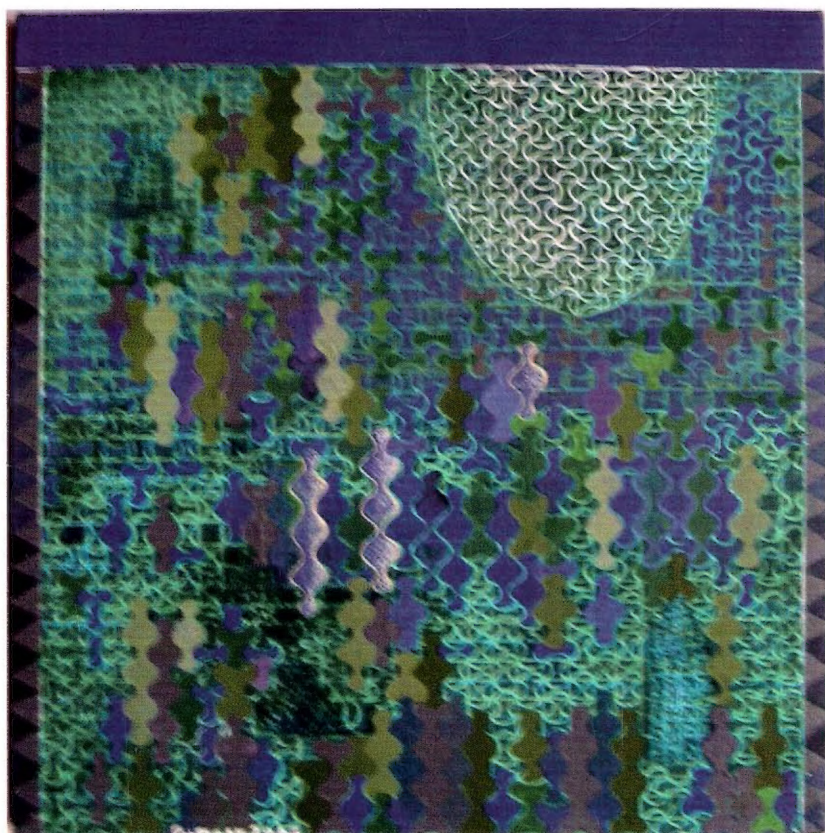


مع أبي الطيب



مع أبي الطيب



وزارة الثقافة

السودان - الخرطوم (٢) - شارع المفتي - جوار البنك السوداني الفرنسي
تلفون : ٨٣ ٤٩٧٤٠٥ - فاكس : ٨٣ ٤٩٧٤٠٢

كل الحقوق
محفوظة

الطبعة الثالثة

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٢٧٣

لوحدة الغلاف
الدكتور حسين جمعان



دار الإكتفاء

للصحافة والنشر والإنتاج الإعلامي

هاتف : ٨٣ ٧٦٣٥٧٩ - ٨٣ ٧٤٩٦٦٠ - فاكس : ٨٣ ٧٦٣٥٨٠ - ٨٣ ٧٤٩٦٥٩

رمز بريدي : (١١١١١) - ص ب : ٢٠٠٤ - الخرطوم - السودان

www.dar-alassalah.com - E mail: dar@dar-alassalah.com

پروفیسر عبداللہ الطیب

مع اُبی الطیب

الاهراء

وَقَدْ سَرَّ نِي أَنْ كَانَ لِي مِنْ أَرْوَمَتِي
خَلِيلٌ عَلَيْهِ الْمَجْدُ حُرٌّ حُلَّاحِلُ
إِذَا مَا انْبَرَى لِلنَّقْدِ أَذْرَكَ لُبَّهُ

خَفِيَّاتٍ مَا تَرْمِي إِلَيْهِ الْمَسَائِلُ
وَلِنْ نَظَّمَ الشَّعْرَ الْحَدِيثَ سَمَائِهِ
إِلَى رُتَبٍ لَا يَرْتَقِيهِنَّ خَامِلُ
وَلِنْ نَظَّمَ الشَّعْرَ الرَّصِينَ فَإِنَّهُ

كَمَا صَالَ فُرْسَانُ الْبَلَاغَةِ صَائِلُ
وَهَمَّتْ إِلَيْهِ الْحَادِثَاتُ فَصَدَّهَا
كَرِيمُ السَّجَايَا وَالتَّلِيدُ الْمُنَاضِلُ
أَخٌ لَكَ بَرٌّ وَالْإِخَاءُ وَسِيلَةُ

إِذَا طُلِبَتْ عِنْدَ الْإِلَهِ الْوَسَائِلُ

إلى أخى الكريم الشاعر الفحل محمد المهدي مجذوب أهدى هذه الأبيات
وهذا الكتاب .

عبد الله الطيّب

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله وبه نستعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم تسليمًا وبعد فربما يصح أن يقال أكثرُ أسماء شعراء العرب دورانًا
بينهم امرؤ القيس وزهير وأبو الطيّب وعسى أن يكون معهم جرير . ثم في
كلِّ عصر يشتهر اسم فيغلب عليهم جميعًا ثم يخفى فينسى أو يكاد مثل البهاء
زهير والوأواء الدمشقي وحافظ إبراهيم وإيليا أبي ماضي وهلم جرا . وبين
طبقات العامة قد لا يعرف هؤلاء ولكن قد يعرف عنرة الفوارس لأنّه في
القصاص الشعبيّ وحسانُ والبوصيريّ والبرعيّ لأنهم من مدّاح الرسول
عليه الصلاة والسلام .

وقد اشتهر امرؤ القيس وجرير لعذوبة اللفظ وصفائه وحرارة النسيب
وإبداع الصور ثم في شعرهما الحكمة والإنسانية . وقد اشتهر المتنبي
زهير للحكمة والإنسانية وقوّة الأداء ثم عندهما من النسيب الصادق
والصور المبدعات .

على أنّ العصر الحاضر ربّما خَسَّ بقدر زهير وأبي الطيّب لأنّهما من
شعراء المديح ، وخاصّة المتنبي لثكسبِهِ بذلك تكسُّبًا واختلافه بين الممدوحين
وجوِّبه الأرض من أجل هذا الغرض . ولعلّه ممّا أفسد على الناس رأيهم في
الحكم على شعر المدح عامة وشعراء المديح قاطبة حسابانهم أنّه من التسول
وأنّ أصحابه يتسولون . وهذا خطأ . إذ الشعر ديوان العرب كما الإذاعة
والتلفزيون والصحافة وشتّى طرق الإعلام والدعاية هُنَّ ديوان مجتمعتنا الحاضر .
والمدح والهجاء كانا من أساليب الإعلام والدعاية المشروعة كما هما في هذا
العصر .

والمملوك ومن أشبههم كانوا يعلمون لما ذلك فيرومون منهما ويتّقون ،
كما يفعل أولو الأمر ومن أشبههم الآن إزاء الإذاعة والتلفزيون والصحافة

وشتى طرق الإعلام ، كلٌّ منهم بمنهجه وأسلوبه وما يملك من وسائل الرغبة والترهيب . وكان الشاعر القديم ربّما مدح وهجا متكسّبا كما يفعل أكثر القائلين بالإعلام فى زماننا وربّما فعل ذلك لا يريد كسبا فاجيز وعوقب ، أو أبه إليه أو تغوغل عنه أيّا من ذلك كان . وكان ربّما سبّ الشاعر بين قبيلة وأخرى بشعره أو وفد على عظيم أو فضّل أو نفّر سيّدا وهلّم جرّا .

وكان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم شعراء يجاهدون معه ، ولقريش شعراء يقاتلون معهم . وكان لعلّى شعراء ولعاوية شعراء . وكذلك لعبد الملك وابن الزبير ، وبني هاشم وبني أميّة ، وآل على وآل العباس . وكان هارون الرشيد يقدّم منصورا النمريّ ومروان بن أبى حفصة لافصاحهما ب سياسة دولته فكانا عنده أثر من أبى نواس . وكانت لأبى العتاهية عنده منزلةٌ لأنّه كان ينشده شعر الزهد وكانت له قيمة سياسية شعبية . وكان زمان المأمون والمعتصم زمانُ الاعتزال . واصطنع رجالته تقديم أصحاب التجديد فى فنّ الشعر . ونفق عندهم أبو تمام فقدّموه عند المعتصم . وكان المعتصم أميّا لعلّه لمّا سمع قصيدته :

« السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتُبِ »

لم يفهم منها إلّا قليلا . وكان عبد الله بن طاهر أميرُ خراسان يفهم الشعر ويطرب له ، إلّا أنّ دقته الإدارية ، وتقليده للسّمت الخلفى استلزم أن يكون له مستشار فنى فى شخص أبى العميثل يمتحن الشعراء قبل أن يصبّوا إليه . ولم يُستثن أبو تمام نفسه من هذا الإجراء حين وفد عليه بميدحتيه :

« أهّنّ عواديّ يوسفٍ وصّواحيبه »

وكان أمراء الطوائف من بعدُ يتنافسون على الشعراء . وربّما اختصّ أحدُهم شاعرا أو أكثر فأقاموا عنده لا يبرحون ، وربّما غاروا على الشعراء . فاحتبسوهم عندهم حتّى لا يمدحوا سواهم أو يهجوهم إذا صاروا إلى سواهم وقد كان الأمراء منهم بالشام من أشدّ الناس فعلا لهذا ولقد لقي أبو الطيّب

من ذلك عَنَتًا قبل أن يصير إلى سيف الدولة . وكان سيف الدولة من أكابر
أمرء الطوائف في القرن الرابع ، وكانت أسرته بنو حمدان من كبريات الأسر
المغامرة التي حظيت بالإمارة في ذلك العصر . وكان أبو الطيّب بعد إذ صار
إليه كالموظف عنده ،

« أَسِيرُ إِلَى إِقْطَاعِهِ فِي ثِيَابِهِ
عَلَى طَرَفِهِ فِي دَارِهِ بِحُسَامِهِ »

كان وزير دولته ووكيلَ وزرائه (وضعه كان شيئاً من هذا النوع)
للإعلام والدعاية (بلغة العصر) . واستمر في هذا المنصب تسع سنوات .
وكادَ له منافسوه ، أبو فراسٍ والنَّشِيءُ والرِّفَاءُ ومن معهم عند فخامة الأمير
كما يكيّد الموظفون الكبار ومن أشبههم للموظفين الكبار ومن أشبههم في
كلِّ جيلٍ . . « سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَكَانَ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » . . .
وكان وزير الدعاية عند كافور أربع سنوات . . وكان وزير الدعاية والإعلام
عند عضد الدولة مدى عام . . كان وزيراً زائراً مُفَوَّضاً من عند نفسه
ذلك الحين القصير .

وكان مع الدعاية والإعلام عَلَيَّ أَبِي الطَّيِّبِ وَاجِبٌ آخِرٌ لَا يُكَلِّفُهُ أَكْثَرُ
وزراء ووكلاء وزارات الدعاية والإعلام في عصرنا الحاضر . وذلك أنَّ
يبرز عمله بصورة فنية شعريّة تحمل طابعه الشخصي كما كانت كلُّ دولة
خدمها في ذلك الزمان إمارة من إمارات الطوائف تحمل طابع أميرها الخاص
الشخصي . . . سَمَتْ دولة آل حمدان بحلبَ غيره بالموصل . . . وَسَمَتْ
دولة آل الإخشيد بالهُسُطَاطِ غيرُ سَمَتْ دولة آل بويه بأرجان أو بِشِيرَازَ . . .
غيرُ سَمَتْ بني عبَّيدَ بالمغرب من بعدُ وبالهُسُطَاطِ . قال ابن هانئ
الأندلسي يمدح الأمير العبَّيدي :

« حَلَّ بِرَقَّادَةِ الْمَسِيحِ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ »

وكان أبو الطيّب من بين وزراء الإعلام في ذلك الزمان عَجَبًا . . .
كان وزيراً له سياسته الخاصة ويخبر الناس أنه غير قادر على تنفيذها لأن
الدولة التي تُغِدق عليه جوائزها ؛ سيف الدولة ، أو كافوراً ، أو بدر بن
عمار — تسمع لمن يَكِيدون له وتعرقل عليه . وكان مع هذا يُمَجِّدُها شكراً
لإغداقها عليه وتنبيهها على بهائها في ذات نفسها وتنويعها به . وقد يجمع جميعاً
غريباً بين امتعاضه من العرقلة وتمجيده وتنويعه بالبهاء ، كقوله في كافور
«يأيها الملكُ الغاني بِسمية في الشرق والغربِ عن نَعْتِ وتَلَقِيبِ
أنتَ الحبيبُ ولكنني أعوذُ به من أنْ أَكُونَ مُحِبًّا محبوباً»
وفي البيت الأول تعريض كما ترى .

وكقوله في سيف الدولة :

«أهمُّ بشيءٍ والليالي كأنَّها تُطارِدُنِي عن كَوْنِهِ وَأَطَارِدُ
وحيدٌ من الخُلَّانِ في كلِّ بلدة إذا عَظُمَ المَطْلُوبُ قَلَّ المُسَاعِدُ
خَلِيلِي إِنِّي لَا أَرَى غيرَ شاعرٍ فَلِمَ مِنْهُمْ الدَّعْوَى وَمَنَّى القَصَائِدُ
فلا تَعَجَّبَا إِنَّ السُّيُوفَ كثيرة ولكنَّ سيفَ الدَّولةِ اليَوْمَ وَاحِدٌ»
وهذا في الدعاية غايةً كما ترى

وكان ممَّا أعاناه على هذا المذهب مزاجُه وطموحُه وأحوالُ عصره وما
جربَه من ذلك وكان قد خرج أولَ شبابه بدعوى ادعاها ولو قد نجح لكان
سَبَقَ الفاطميين إلى إنشاء دولة فاطمية ولعلَّه كان يدَّعي نسباً علويّاً ، ولعلَّه
كان علويّاً يكتُمُ نسبه . . . ومهما يكنُ من أمره فقد كان لا يرى إذا أذعنت
نفسه إلى التماس السموِّ من طريقٍ طويلٍ شاقٍّ هو خدمةُ الأمراء بشعره ، أنه
دون أحد منهم . . . إذ كانوا في جملةَهم بين مغامر وابن مغامر ولعلَّ
أعرقهم لم يكن يزيد على أنْ كان حفيدَ مغامرٍ مثل سيف الدولة أو عبداً لحفيد
مغامرٍ مثل كافور . . . أمّا أمثال ابن كيِّخْلَع فلم يكن يُقيم لهم وزناً .

وكان تنافس الأمراء إذ ذاك على الشعراء كتنافس ملوك أربَّا

وأمرائها على استقدام المصورّين البارعين واستخدامهم وينبغي أن ننظر إلى قصيدة المدح لا على أنّها تسول، ولكنّ على أنّها واجب أو عمل يطلب من الشاعر فينجزه كما قد كان المصورّون في أربّا يؤدّي أحدهم واجبا أو ينجز عملا حين يُطلب منه أن يرسم هذا الأمير أو تلك الأميرة . وكان من أعظم ما ينبغي في الرسم إبراز الأُبّهة والجمال، وما كان كلُّ أمير بذى أبّهة ولا كلُّ أميرة بحسناء . فتأمل . وكما كان شكسبير وأضرابه الروائيّون يؤدّي أحدهم واجبا أو ينجز عملا حين يُطلب من فرقته تمثيلُ قصّة لتسلية الملكة ورجال القصر واللوردات الكبار . ولأنّا نعيش الآن في زمان نهضة أربّا والتاريخ الكبير لازال من صنّع دولتها فإننا بحكم ذلك نقبل قضيّة روايات مولير وراسين وبينّ جونسون وشكسبير ، وصور فان دايك وجويا رنبرانت وروغائيل على أنّها من صميم الفنّ ، وننسى وجه الشبه بينهما وبين المدح والهجاء وقد فطن إلى نحو من ذلك ابن رشد في الدهر القديم حين شبّه المأساة بقصيدة المدح والملمهة بقصيدة الهجاء فما بعد كثير ا . وقد غلا الإنجليز في أمر شكسبير ويوشك الشعر المسرحي أن يكون من أضعف أنواع الشعر، إلّا ما يذكر من أشعار يونان في هذا المجرى لأنّ الشكل والأداء البيانيّ كان يسيطر عليها أكثر من التشخيص وهو قد يجدّ جيّدًا من آفاق الخيال كما قد يلتوى بعواطف التعبير عن جادّتها المباشرة إلى ضروب من مسالك التسلية العابرة والمزّل .

هذا والناظر في أصناف المديح في الشعر العربيّ يجدهنّ في جملتهنّ يتخلفن من عصر إلى عصر كما تختلف أساليب التمثيل وأساليب التصوير وأصاليب الرقص وأصناف الأواني . ولقد نستطيع إنّ أقبلنا على ذلك أن ندرس أحوال المجتمعات العربيّة منذ أوائل عهدها إلى يومنا هذا من طريق دراسة الأصناف من أساليب قصائد المدح في جملتها من عصر إلى عصر كما يفعل الآن علماء الأ حفار حين يستنبطون من أحوال الأمم السالقات بدراسة أصناف أساليب الجرار من عصر إلى عصر .

ثمَّ أساليبُ القصائد المادحة في العصر الواحد تختلف باختلاف الشعراء
وباختلاف السياسات التي كانت تُتَّهَمُنْ على دُولِهِمْ أو ما هو بمنزلتها . ثمَّ
الشاعر الواحد قد يعرِضُ من أصناف الصور في قصائده باختلاف الممدوحين
الذين يتناولهم فيها . . مثلاً جرير . . مدح عبد الملك فقال :

سَأَشْكُرُ إِنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيْشِي وَأَنْبَتَ الْقَوَادِمَ فِي جَنَاحِي
أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْسَدَى الْعَالَمِينَ بُسْطُونَ رَاحِ
دَعَوْتَ الْمُلْحِدِينَ أَبَا خَبِيبٍ جِمَاحاً هَلْ شَفِيتَ مِنَ الْحِمَاحِ
فَقَدْ وَجَدُوا الْخَلِيفَةَ هِبْرَيزاً أَلَفَ الْعِيصَ لَيْسَ مِنَ النَّوَاحِي
وَمَا شَجَرَاتُ عَيْصِكَ فِي قُرَيْشٍ بَعِشَاتِ الْفُرُوعِ وَلَا ضَوَاحِي
ومدح الحجاج فقال :

دَعَا الْحَجَّاجُ مِثْلَ دَعَاءِ نُسُوحِ فَأَسْمَعَ ذَا الْمَعَارِجِ فَاسْتَجَابَا
شَیْطَانِ الْعِرَاقِ شَفِيتَ مِنْهُمْ فَاْمَسُوا خِمَاضِعِينَ لَكَ الرُّقَابَا
إِذَا أَخَذُوا وَكَيْدُهُمْ ضَعِيفٌ بَابَ يَمْكُرُونَ فَتَحَتْ بَابَا
وَأَشْمَطَ قَدْ تَرَدَّدَ فِي عَمَاهُ جَعَلْتَ لِشَيْبٍ لَحِيَّتَهُ خِضَابَا
جَعَلْتَ لِكُلِّ مُحْتَرَسٍ مَخْوْفٍ رِجَالاً دَارِعِينَ بِهِ وَغَابَا
كَأَنَّكَ قَدْ رَأَيْتَ مَقْدَمَاتِ بِصِينَ اسْتَانَ قَدْ رَفَعُوا الْقَبَا

ومدح عمر بن عبد العزيز فقال :

يَعُودُ الْفَضْلُ مِنْكَ عَلَيَّ قُرَيْشِ وَتَدْفَعُ عَنْهُمْ الْكُرْبَ الشَّدَادَا
وَتَدْعُو اللَّهَ مُجْتَهِداً لِيَرْضَى وَتَرْقُبُ فِي رَعِيَّتِكَ الْمَعَادَا
إِلَى الْفَارُوقِ يَنْتَسِبُ ابْنُ لَيْلَى وَمُرَوَّانَ الَّذِي رَفَعَ الْعِمَادَا
تَعَوَّدُ صَالِحَ الْأَعْمَالِ إِنِّي رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَفْعُلُ مَا اسْتَعَادَا
تَزَوَّدُ مِثْلَ زَادِ أَبِيكَ فِينَا فَنِعْمَ الزَّادُ زَادُ أَبِيكَ زَادَا
وَمَا كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وَابْنُ سَعْدَى بِأَجُودَ مِنْكَ يَا عُمَرَ الْجَوَادَا

فهذه صور ثلاث للملوك ثلاثة مختلفات باختلافهم شديداً الشبه
بشخصياتهم بحسب ما نقرأ في كتب التاريخ .

ولعلّه يكون من الدراسة الممتعة أن نعرض لشعر المدح في أمير بعينه
في فترة بعينها لنجعل ذلك طريقة إلى فهم إمارته ومجتمعه . . . مثلاً مدائح
الشعراء وما يمجراها في الحمّاح وفي هارون والمأمون والمتوكل :

«بِالْبِرِّ صُمْتُ وَأَنْتَ أَفْضَلُ صَيَّامٍ وَبِالسُّنَّةِ اللَّهِ الرَّضِيَّةِ تَفْطِيرُ»
وقد كان متعصباً لمذهب أهل السنة .

وفي المعتصم :

«بِسُّنَّةِ السَّيْفِ وَالْخَطِّ مِنْ دَمِهِمْ لَاسُنَّةُ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ تُخْتَضِبُ»
وكان عصره يميل إلى الاعتزال .

وأن نعرض لمدائح كل شاعر لنعرف مدى قدرته على الخلق والإبداع
بعرض الصور المختلفة كما هي مختلفات . .

هذا ، وقد كان أبو الطيّب فنّاناً ملهماً خارقاً القدرة البيانية . وقد
أجمع النقاد أنّه هو وأبو تمام والبحرّى أشعرُ المُحدّثين . . . وهو أشعر
الثلاثة بلا أدنى ريب لأنّ صاحبيه قد لحقهما غبار التاريخ فصارت أشباحهما
على عظمها تهم بالاختفاء وأن يغمرهما النسيان . . . وهو لا زال شبيحاً باهراً
مضيئاً جيداً . وقد نبغ واللغة مرّت عليها منذ عهد امرئ القيس قرون
سته وشهدت أمثال جرير والفرزدق والنابغة وأبى نواس . . . وكان في
دهرها الأوّل قائلها قد قال :

«هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ»

ومع هذا قد وجد أبو الطيّب المُتَرَدِّمَ بعد المُتَرَدِّمِ وفرض
عبقريّته فرضاً على اللغة العربية بما أضاف إليها من ثروة طائلة في محض
أساليب البيان ممّا لا تزال حيويّته تنبض إلى اليوم . . . وقد قال :

«مَا نَالَ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُمْ شِعْرِي وَمَا سَمِعَتْ بِسِحْرِي بَابِلُ»

وإذا أتتكَ مذمَّتِي من ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأنِّي كاملٌ
ولعلَّه صادق في بعض هذا .

وبينه وبين امرئ القيس مَسَابَهٌ ، من حيث الشعور بوحشة الانفراد
وتجشُّم الأسفار وبعد المطلب ، وحسرات الإخفاق ، وشدة التصميم . . .
وكان فؤاده من الملوك كما قال :

«وَفُؤَادِي مِنَ الْمُلُوكِ وَإِنْ كَانَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ»

ثم بينهما فرق عظيم وهو أنَّ أبا الطيّب طلب الملك حبّاً فيه ولم ينشأ —
كما نعلم — إلاَّ سوقةً يتيماً أو كَيْتِماً ، وامرؤ القيس فَرَضَ عليه الملكُ وطلبُ
الثَّار بحكم الشرف القبليِّ العربيِّ ، وما زال دهره يجهدُ لو يجد سبيلاً إلى أن
يكون سوقةً بلا مسؤوليات فلا يستطيع :

«بَكَتْ صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ وَأَيَّقَنَّا لَاحِقَانِ بِقَيْصَرَا
فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكُ عَيْنُكَ إِنَّمَا نَحْوُلُ مُلُوكَا أَوْ نَمُوتُ فَنُعْذَرَا»
وقد راضَ امرؤ القيس لُعةً وحشيةً فأسلست وصفت له كلَّ صفاء
وأصاب أبو الطيّب غديراً منها راكدا فأثاره وأجرى فيه التيار . .

(١) وقد حمل امرؤ القيس معه صحراء العرب : —

تَطَاوَلَ اللَّيْلُ عَلَيْنَا دَمُونُ

دَمُونُ إِنَّا مَعَشَرٌ يَمَانُونُ

وإِنَّنَا لِقَوْمِنَا مُحِبُّونُ —

. . إلى قسطنطينية ومات عند عَسِيب وهو ينظر إلى الآل يخفق من دون
حوران .

وقد حمل أبو الطيّب مُلتقاها بالسواد . . وقيل دون أن يبلغ حظه من (٢)

الرى

وكان زهير شيخاً حكيماً . . قد سئم تكاليف الحياة .

لن يفتأ هؤلاء الثلاثة يُذَكَّرُونَ مادامت العربيةُ . وعسى أن يذكر
معهم جرير لقوة انفعاله وحرارة وجدانه :

« تَمْرُونَ الدِّيَارَ ولم تَعُوجُوا كَلَامُكُمْ عَلَى إِذْنِ حَرَامٍ »
« أَتَذَكَّرُ إِذْ تُودُّ عُنَّا سَلِيمِي بِمَنْعِ بِشَامَةِ سُقَيِّ البَشَامِ »

وما فتنة العرب بأبي الطيب ألف عام إلا لما علموا من أمر نبوغه وما
أحسوا من سحر إبداعه . قال الذهبي « ليس في العالم أحدٌ أشعرُ منه وأما
مثله فقليل » وقال ابن رشيق « ملأ الدنيا وشغل الناس » وقال الثعالبي « وسافر
كلامه في البدو والحضر وكادت الليالي تنشده والأيام تردده . . . وهذا من
قوله :

« وما الدهرُ إلا من رُؤَاةٍ قَصَائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدًا »
وقد حام شكسبير حول هذا المعنى في عدد من كلماته فلم يحىء به
محكما كما ههنا والله أعلم .

وقد كان معاصرو أبي الطيب أولَ من فُتِنَ به وقد رام مماثلته بمحاكاة
أو الأخذَ منه جماعةُ كَأبي فراس والسري فعجزوا ثم انتقلت الفتنة به إلى
الجيل الذي تلاهم فرام مثل ذلك منهم جماعة فعجزوا كالشريف الرضي
وأبي العلاء المعري ثم لم يزل يُفْتَنُ به ويرومُ مثل شأنه أو التفوق عليه جماعة
في كل عصر وجيل إلى زماننا هذا ولعلَّ أحمدَ شوقي من أظهر ما يمثل به
في هذا الباب . . . وقد عجز رحمه الله على مأوته من فدره . ولقد أوتى
الشريف جزالة ورونقا ونُبْلَ أداء وشرفَ معان مع عزة النفس وعِزِّ الأرومة
. . . ومع ذلك لم يصنع رحمه الله من لحاقِ غبار أبي الطيب كبيرَ شيء . وقد
أوتى أبو العلاء فطنة وعِلما وملكة وحذاقا وكان لنفسه ناقدا وبالشعر خبيرا
وبفضيلة أبي الطيب وسبقه عارفا إلاَّ أنَّه مع ذلك قد ابتلى فجاراه وباراه
واستعان بالذكاء فأطال أبواب التأمل وشقَّ المعاني وكانت فيه حلاوة فكاهة
وبداهةُ سخريَّةٍ وله مقدرةٌ من جزالة وتصنيعٍ فأحسن وأبدع ماشاء ولكنه

بعدُ ما عدا أنه أَلَمَّ به غبار الذى يريد لحاقه فشَمَلَه فَخُيِّلَ لبعض النقاد، (٣)
ولاسيَّما المستشرقون ، أنه رصيفه أو يزيد عليه .

واهمرى إنَّ أبا العلاء قد يصفو غاية الصفاء ويجود أحسن الجودة كما
فى عدد من قصائد سقط الزند وأبيات من انزوميَّات ولكنه تنقصه حيويَّة
أبى الطيّب حتى نحو قوله :

« خَفَّفِ الوطءَ ما أظنُّ أديم الأَرَضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ »

وهو أمير شعره ، فيه أناة وتصنيع إذا قسسته إلى قول أبى الطيّب :

« يُدَقِّنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَيَمْشَى أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الأَوَالِ »

والصفاء والموسيقا والتجويد والإحكام ، كلُّ ذلك لا يرتفع بقدر الشعر
كما ترتفع الحيويَّة ومن أجل الحيويَّة كان لبيدٌ دون امرئ القيس وطرفة
وزهير بإجماع مع الذى أوتيَّه من إحكام الصنعة وشدة الأسر .
ولأبى تمام حكم راعات أخاذاً مثل قوله :

« وَكَيْفَ يَجُورُ عَنْ قَصْدِ لِسَانِي وَقَلْبِي رَائِحُ بَرِّضَاكَ غَادِ »

وَمِمَّا كَانَتْ الْحُكَمَاءُ قَالَتْ لِسَانُ الْمَرْءِ مِنْ خَدَمِ الْفَوَادِ »

وههنا حيويَّة من فن . .

ولكن ليست ههنا حيويَّةُ الشاعريةِ الدَّفُوقِ التى تخترق حُجُبَ
الأجيال مثل قول امرئ القيس .

« أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِ بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمَثَلِ »

وقول زهير :

« وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخَفَى عَلَى النَّاسِ تَعَلَّمَ »

وقول جرير :

« بِنَفْسِي مَنْ تَجَنَّبُهُ عَزِيزٌ عَلَى مَنْ زِيَّارَتُهُ لِمَامٌ »

وقول أبي الطيّب :

«وَشَبَّهُ الشَّيْءُ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ وَأَشْبَهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ»
ومرادنا بالحيويّة عنصر الشّعْرِ المُنبِئُ فيه عن صدق التجربة وعمق
الانفعال معا .

وبين حيويّة الشاعريّة وحيويّة الفنّ فرق هو أنّ الأولى متّصلة بالكلام
اتصالا مباشرا بحيث التجربة والانفعال طرَفٌ من مصدرها دالٌّ عليه مُشْعِرٌ
بوجود شخصه ، كدلالة صوت الطائر الصّدُوح على الطائر نفسه مثلا . .
وهو المثل الذي مثّله أبو الطيّب (أنا الصّائِحُ المَسْحُوكِي)

والثانية فيها نوع من الانفصام بين التجربة والانفعال والفنّان الذي هو
مصدرهما . . . كأنّ الفنّانَ صانعٌ يعالج عمل شيء مصنوع فمهما يأت به
ذا حيويّة أو حيّاً فإنه لا بُدَّ بعدُ أن يكون منفصلاً عنه باثنا لا محالة ، على ما
بينهما من صلة الصانع والمصنوع .

هذا ومن براعة أبي الطيّب أنّه قد استطاع أن يعالج في حيّز قصيدة
المدح — ثمّ في غيرها من أصناف شعره — شتّى المشاكل الإنسانيّة ويعرّض
لتحليل دقيقات العواطف مثلا . .

«أَقِلَّ سَلامِي حَبَّ مَا خَفَّ عَنْكُمْ وَأَسْكُتْ كَيْمَا لَا يَكُونَ جَوَابُ»
وقوله :

«وَاحْتِمَالُ الْأَذَى وَرُؤْيَا جَانِيهِ هِـ غِذَاءُ تَضْوَى بِهِ الْأَجْسَامُ»
ويصور ألوان العباد والبلاد ولا يغفل في جميع ذلك عن نعت الطبيعة —
«لَوْلَاكَ لَمْ أَتْرِكِ الْبُحَيْرَةَ وَالْ غَوْرُ دَفِيئٌ وَمَاؤُهَا شَبِيمٌ»
ولفتات المرح . . كقوله في لحى معزى الجبال :

لو سُرّحت في عارضتي محتال لعدّها من شبكات المال
بين قضاة السوء والأطفال

وتجويد الغرام . . . كقوله :

« وما كنتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ الْعِشْقُ قَلْبَهُ

وَلَكِنَّ مَنْ يُبْصِرُ جُفُونَكَ يَعْشَقُ »

وكقوله . . . وفيه ذو :

مَرَّتْ بَيْنَا بَيْنَ سِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لَهَا مِنْ أَيْنَ جِئْتِ هَذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا
وقد أخذ شعره من التجربة أخذاً قوياً مباشراً . . . كأخذ امرئ (٤)

القيس حين يقول « كَحَقِيقِ النَّقَا يَمْشِي الْوَلِيدَانِ فَوْقَهُ » « دَرِيرٌ
كَحُذْرُوفِ الْوَلِيدِ » « كَلَمَعِ الْيَدَيْنِ » « مَشَى الْهَيْدَبَى فِي دَفِّهِ » « تَذَكَّرْتُ
أَهْلِي الصَّالِحِينَ » « تَنَظَّرْتُ فَلَمْ تَنْظُرْ بَعَيْنَيْكَ مَنَظَرًا » . . . وكما أخذ زهير
« وَكَائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ » . . وأمثال هذا في المجالس
كثير . وكان زهيراً يُعَرِّضُ بقوم حضروا مجلس الصلح بين عبس وذبيان
صامتين صوراً ثم إذا نطق منهم ناطق لم يكن إلاّ فدماً . . « صورة اللحم والدم »
التي هي مثلاً خروف .

تأمل قوله في عَضُدِ الدَّوْلَةِ :

أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضُدِ الدَّوْلَةِ فَتَاخُسُرُو وشهنشاها
أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةٌ ذَكَرْتَاهَا
تَقُودُ مُسْتَحْسِنَ الْكَلَامِ لَنَا كَمَا تَقُودُ السَّحَابَ عَظَمَاهَا
ههنا نظرة وتأملة للسحاب . .

وقال في الحسين التنوخي :

بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي عَلِيٍّ مِثْلُهُ شُمُّ الْجِبَالِ وَمِثْلُهُنَّ رَجَاءُ
وَعِقَابُ لُبْنَانَ وَكَيْفَ يَسْقُطُهَا وَهُوَ الشِّتَاءُ وَصَيْفُهُنَّ شِتَاءُ
لَيْسَ الثَّلُوجُ بِهَا عَلَيَّ مَسَالِكِي فَكَأَنَّهَا بِيَاضِهَا سَوْدَاءُ

ولشوقي في لبنان قصائد وليس في واحدة منها صفة لبنان كما ههنا .

وقد قال البحرى :

تَلَفَّتْ مِنْ عَلِيٍّ دِمَشْقَ وَدُونَنَا لِلْبُنَّانِ هُضْبٌ كَالْغَمَامِ الْمُعَلَّقِ

وهذا جيد .. ولكنه صفة تعمُّ وليس فيها من ذاتية لبنان كما فى
كلام أبى الطيّب —

لاحظ صورة شُمّ الجبال مشرفات ، كأبى على ، كالأشخاص ..
عليهين العاثم .. تشبيه سُمُوّهين وانبثاقهين إلى السماء بالرجاء .. عِقَاب
لبنان بردها فى الصيف حيث ينهمر البزد فى أيار —

وقال فى سيف الدولة :

وتُضْحى الحُصُونُ المُشْمَخِرَاتُ فى الدُّرَى
وخَيْلُكَ فى أعْنَاقِهِنَّ قَلَائِدُ

وهذه صورة حيّة للقلاع على الروابى ، وحركة الخيل بين الصخور ،
وامرئ يَنظر إلى كل ذلك بعين وفؤاد .

وقد كان أبو الطيّب عالماً .. أجمعوا على أنه كان من نَمَلَةِ اللغة وفى
شعره شواهد ذلك .. وكان كثير القراءة ولكنَّ قراءته كلّها تضمَّنْها فؤاده
ثم خلصت إلى نظمه وهى تأملات عميقة نافذات موجزات باقيات .. هذا
هو الذى حيرَّ أبا العلاء فأعجزه فقال « معجز أحمد » وقال « الشاعر » يعنى
بذلك المتنبي لاسواه .

وقد تعلَّم أبو الطيّب دبلوماسيّة المعاملات وسياسة الناس بعد أن
اكتملت كهولته وتمَّ نضجه ، من ذلك ريثه فى جواب سيف الدولة لما
استدعاه ، وحسن صحبته لعضد الدولة وتلطُّفه فى الاستئذان للخروج من
عند حضرته .

ولكنَّ أعداءه ما تعلَّموا أن يكبروا قدره ويغفروا له عبقرية فقتلوه
وهو فى طريق مآبه إلى الكوفة بعد رحلته المنجِحة إلى شيراز .

فلم يستفد ممَّا تعلَّم — رحمه الله — على الكهولة من دبلوماسية المعاملات
وسياسة الناس كبير فائدة كما ترى .

ولعلّه كان ينوى العودة إلى حلب ، ولعلّه إن وصل حلب ربّما أنجحَ
 فى هذا العود كما لم يُنَجِّحْ فى البدء. أم لعلّه كان يملّها ثمَّ يركب البحر إلى
 الأندلس . وكان شعره قد انعرج انعراجة عجبا فى اتجاه جديد إذ كان
 بفارس ... كان منطلقا يعود إلى الذكريات كعودات امرئ القيس إلى (٥)
 عهد طفولته فى أمثال قوله :

« يَزِلُّ الْغَلَامُ الْخَيْفَ عَنْ صَهْوَاتِهِ وَيَتَلَوَّى بِأَثْوَابِ الْعَنِيْفِ الْمُثْقَلِ »

وقوله :

لَمَنْ زُحْلُوْفَةٌ زُلُّ لَهَا الْعَيْنَانِ تَنْهَلُ
 ينادى الآخر الأُلُّ أَلَا حُلُّوا أَلَا حُلُّوا

هذا والحديث عن أبى الطيّب ذو شجون .

وإلى القارئ الكريم بعدُ خواطر وإنّما هى من باب التأويل والاقتراح
 فأمل أن يجد ذلك لديه بعض القبول — والله المستعان وبه التوفيق وله الحمد
 أوّلا وأخيرا وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليما .

المؤلف
 عبد الله الطيّب

(١)

فى شعر أبى الطيّب شواهد تدلّ على أنه همّ باغتياله أو أخذَ عليه الطريق أو أريدت إليه الغوائل وما بمجرّاه غير مرّة كقوله : (١)

« يَحْمَى ابْنُ كَيْغَلْخ . . . البيت »

فقد ذكروا أنّه اعتل عن مدح ابن كيغَلْخ لما سأله المديح وذلك قول أبى الطيّب «أُرْسَلْتُ تَسْأَلُنِي الْمَدِيحَ سَفَاهَةً» - بحلف ألا يمدح أحداً إلى مدّة عينها ٢ فأخذ هذا عليه الطريق حتّى تنتهى تلك المدّة فاحتال أبو الطيّب وهرب من وجهه . وكقوله يذكر أسدَ الفراديس :

« أَجَارُكَ يَا أَسَدَ الْفَرَادِيسِ مُكْرَمُ

فَيَسْكُنُ قَلْبِي أَمْ مُهَانَ فَمُسْلَمُ

ورائى وقد أُمى عداة كثيرة

أَحَازِرُ مَنْ لَصَّ وَمِنْكَ وَمِنْهُمْ

فَهَلْ لَكَ فِي حِلْفِي عَلَى مَا أُرِيدُهُ

فإنسى بأسبابِ الْمَعِيشَةِ أَعْلَمُ

إِذَا لَأَنَّاكَ الْخَيْرُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ

وَأَثَرَيْتَ مِمَّا تَغْنَمِينَ وَأَغْنَمُ

ولا يخفى ما فى هذه الأبيات من الشعور العميق بالوحشة مع الطموح المفرط .

وكقوله :

« أَتَانِي وَعَيْدُ الْأَدْعِيَاءِ وَأَنَّهُمْ

أَعَدُّوا لِي السُّودَانَ فِي كَفْرِ عَاقِبِ

ولو صدّقوا فى جدّهم لحدّرتهم

فَهَلْ لِي فِي وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ

وأحسبه مع هذا قد حذرهم إذ قد كان مجبولا على ذلك . وكقوله :

« وَمُسْتَسِيبٍ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَجَبُهُ

وَلِلنَّبَلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ حَقِيفُ

فَهَيَّجَ مِنْ شَوْقِي وَمَا مِنْ مَدَلَّةٍ حَنَنْتُ وَلَكِنَّ الْكَرِيمَ أَلُوفُ
وَكُلُّ وِدَادٍ لَا يَدُومُ عَلَى الْأَذَى دَوَامَ وِدَادِي لِلْحُسَيْنِ ضَعِيفُ
فَإِنْ يَكُنِ الْفَعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَرْنَ أَلُوفُ
وَنَفْسِي لَهُ - نَفْسِي الْفِدَاءُ لِنَفْسِهِ - وَلَكِنْ بَعْضَ الْمَالِكِينَ عَنِيفُ
فَإِنْ كَانَ يَبْغِي قَتْلَهَا يَكُ قَاتِلًا بِكَفِّيهِ فَالْقَتْلُ الشَّرِيفُ ثَرِيفُ
وَقِيلَ إِنَّ أَبَا الْعَشَائِرِ غَضِبَ عَلَيْهِ لِأَمْرِ فَارِسَلِ غُلْمَانَا لَهُ لِيَقْتُلُوهُ بِظَاهِرِ
حَلَبٍ فَرَمَاهُ أَحَدُهُمْ وَقَالَ : خُذْهَا وَأَنَا غُلَامُ أَبِي الْعَشَائِرِ .

وَقِيلَ إِنَّمَا حَدَثَ هَذَا أَمَامَ بَابِ دَارِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ عَشِيَّةَ يَوْمِ إِنْشَادِهِ :
«وَأَحْرَقَ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَمِيمٌ وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقِيمٌ»
وَخَبِرَ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ يُوقِفَ عِنْدَهُ .

فَرُبَّمَا كَانَ خَبَرِينَ رُويَا كَأَنَّهُمَا خَبِرَ وَاحِدَ بَرَوَائِتَيْنِ ، أَحَدُهُمَا أَنَّ أَبَا الْعَشَائِرِ
هَمَّ بِأَبِي الطَّيِّبِ لِأَسْبَابٍ خَاصَّةٍ بَيْنَهُمَا وَالْآخَرُ أَنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ أَوْ غَيْرَهُ هَمَّ
بِأَبِي الطَّيِّبِ عَشِيَّةَ يَوْمِ إِنْشَادِهِ الْمِمْسَةِ .

وَلَارِيبَ أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ شَمَّ رِيحَ الْمَوْتِ مِنْ تَلْقَاءِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَمَجْلِسِهِ (٣)
يَوْمَ أَنْ أَشْهَدَهَا - قَالُوا رَمَاهُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ بِدَوَاةٍ وَلَوْ قَدْ تَخَطَّفَتْهُ السُّيُوفُ حِينَئِذٍ
لَجَازَ عِنْدَهُ . قَالُوا وَرَقَّ لَهُ لَمَّا أَشْهَدَ :

«إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مُقَابَلًا حَاسِدُنَا فَمَا الْجُرْحُ إِذَا أَرْضَاكُمْوَأَلَمُ»
وَكُشِفَتِ الصَّحِيفَةُ وَلَمْ يَوْجَدْ بِهَا هَذَا الْبَيْتَ .

وَمَا يَقْوَى حَدَسْنَا أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ قَارِبَ الْمَوْتِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ ، (٤)
مَا رَوَوْهُ مِنْ سِعَايَةِ أَبِي الْفَرَجِ السَّامَرِيِّ فِي دَمِهِ وَتَرْخِيصِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لَهُ فِي
ذَلِكَ ثُمَّ مَا اضْطَرَّ إِلَيْهِ أَبُو الطَّيِّبِ آخِرَ الْأَمْرِ مِنَ الْإِعْتِذَارِ بِالْبَائِئِيَّةِ :

«أَلَا مَالِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ عَمَاتِيَا فِدَاهِ الْوَرَى أَمْضَى السُّيُوفِ مَضَارِيَا
أَهَذَا جِزَاءُ الصَّدْقِ إِنْ كُنْتُ ضَادِقًا أَهَذَا جِزَاءُ الْكُذْبِ إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا
وَإِنْ كَانَ ذَنْبِي كُلِّ ذَنْبٍ فَإِنَّهُ مُحَالٌ ذَنْبَ كُلِّ الْمَحْوِ مَنْ جَاءَ تَائِبًا»

والأبيات الفائية أرجح أن يقال إنها متعلقة بخبر الميمية إذ كأنّ أبا الطيّب ينفي فيها أن يكون أبو العشائر هو الذي رام قتله وذلك قوله :

«وَمُنْتَسِبٌ عِنْدِي إِلَى مَنْ أُحِبُّهُ وَلِلنَّبَلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ حَفِيفٌ»
والله تعالى أعلم .

وفى البائية التي أنشدها أبو الطيّب كافورا قوله : (٥)

«وَكَمْ لِيْظْلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تَخْبِرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ
وَقَالَكَ رَدَى الْأَعْدَاءُ تَسْرِي إِلَيْهِمْ وَزَارَكَ فِيهِ ذُو الدَّلَالِ الْمُحَجَّبُ»
والأعداء هنا سيف الدولة وبطانته بلاريب . بدليل قوله في الكلمة نفسها :

«وَيَوْمٍ كَمَا لَيْلِ الْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ أَرَأَيْبَ فِيهِ الشَّمْسُ أَيَّانَ تَغْرُبُ»
وبعد هذا، الأبيات الرائعة في وصف الخيل، الشديدة النظر الى امرئ القيس في رائيته :

(٦)

«إِذَا زُعْمَتُهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كِلَيْهِمَا مَشَى الْهَيْدَبَى فِي دَفِّهِ ثُمَّ فَرَفَرَا»
وامرؤ القيس ههنا يمدح حصانا غير عربي، ونظر إلى ذلك أبو الطيّب من طرف خفي حيث قال :

«وَمَا الْخَيْلُ إِلَّا كَالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنٍ مَنْ لَا يُجَرَّبُ
إِذَا لَمْ تُشَاهَدْ غَيْرَ حُسْنٍ شَيَاتِهَا وَأَعْضَائُهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ»
ونسأل بعد من ذو الدلال المحجب— وإن يك يجوز حمل الكلام على العموم؛ أي الليل يقيك الأعداء ويزورك فيه الأجباء . ويجوز أنّه الحبيب الذي زار بمصر وهو غير التي قال فيها :

(٧)

«وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ»
إلا أن نفنّس أبا الطيّب عنصر الصدق أبداً أغلب عليه والسياق يدل على أن الزيارة كانت بعد غروب شمس اليوم الذي كن فيه، وقوله في الميمية :

«وَلَوْ كَانَ مَابِي مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ عَزَدْتُ وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ مُعَمَّمٍ
رَمَى وَأَتَقَى رَمِيٍّ وَمِنْ دُونِ مَارَمَى

هَوَى كَأَسَرِّ قَوْسِي وَكَفَى وَأَسْهَمِي»
يقوى هذا ويكون المعمم سيف الدولة أو أبا العشائر والمقنّع مجهولا كما ينبغي.
وزعم زاعم أنه خولة أخت سيف الدولة باطل إذ مدح المتنبي لها بأنها بررة
باجدة من ذوات البأس والإنعام لا يحتمل كبير تأويل .

«كَأَنَّ فَعْلَةً لَمْ تَمْلَأْ مَوَاقِبُهَا دِيَارَ بَكْرٍ وَلَمْ تَجْلَعْ وَلَمْ تَهَبِ»
وهذا ليس فيه نفَسٌ من غرام ولا ينبغي له .
والانصراف بالكلية عنها في أخريات القصيدة إلى خالص الحكمة والتأمل
يقوى هذا ، وذلك قوله :

«تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَقَ لَهُمْ

إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ»
ولعل الحبيب المقنّع هو المذكور في اللامية حيث قال أبو الطيّب :

«لَقِيتُ رِبْدَ رَبِّ الْقَلَّةِ الْفَجَرَ لَقِيَةً شَفَتْ كَمَدَى وَاللَّيْلُ فِيهِ قَتِيلٌ» (٩)
وأجمع النقاد على أن هذا من محاسن أبي الطيّب وآخر القصيدة بلاريب قوله
«يَهُونُ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا وَتَسْلَمَ أَعْرَاضُنَا وَعُقُولُنَا» (١٠)
وما بعد ذلك إضافات أريد بها إعجاب سيف الدولة أو ترضيته أو شيء من
هذا الضرب . وقد فطن إلى فساد آخر هذه القصيدة الصاحب كما ذكر صاحب
البيتية . وسائر القصيدة يغمره المرح والنشوة التي أصاب الشاعر عند درب
القلّة والله تعالى أعلم .

وفي النونية «بِمِ التَّلَعُّلِ» التي نظمها أبو الطيّب عند كافور ولعله (١١)
لم ينشدها إيّاه مرارة ولوم لا ذع لسيف الدولة وذلك قوله :

«رَأَيْتُكُمْ لَا يَصُونُ الْعُرْضَ جَارُكُمْ وَلَا يَدْرُ عَلَى مَرْعَاكُمْ اللَّبَنُ
جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمْ مَلَكٌ وَحَظُّ كُلِّ حُبٍّ مِنْكُمْ ضِعْفٌ»
وإن صح ماذكروه من أن ابن خالوية شجّه بمفتاح في مجلس
سيف الدولة فهو ونحوه مما يبرر هذه المرارة .

وإنَّ صحَّ قول ابن رشيِّق أنَّ الهجاء بالتلميح أوجع من الهجاء بالتصريح
فلاريب أنَّ هذا أوجع من كلِّ ماهجا به أبو الطيِّب كافورا . وشعر أبي
الطيِّب في كافور سمح جزل منطلق يدلُّ على حبِّ كان له منه وإعجاب به—
ويدلُّك على إعجاب أبي الطيِّب بكافور قوله :

« فَوَافَقْتُ بِنَا إِنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَلْتُ بَيَاضًا خَلْفَهَا وَمَاقِيَا »
وقوله :

« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنْ مِصْرٍ إِلَى عَدَنٍ إِلَى الْعِرَاقِ فَأَرْضِ الرُّومِ فَالنُّوبِ
لِذَا أَتَتْهَا الرِّيحُ الذُّكْبُ مِنْ بَلَدٍ فَمَا تَهْبُّ بِهَا إِلَّا بِتَرْتِيبِ » (١٢)
وقوله :

« وَيُعْزِيكَ عَمَّا يَنْسِبُ النَّاسُ أَنَّهُ إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ
وَالْعُقْدَةُ النَّسَبِيَّةُ كَانَتْ عِنْدَ الْمُتَنَبِّئِ لِبِدَاوَتِهِ لَا عِنْدَ كَافُورٍ . وَلَا شَيْءَ أَكْثَرَ » (١٣)
انطلاقا وإسماحا من قول أبي الطيِّب :

« إِذَا سَارَتْ الْأَحْدَاثُ فَوْقَ نَبَاتِهِ تَفْوَاحَ مِسْكَ الْغَدَانِيَّاتِ وَرَنْدُهُ »
وقوله :

« وَكُلُّ أَمْرٍ يُؤَلَّى الْحَمِيلَ مُحِبِّبٌ وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ الْعِزَّ طَيِّبٌ
أَبَا الْمِسْكِ هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ فَإِنِّي أَغْنَى مِنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ
وفي هذا العتاب زهَّسُ النُّكْتَةُ الْمِصْرِيَّةُ وَأُرِيحِيَّتُهَا كَمَا لَا يَخْفَى . وَلَا أَكَادُ
أَشْلُكَ أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ رَضِيَ مِصْرَ وَأَحَبَّهَا وَمَا كَانَ يَسْعَاهُ غَيْرُ هَذَا ثُمَّ إِنَّ
نَفْسَهُ الْبِدْوِيَّةَ نَفَرَتْ عَمَّا لَدَّهَا بِمِصْرَ مِنَ النِّعْمَةِ وَهَذَا قَوْلُهُ :

« ذَرَيْتَنِي وَالْفَلَاةَ بِلَا دَلِيلٍ وَوَجَّهْتَنِي وَالْهَجِيرَ بِلَا لِيثَامٍ
فَأِنِّي أَسْتَرِيحُ بِإِذِي وَهَذَا وَأَتَعَبُ بِالْإِنَاخَةِ وَالْمُقَامِ »
ثم يقول :

« يَقُولُ لِي الطَّيِّبُ أَكَلْتُ شَيْئًا وَدَاؤُكَ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ
وَمَا فِي طَبِّهِ أَنَّنِي جَسَّادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طَوْلُ الْجِمَامِ »

فعلى طول الحمام والخفض والنعمة ثار ، ومن أولئك نَسَرَّ . . وقد زعم أبو العلاء
عن نفسه إنه كان « إنسى المولد وحشى الغريزة » وقد كان رحمه الله إنسى
المولد إنسى الغريزة وكان صاحبه أبو الطيب وحشيتها وحشى المولد .

ومما يدلُّك على إخلاصِ أبى الطيب مديح كافور ضعف اللامية التى
مدح بها فاتكا :

« لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ »

إذ ليس فيها نَسَسُ أبى الطيب وروحه الذى نعلم وإنما هى صوغ محكم .
وكان أبا الطيب رأى قبيحا به ألا يجزى فاتكا على إحسانه إليه فاستأذن فى
ذلك كافورا كما ذكروا ، فأذن له :

« فَرَبَّمَا جَزَتْ الْإِحْسَانَ مُؤْلِيَهُ خَيْرِيْدَةً مِنْ عِنْدِ أَرَى الْحَيِّ مَكْسَالٌ »
وترك الجزاء قبيح ، وترك القبيح مجاملة ، أو كما قال رحمه الله :

« إِنَّا لَنَقْبِى زَمِينَ تَرَكَ الْقَبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالٌ »
وكذلك المريثة التى رثاها بها ، وأبلغ ما فيها صفة الهرمين ، والميمية التى أولها :
« حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِى النَّجْمَ فِي الظَّامِ » (١٤)

إنما جاء فيها اسم فاتك اتفاقا أو قل كأن رمز به المتنبي لنفسه ، وهى من قرى : (١٥)
« مَلُومُكُمْ مَا يَجِلُّ عَيْنِ الْمَلَامِ »

تبرير للبداءة والانطلاق

وإنما كان هجاء أبى الطيب كافورا ضربا من الغضب على نفسه
والتبرير لطبعه . ولا يخفى أن أجود ما فى الدالية :

« عِيدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عِدْتُ بِأَعْيُدْ »

الغناء الذى فى أولها . وقد كان كافور قديرا على رده من أقصى حدود
مصر لو قد أراد .

وأجود ما فى المقصورة « أَلَا كُلُّ مَاشِيَةٍ الْخَمِيْزَلَى » نعت الطريق

وَالسَّبَابُ الَّذِي سَبَّهَ كَافُورًا لَيْسَ بِبَالِغِ جُودَةٍ جَيِّدَةٍ بِحَالٍ، وَذَلِكَ مِنْبِئُهُ بِأَنْ
لَمْ يَنْدَفِعْ عَنْ سِيْنَخٍ شَاعِرِي حَقًّا كَالشَّكْوَى الَّتِي فِي الْبَائِيَّةِ مِثْلًا .

وَقَدْ وَجَدَ أَبُو الطَّيِّبِ عِنْدَ عَمَضُدِ الدَّوْلَةِ مِنَ النِّعْمَةِ قَرِيبًا مِمَّا وَجَدَ عِنْدَ
كَافُورٍ، وَأَعْفَى طَبِيعُهُ كَمَا قَالَ، فَنَظَمَ بِلا تَكْلُفٍ وَلَمْ يَتَشَكَّ وَلَمْ يَتَعَتَّبْ عِنْدَ عَمَضُدِ
الدَّوْلَةِ لِلَّذِي صَحَّ عِنْدَهُ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ طَبَّقَ صَيْتَهُ الْآفَاقُ قَدْ جَاوَزَ مَرْتَبَةَ
أَنْ يَطْلُبَ وَلايَةَ أَوْ ضِعْفَةَ .

وَقَدْ نَبَّهَ الدَّكْتُورُ طَهَ فِي كِتَابِهِ مَعَ الْمُتَنَبِّئِ إِلَى صِفَةِ نَادِرَةٍ مِنَ الْإِنْطِلَاقِ
الْمَحْضِ وَالْيَسْرِ الْمُنْفَسِحِ وَالْخِيَالِ الْجَمُوحِ أَفَادَهَا شَعْرُ أَبِي الطَّيِّبِ بِفَارِسٍ، وَمِثْلُ
لَهَا بِكَلِمَتِهِ فِي مَشْطُورِ الرَّجَزِ « مَا أَجْدَرَ الْأَيَّامَ وَالْيَالِيَّ » وَقَدْ يُضَافُ هَهُنَا
أَنْ مَا كَانَ فِي شَعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ مِنْ عِنَصِرِ الشَّكْوَى الْمُرْقَدِ آضٌ بَعْدَ أَنْ دَخَلَتْهُ
هَذِهِ الصِّفَةُ رُوحًا مِنَ الْحَزَنِ خَفِيَ الْمُدْخَلُ كَالَّذِي فِي كَلِمَتِهِ :

« يَقُولُ بِشُعْبِ بَوَّانٍ حِصَّانِي أَعَنُ هَذَا يُسَارُّ إِلَى الطَّعَّانِ
أَبُوكُمْ أَدَمُ سِنَّ الْمَعَاصِي وَعِلْمُكُمْ مَفَارِقَةُ الْجِنَانِ »

فَهَذَا فِيهِ مِنَ التَّعَلُّقِ بِالْحَيَاةِ وَالْأَسَى عَلَى فَوَاتِهَا شَبِيهٌ بِمَا فِي قَوْلِهِ :

« حَتَّامٌ نَحْنُ نُسَارِي النُّجُومَ فِي الظُّلَمِ »

وَقَوْلُهُ :

« وَمُرَادُ النُّفُوسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ نَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ نَتَفَانَى »

وَقَوْلُهُ :

« لَيْتَ الْحَوَادِثَ بَاعَتْنِي الَّذِي أَخَذَتْ

مِنِّي بِحِلْمِي الَّذِي أَعْطَتْ وَتَجَرَّيْ بِي »

وَفِيهِ أَيْضًا اسْتِسْلَامٌ لِلْمَأْسَاءِ إِذْ مَفَارِقَةُ الْجِنَانِ كِتَابُ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ
لَا يَسْتَطِيعُ عَنْهُ مَصْرَفًا . وَالْحَقُّ صِفَةُ الْإِنْطِلَاقِ الْمَحْضِ هَذِهِ مَعَ الْيَسْرِ وَفِيضُ
خِيَالِ أَفَادَهَا الْمُتَنَبِّئِ قَبْلَ فَارِسٍ بِمَصْرٍ ، وَشُعْبِ بَوَّانٍ عَلَى رُوعَتِهِ لَا يَخْلُو مِنْ
أَنْ يَكُونَ كُنِيَ بِهِ عَنْهَا وَقَدْ لَاحَقَهُ مِنْهَا خِيَالٌ إِلَى النُّوبَنْدَجَانِ ، إِلَى دِمَشْقَ (١٦)

.. لَسِيْقُ الثَّرْدِ صِنِيَّ الْجَفَانِ

يَلْدُنْجُو جِيَّ مَا رُفِعَتْ لِيْضِيْفُ

بِهَ النَّيْرَانُ نَدَى الدَّخَانِ »

« قَلَّ لَدُّ كَافُورٍ وَعَقِيَانُهُ الَّذِي بَصُمُ الْقَنَا لَا بِالْأَصَابِعِ نَقْدُهُ (١٧)
نَجْرُ الْقَنَا الْخَطِيَّ حَوْلَ قِيَابِهِ وَتَرْدَى بِنَا قُبُّ الرِّبَاطِ وَجَرْدُهُ
وَمَتَمَحْنُ النَّشَابِ فِي كُلِّ وَابِلٍ دَوَى الْقَسَى الْفَارِسِيَّةِ رَعْدُهُ
وَأَتَعَبُ خَلَقَ اللَّهُ مِنْ زَادِ هَمِّهِ وَقَصَّرَ عَمَّا تَشْتَهَى النَّفْسَ وَجَدُهُ
يَرَى جِسْمَهُ يَكْسَى شُهُوفًا تَرْبُهُ فَيَخْتَارُ أَنْ يَكْسَى دُرُوعًا تَهْدُهُ »
وهذا كقوله :

(١٨) « وَعَلَمَكُمُ مِّفَارِقَةُ الْجِنَانِ »

وليس كقوله آنفا عند سيف الدولة :

« وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقِيْدًا »

لأنه كما ترى يروم ههنا قيد الإحسان فلا يستطيع إليه سبيلا

قال الثعالبي في اليتيمة « لما أنجحت سفرته وربحت تجارتها بحضرة
عضد الدولة ووصل إليه أكثر من مائتي ألف درهم استأذنه في المسير منها
ليقتضى حوائج في نفسه ثم يعود إليها ، فأذن له ، وأمر بأن تخلع عليه الخلع
الخاصة » إلى أن قال : « فلما فارق أعمال فارس حسب أن السلامة تستمر
به كاستمرارها في مملكة عضد الدولة ولم يقبل ماأشير به عليه من الاحتياط
باستصحاب الخفراء فجري ما هو مشهور من خروج سرية من
الأعراب عليه ومحاربتهم إيَّاه وتكشف الواقعة عن قتله وابنه مُحَسَّد ونفر من
غلمانهم وفاز الأعراب بأمواله وذلك في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة . »

ونقف عند قول الثعالبي « فجري ما هو مشهور . . . الخ » ومع شهرته
لاندرى عمن تلقاه راووه . فمنهم قائل إنَّ فاتكا الذي عرض لأبي الطيب
في جماعة من الأعراب ؛ فعل ذلك غضبا من بائيته التي هجا بها ضبَّة — قال
العكبري « وقال يهجو ضبَّة بن يزيد العيني وصرَّح بتسميته فيها لأنه كان

لا يفهم التعريض ، كان جاهلا ، وهذه القصيدة من أردأ شعر المتنبي ؛
وكأن العكبرى قد غفل أن من مذهب البداوة في الإفحاش بعض هذا
وما يقاربه كالذي كان يقع عند الفرزدق وجريز مثلاً .

ومن قائل أن أبا الطيب فرّ وذكره غلامه قوله :

« الخيل والليل والبيداء تعرفني ... » (١٩)

فثبت وقتل أو قال للغلام قتلتي أو شيئاً من هذا المعنى . وإن صحّ هذا
الخبر فهو أشبه بما اعتاده أبو الطيب من الاستعداد للخاريين والإفلات منهم
ولعلّه نجا من هذا الذي ذكروا أن اسمه فاتك ثم أصيب من بعد ، فكلهم
مجمعون أنّه قد قتل بديّر العاقول ، وهو بسواد بغداد ، ولا يعقل أن يكون
اعتراض الأعراب لأبى الطيب قريباً من بغداد . وأرجح من ذلك أن يكون
الأعراب قد لقّوه بعيداً عنها ، ولما أفلت بعد قتال ما ، أمن إلى النجاة
وحسب أن السلامة تستمرّ به من بعد على حدّ تعبير الثعالبي . ولكنّ الذين
أغروا به الأعراب ليقتلوه يبدو أنهم أيضاً قد أكلوا به آخرين يراقبون
مقدمه عند بديّر العاقول أو قل خارج بغداد غير جدّ بعيد منها . فلما
رأوه قادماً مطمئناً قد نجا رمّوه بسهم وانتهبوا ماله .

ولا يستبعد أن يكون سيف الدولة قد كان وراء جميع ذلك التدبير .
فقد ذكروا أنّه كان يغضبه أن يطول سكوت المتنبي عن مدحه . قال العكبرى
في تقديم الميسية :

« واحرّ قلباه ممّن قلبه شيم »

« وأنشدها في محفل من العرب وكان سيف الدولة إذا تأخر مدحه شقّ
عليه وأحضر من لاخير منه وتقدّم إليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب وأكثّر
عليه مرّة بعد مرّة » أ . ه . كلام العكبرى . فكيف إذا انصرف عنه بالكلية
ومدح سواه — وقد رأينا كيف حذّره أبو الطيب وفرّ منه فراراً لا هوادة فيه ،
وذلك قوله :

« فله سيري ما أقلّ تنيسة عشية شرقيّ الحدّالي وغرب (١)

(١) الحدّالي موضع بالشام وغرب اسم جبل فيه .

«عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَى الطَّرِيقِينَ الَّتِي أَتَجَنَّبُ»
وقد أهدى إليه وهو بالكوفة وشكره أبو الطيب بلاميته التي مطلعها:
(٢٠) «مَالَنَا كُلُّنَا جَوَّ يَارَسُولُ»

وهي على جودتها لا تخفى ما في جملتها من تكرار المعاني والنغمات
اللاء في السيفيات من غير التوتر والانفعال الذي في السيفيات - البعد
الزمانى والمكانى والنفسى عن سيف الدولة كل ذلك واضح الطابع فيها:
«وَمَعَى أَيُّنَا سَلَكْتُ كَسَانِي كُلُّ وَجْهٍ لَهُ بِوَجْهِي كَسْفِيلُ
فَرَسٌ سَابِقٌ وَرُمَحٌ طَوِيلٌ وَدِلَاصٌ زَغْفٌ وَسَيْفٌ صَقِيلٌ
وَسَوَى الرُّومِ خَتَلَفَ ظَهْرِكَ رُومٌ فَغَسَلَى أَيُّ جَانِبِكَ تَمْسِيلُ
مِنْ عَيْبِيدَى إِنْ عِشْتُ لِي أَلْفُ كَافٍ رُولَى مِنْ نَدَاكَ رَيْفٌ وَنِيلُ»
وهيها وإنما هذا اعتذار وتنصل وهو بعد القائل :

«قَوَاصِدُ كَافُورٍ تَوَارِكُ غَيْرِهِ وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ السَّوَاقِيَا
فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانٌ عَيْنُ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضاً خَلْفَهَا وَمَاقِيَا»
والآيات التي في أوائل نسيب هذه اللامية ، وذلك قوله :

«مَالَنَا كُلُّنَا جَوَّ يَارَسُولُ أَنَا أَهْوَى وَقَلْبُكَ الْمُتَبُولُ
كُلَّمَا عَادَ مِنْ بَعَثْتُ إِلَيْهَا غَارَ مَنَى وَخَانَ فِيمَا يَقُولُ
أَفْسَدَتْ بَيْنَنَا الْمَوَدَّاتِ عَيْنَاهَا وَخَانَتْ قُلُوبُهُنَّ الْعُقُولُ
صَحَبْتَنِي عَلَى الْفَلَاحِ فَتَاةٌ عَادَةُ اللَّونِ عِنْدَهَا التَّبْدِيلُ» (٢١)
مِنْهَا أَنْتَ لَوَحْتَنِي وَأَضْنَيْتَ وَزَادَتْ أَبْهَا كَمَا الْعُطْبُولُ
تنظر إلى «آيَالِي» بعد الظاعنين شكول» وكان المعانى التي يتغنى بها ههنا
أصداء من المعانى التي تغنى بها هناك ولعل رسولها ههنا الشمس كما قال ثم :
«وَيَوْمَ كَانَ الْحَسَنُ فِيهِ عَلَامَةٌ بَعَثْتُهَا وَالشَّمْسُ مِنْكَ رَسُولُ» (٢٢)
والشمس ههنا غيرى لأنَّ المحبوبة أبهى منها . وغير خاف أن روح
المرح ههنا كأنما هو أيضا صدى من روح المرح الذى أشاعه لقاءه المحبوبة

إذ لقيها بدرب القلّة . وهناك ومن بعض شواهدہ لَمَّا أَخَذَ فِي صِفَةِ الْغَزَاةِ :

« رَمَى الدَّرَبَ بِالْجُرْدِ الْجِيَادِ إِلَى الْعِدَا

وَمَاعَلِمُوا أَنَّ السَّهَامَ خِيُولُ

شَوَائِلَ تَشْوَالِ الْعُقَارِبِ بِالْقِنَا

لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصِيْهِيلُ »

وقد نبّه الدكتور طه إلى بعض هذا في حديثه عن هذه القصيدة الرائعة

في كتابه مع المتنبي .

هذا ، قالوا وكتب إليه سيف الدولة من بعدُ يستدعيه فكان جواب

أبي الطيّب أن قال :

« فَهَيْمَتُ الْكِتَابِ أَبْرَأَ الْكِتَبِ

فَسَمِعًا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبِ »

ولم يسمع شيئا .

« وَمَا لِقَيْنِي بَلَدٌ بَعْدَ كُفْمٍ وَلَا أَعْتَضْتُ مِنْ رَبِّ نُعْمَايَ رَبِّ

وَمَنْ رَكِبَ الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَا دَ أَنْكَرَ أَظْلَافُهُ وَالْغَسْبُ

وَمَا قَسَتْ كُلَّ مَلُوكِ الْبِلَادِ فَدَعُ ذَكَرَ بَعْضٍ بِمَنْ فِي حَلْبِ »

ولكنّه ذهب بعدُ يقيس ولقي عضد الدولة وقال فيه :

« وَقَدْ لَقِيتُ الْمُلُوكَ قَاطِبَةً وَسِرْتُ حَتَّى لَقِيتُ مَوْلَاهَا

أَبَا شُجَاعٍ بِفَارَسِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ فَنَاخُسُرُ وَشَهَنشَاهَا

أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَسَدَةٌ ذَكَرْنَاهَا »

وقد ذكروا أنّ سيف الدولة تعجّب أن كان أبو الطيّب قد جعله في

جملة رعايا عضد الدولة .

وفي هذه القصيدة ذكر أبو الطيّب الشام . وحنّ إليه وذكر شاميّة

لعلّها هي أيضا صدى من صاحبة درب القلّة ، وذلك قوله :

« شَامِيَّةٌ طَالَمَا خَلَوْتُ بِهَا تُبْصِرُ فِي نَاطِرِي مُحْيَاها »

فَقَبَلْتُ نَاضِرِي تُغَالِطُنِي وَإِنَّمَا قَبَلْتُ بِهِ فَاهَا (٢٣)
 مَا تَمَقَّصْتُ فِي يَدِي غَدَائِرُهَا جَعَلْتُهُ فِي الْمُدَامِ أَفْوَاهَا
 فِي بِلَادٍ تُضْرَبُ الْحِجَالُ بِهِ عَلَى حِسَانٍ وَلِسَنٍ أَشْبَاهَا
 لَيْقِينَ نَسَا وَالْحُمُولُ سَائِرُهُ فَيَهْنُ دُرٌّ قَدْ بُنِيَ أَمْوَاهَا (٢٤)
 وهذا قريب من قوله «لَهَا بَشَرٌ الدَّرُّ الَّذِي قَلَّدْتُ بِهِ»

كُلُّ مَهْمَاةٍ كَأَنَّ مُقَلَّتَهَا تَقُولُ لِيَاكُمْ وَيَاهَا
 فِيهِنَّ مَنَ تَقَطَّرُ السَّيْفُ دَمًا إِذَا لِسَانُ الْمُحِبِّ سَمَاهَا
 أَحَبُّ حُمَصًا إِلَى خَنَاصِرَةٍ وَكُلُّ نَفْسٍ تُحِبُّ حَبِيَّاهَا
 حَيْثُ التَّقَى خَدُّهَا وَتُفَاحُ لَبِّ نَانَ وَتَغْرِي عَلَى حُمَيَّاهَا
 وَصِفْتُ فِيهَا مَصِيفَ بَادِيَةِ شَتَوَاتٍ بِالصَّحْصَحَانِ مَشْتَاهَا
 إِنَّ أَعْشَبَ رَوْضَةٍ رَعِيَّتَاهَا أَوْ ذَكَرَتْ حِلَّةً غَزَوْنَاهَا
 أَوْ عَمِرَتْ عَانَةٌ مَقْرَعَةٌ صَدْنَا بِأَخْرَى الْجِيَادِ أَوْلَاهَا (٢٥)
 أَوْ عَمِرَتْ هَجْمَةٌ بِنَا تَرَكْتِ تَكْوُسُ وَسَطَ الشَّرُوبِ عَقْرَاهَا
 وَالْحَيْلُ مَطْرُودَةٌ وَطَارِدَةٌ تَجُرُّ طُولِي الْقَتَا وَقُصْرَاهَا

ومع هذا فضل عضد الدولة ، وذلك قوله :

«وَقَدْ رَأَيْتُ الْمُلُوكَ قَاطِبَةً وَسِرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مَوْلَاهَا
 أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضِدَ الدَّوْلَةِ فَتَأَخَّسْتُ وَشَهَنشَاهَا
 أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةٌ ذَكَرْنَاَهَا»

وما أحسب أن سيف الدولة وقد بلغه هذا وعَلَّقَ عليه إن صحَّ ما رَوَّه
 من قوله «تَرَى هَلْ نَحْنُ فِي الْجَمَلَةِ ؟» قد غفر لأبي الطَّيِّبِ ، فقد كان ربَّ
 نُعْمَاهُ .

ولاشكَّ قياساً على الَّذِي ذَكَرُوا مِنْ غَضَبِهِ عَلَيْهِ حِينَ تَأَخَّرَ مَدْحُهُ عَنْهُ ،
 أن يكون رأى أَنَّهُ قد خانَهُ بِالصِّيُورَةِ إِلَى كَافُورٍ فَعَضِدَ الدَّوْلَةَ .

وقد كان رفض أبي الطيّب الاستجابة إلى دعوته آخر الأمر هو
القاضية ، وما كان ليعسر من بعد على أعداء أبي الطيّب بحلب أن يتصلوا
بأعدائه في بغداد وتمّ المؤامرة وقديما قد قال :

«إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدِرُوا أَلَّا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمْ
لِئَن تَرَكْنَ ضُمِيرًا عَنْ مِيَامِنَا لِيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتَهُمْ نَدَمٌ»
أو «لسيف الدولة الندم» كما روى بعضهم - فهل كان ذلك الندم
قبل دَيْرِ العاقول أو بَعْدَهُ - الله أعلم أيُّ ذلك كان .

قال أبو منصور الثعالبي « كان الصّاحب يقول بُدِءَ الشعر بملك وخُتم بملك ، يعنى امرأ القيس وأبافراس . »
وأحسب أن الصّاحب قال ذلك يعنى امرأ القيس وأبا الطيّب إذ كلاهما من كندة وكلاهما طلب الملك وأخفق .

وقال الثعالبي يذكر أبا فراس : « وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز ويتحامي جانبه ولا ينزى لمباراته ولا يجترىء على مجاراته . وإنّما لم يمدحه ، ومدح من دونه من آل حمدان ، تهيئاً له وإجلالاً ، لا إغفالاً وإخلالاً . وكان سيف الدولة يُعجب جداً بمحاسن أبى فراس ويميّزه بالإكرام عن سائر قومه ويصطنعه لنفسه ويصطحبه فى غزواته ويستخلفه على أعماله وأبو فراس ينشر الدرّ الثمين فى مكاتباته إيّاه ويؤفيه حق سؤدّدِهِ ويجمع بين أدبىّ السيف والقلم فى خدمته » ا . هـ .

وجلىّ أن هذا لا يستقيم مع زعم من زعم أن أبا الطيّب إنّما إيّاه أراد بقوله فى الميمية :

« أَعْيِدُهُمَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةٍ »

أَنَّ تَحْسِبَ الشَّحْمِ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

وقد يذكر أنّه كان فى الذين أغرّوا به سيف الدولة حين أنشده القصيدة التى منها هذا البيت وأوتها :

« وَاحْرَ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيمٌ وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ »

وفى النفس بعدُ من تراجم أبى منصور لأبى الطيّب وسيف (١) الدولة وأبى فراس خاصّة شيء كثير ولعلّه رحمه الله راقب بعض رجال

عصره في الذي كتب ، من أمثال الصاحب والشريفين الرضى والمرضى . .
وروايته أخبار سيف الدولة ، عن طريق ابن خالويّة ، وكان من خصوم
المتنبى كما تعلم ، مِمّا قد يرجّح هذا الحدس .

وقال أبو الطيّب :

«أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضَبْنِي شُوَيْرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِنِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ
إِسَانِي بِسُطُوقِي صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ»

وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلٌ
وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تَجِيبُهُ

وَأَغْيَظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ

وهذا إغفال كما ترى .

فليت شعري هل أراد أبو منصور أن ينفي عن أبي فراس أنّه بعض
من كان عنه هذا الإغفال . . أنّه مثلاً هو الشوير الذي كان تحت ضَبْنِ أبي
الطيّب ؟

تأمل مقال أبي منصور : «تهيباً وإجلالاً لا إغفالاً وإخلالاً» ولم يكن
رحمه الله يجهل أنّ التهيب والإجلال ليسا من خُلُقِ أبي الطيّب وأن الإغفال
والإهمال ربّما كانا من خلقه ، يدلّك على هذا أنّه عقد فصلاً في ترجمته له
أسماء «إساءة الأدب بالأدب» واستشهد على بعضه بقوله في مراثيته لأخت
سيف الدولة :

«وَهَلْ سَمِعْتَ سَلَامًا لِي أَلَمْ يَهَيَّا فَقَدْ أَطَلْتُ وَمَا سَلَّمْتُ مِنْ كَثَبٍ»
ثم علق قائلاً : «وما باله يسلم على حُرَمِ الملوك ويذكر منهنّ ما يذكر
المتغزل . . . الخ» .

ثم لما عرض لمحاسن أبي الطيّب ذكر منها «مخاطبة المدح من الملوك
بمثل مخاطبة المحبوب والصدّيق مع الإحسان والإبداع وهو مذهب تفرد به
واستكثر من سلوكه اقتداراً منه وتبحّراً في الألفاظ والمعاني ورفعا لنفسه عن
درجة الشعراء وتدرجاً خافياً إلى مماثلة الملوك . . . الخ» .

وقال بعد استشهاده في آخر هذا الفصل بثمانية عشر بيتاً من الميمية ،

يعلّق عليها في جملتها : « وهي على براعتها واستقلال أكثر أبياتها بأنفسها (٢) تكاد تدخل في باب إساءة الأدب بالأدب ، وقد تقدّم ذكره » ا . ه .
هذا وفي قوله أبي الطيّب :

« وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تُجِيبُهُ »

وَأَغِيظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ »

كالإشارة الخفية أو التعريض إن صحّ هذا والذي يذكرونه من أن أبا فراس كان من المحرّضين عليه المتحرّشين به في مجلس سيف الدولة يوم أنشد الميمية . وكأنّه الحاسد المراد بقوله :

« إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَاقَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لَجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ »

ولعلّ أبا فراس كان يُدِلُّ على أبي الطيّب بقرابته من سيف الدولة ويتيه فما يزيد هذا إلّا إعراضا عنه وإهمالا له وعلى هذا المعنى يستقيم تأويل قوله :

« وَمَا التَّيَّهُ طِبِّي فِيهِمْ غَيْرَ أَنْنِي بَغِيضٌ إِلَى الْجَاهِلِ الْمُتَعَاقِلِ »
ثم يقول يخاطب سيف الدولة :

« وَأَكْبَرُ تِيهِي أَنْنِي بِكَ وَاثِقٌ وَأَكْبَرُ مَالِي أَنْنِي لَكَ آمِلٌ »

لعلّ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْقَرَمُ هَبَّةٌ يَعْيِشُ بَهَا حَقٌّ وَيَهْلِكُ بِطَائِلٌ »

ولكنّ سيف الدولة القرم ، كان ينصر قراباته على شاعره ، وقد تعلّم

كيف أوشك أن يبطش به يوم الميمية والذي روى من ترخيصه للسامري أن

يسعى في دمه وقد شجّه ابن خالويه بمرأى منه وفي حضرته حتّى قال لما

رأى جفاء الأمير وخاف سوء المصير :

« إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَاقَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لَجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ »

وكان قد قال من قبل :

« أُعِيدُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فَيَمْنُ شَحْمُهُ وَرَمَ »

ثم قال بعد أن نجا من حلب وغادر مصر وصار إلى الكوفة وأتته رسائل

سيف الدولة ورسله ليعود :

«وَمَا عَاقَبَنِي غَيْرُ قَوْلِ الْوُشَاةِ وَإِنَّ الْوُشَاةَ طُرُقَ الْكَذِبِ
وَتَكْثِيرِ قُومٍ وَتَقْلِيلِهِمْ وَتَقْرِيبُهُمْ بَيْنَنَا وَالْحَبِيبِ
وَقَدْ كَانَ يَنْصُرُهُمْ سَمْعُهُ وَيَنْصُرُنِي قَلْبُهُ وَالْحَسَبُ»

أى كان يسمع شعري فيطرب وينصُرني بهواه وقلبه أريحهُ حسبه
البدويُّ ثم يسمع منهم ويفكر ويقدّر فينصرهم من بعد، يرى أن ذلك هو
الرأى والحزم والسياسة والعصبيّة وهلمَّ جرّاً .

وكان أبو الطيّب يُنشد في حضرة سيف الدولة جالسا وكأن ذلك منه قد
كان طرحا للكلفة وإظهاراً للألفة وأنسا بالقرب، غير أن الجلوس قد كان
ولازال عند أهل المشرق من سمت المغنين . ولعلَّ أبا الطيّب رحمه الله كان
يترنم ويتغنى إذا أنشد فقد رُوِيَ أنه كذلك كان يصنع شعره .

وما كان المغنى مهما يُكرم عند سيف الدولة ويكُ من مراتب أهل
الفضل ببالغ قدَر من يكون ابن عم له من بنى حمدان أنفسهم صليّةً .
ولعلَّ أبا الطيّب كان يشير إلى بعض هذا المعنى في قوله :

«مَا كَانَ أَحَدُ قَنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمَمٌ» (٣)
وهيهات ليس بأَمَمٍ أَمْرُ الجُهلاء من أَمْر العلماء وتلك هى المأساة
ولا ينبئك مثل خير .

ولما صار رحمه الله إلى الأمير الفطن كافور لم يكن ينشد إلا واقفا
وقيل اشترط عليه ذلك والله أعلم . والوقوف من سمت الخطيب . وفى فطنة
كافور يقول أبو الطيّب وهو صادق :

«أَقِلُّ سَلَامِي حُبَّ مَا خَفَّ عَنْكُمْ

وَأَسْكُتُ كَيْمًا لَا يَكُونُ جَوَابُ» (٤)

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ قَطَاعَةٌ سَكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ

وما زعمه الثعالبيُّ من أنَّ أبا الطيّب لم يكن ينبرى لمباراة أبي فراس
صحيح إذ لم تكن به إلى ذلك حاجة . ولكنَّ أبا فراس كان يبارى أبا الطيّب

ويختبر على مجاراته ، قال أبو منصور الثعالبي في اليتيمة في معرض ترجمته لسيف الدولة : « وكان سيف الدولة اصطنع بني كلاب وأدناهم وأمن سربهم فقهروا العرب إلى أن بدت منهم جفوة أحفظته فأسرى إليهم وأوقع بهم وملك حرمهم وأموالهم ثم صفع عنهم » إلى أن قال : فقال أبو الطيب - واستشهد بآيات من بآيته في ذلك ثم قال : « وكتب إليه أبو فراس في تلك الحال يداعبه » . وذكر آياتا في نفس المعنى . وهذا في المحاكاة والمجاراة نص كما ترى .

قال أبو الطيب يذكر نساء بني كلاب :

« فَعُدْنَ كَمَا أَخَذْنَ مُكْرَمَاتٍ عَلَيْهِنَّ الْقَلَائِدُ وَالْمَلَابُ » (٥)
 الملب ضرب من الطيب .

« يَثْبُنُكَ بِالَّذِي أُولَيْتَ شُكْرًا وَأَيْنَ مِنَ الذِّى تُؤَلَى الثَّوَابُ
 وَلَيْسَ مَصِيرُهُنَّ إِلَيْكَ شَيْنًا وَلَا فِي صَوْنِهِنَّ لَدَيْكَ عَابُ
 وَلَا فِي فَقْدِهِنَّ بَنَى كِلَابُ إِذَا أَبْصَرْنَ غُرَّتَكَ اغْتَرَابُ »
 وقال أبو فراس أو كتب كما قال الثعالبي :

« وَمَا زِلْتُ مُدُّ كُنْتُ تَأْتِي الْجَمِيلَ وَتَحْشِي الْحَرِيمَ وَتَرَعَى الْحَسَبُ
 وَتَغْضَبُ حَتَّى إِذَا مَا مَلَكَتْ أَطَعْتَ الرِّضَا وَعَصَيْتَ الْغَضَبُ
 فَكُنْتُ حِمَاهُنَّ إِذْ لَاحِمِي وَكُنْتُ أَبَاهُنَّ إِذْ لَيْسَ أَبُ
 فَوَلَّيْنِ عَنْكَ يَفْقَدِيْنَهَا وَيَرْفَعُنَّ مِنْ ذِيْلِهَا مَا انْسَحَبُ »
 وهذا يشير به إلى إحداهن وقد كان بنى هذه الآيات عليها من أولها حيث قال :

« وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ يَوْمَ الْمَغَارِ مُحْجَبَةً لَفَظَتْهَا الْحُجُبُ »

وهذه هي المداعبة التي عنى الثعالبي وقوله « لفظتها الحجب » قبيح (٦)
 جاس . ثم ما أخذ فيه من بعد غير خارج عن معنى أبى الطيب « فعدن كما أخذن » وقوله « يثبُنك بالذى أوليت » يتضمن روح الحوار كما ترى . والمقام

لا يقتضى التفصيل . ولا يخلو قول أبى منصور « يداعبه » من نوع مأخذ على أبى فراس .

وقال أبو فراس وهو أسير بأرض الروم :
« مُصَابِي جَلِيلٌ وَالْعَزَاءُ جَلِيلٌ وَظَنَنْتِي بَأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ »
وذلك كان بعد ارتحال أبى الطيّب وجلى أنه هنا يجارى قصيدة أبى الطيّب :

« لِيَا لِيَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولٌ طِيَوَالٌ وَلَكِيلٌ الْعَاشِقِينَ طَوِيلٌ »
وفى شعره ما يدل على أنه قد نظر إليها مرارا من قبل .

وقد اختصر الثعالبى معانى « لِيَا لِيَّ » بعد الظاعنين شكول « حيث عرض لذكر غزوات سيف الدولة ، قال « ويقال إن سيف الدولة غزا الروم أربعين غزوة له وعليه إلى آخر ما قاله » ثم أشار إلى ما كان من فرار الدمستق وأسر ابنه قسطنطين ، « وعبر سيف الدولة الفرات إلى بلد الروم ولم يفعله أحد قبله حتى أغار على بطن هنزيط » ثم استشهد بأبيات من الدالية « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا » من ذلك قوله :

« فَوَلَّى وَأَعْطَاكَ ابْنَهُ وَجِيُوشَهُ جَمِيعاً وَلَمْ يُعْطِ الْجَمِيعَ لِيُحْمَدَا
وَمَا طَلَبَتْ زُرُقُ الْأَسِنَّةِ غَيْرَهُ وَلَكِنْ قُسْطَنْطِينَ كَانَ لَهُ الْفِدَا »
والحديث عن الدُمستق . وأتبع ذلك أبياتا رائية من شعر أبى فراس :
« وَآبَ بِقُسْطَنْطِينَ وَهُوَ مُكْبَلٌ تَحْفُ بِطَارِيقٍ بِهِ وَزَرَازِرُ »
وَوَلَّى عَلَى الرَّسَمِ الدُّمُسْتَقُ هَارِباً

وَفِي وَجْهِهِ عِذْرٌ مِنَ السَّيْفِ عَازِرُ
فَدَى نَفْسَهُ بِابْنٍ عَلَيْهِ كَنَفْسِهِ

وَلِلشَّدَةِ الصَّمَاءِ تُقْنَى الذَّخَائِرُ
وَقَدْ يُقْطَعُ الْعُضْوُ النَّفِيسُ لغيره

وَتُدْفَعُ بِالْأَمْرِ الْكَبِيرِ الصَّغَائِرُ

ولم يستشهد أبو منصور بشيء من لامية أبي الطيب . وعلى نحو قوله : (٧)
 ورُعْنَ بِنَا قَلْبَ الْفُرَاتِ كَأَنَّمَا تَخِرُّ عَلَيْهِ بِالرَّجَالِ سَيُولُ
 يُطَارِدُ فِيهِ مَوْجَهُ كُلِّ سَابِجٍ سَوَاءٌ عَلَيْهِ غَمْرَةٌ وَمَسِيلُ
 تَرَاهُ كَانَ الْمَاءُ مَرَّ بِجِسْمِهِ وَأَقْبَلَ رَأْسُ وَحْدَهُ وَتَلِيلُ
 وَفِي بَطْنٍ هَتْرِيطُ وَسَمْنٍ لِلظُّبَا وَسُمُرِ الْقَنَا مِمَّنْ أَبَدْنُ بَدِيلُ
 وغيره مما يشبهه في تلك القصيدة الرائعة اعتمد ولأمر ما فعل ذلك .

وأبيات أبي فراس الرائية كما ينظرون إلى قول أبي الطيب :
 « وَلَكِنْ قَسْطُنْطِينُ كَانَ لَهُ الْفِدَا »

ينظرون أيضا إلى قوله في اللامية يخاطب المستق :

« نَجَوْتُ بِإِحْدَى مُهْجَتَيْكَ جَرِيحَةً وَخَلَفْتُ إِحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ
 أَتَتَرَكُ لِلْخَطِيئَةِ ابْنَكَ هَارِبًا وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ
 بِوَجْهِكَ مَا أَنْسَاكَ مِنْ مَرَشَةِ نَصِيرُكَ مِنْهَا رَنَّةٌ وَعَوِيلُ »
 وقد كرر هذا المعنى أبو الطيب مرّات في شعره بصور مختلفات ليؤكد أنه هو
 صاحبه وأبو عذره ، كقوله في « فَدَيْنَاكَ مِنْ رُبْعٍ » : (٨)
 « سَرَايَاكَ تَتَرَى وَالِدُ مُسْتَقْ هَارِبٌ »

وقوله في « عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزَمِ » :

وَقَدْ فَجَعْتَهُ بَابْنِهِ وَابْنَ صَهْرِهِ

وَبِالصَّهْرِ حَمَلَاتُ الْأَمِيرِ الْغَوَاشِمُ

وهلمَّ جرّاً .

وعلى هذا يضح معنى قول أبي الطيب :

(٩) « أَجِزْنِي إِذَا أَنْشِدْتَ شِعْرًا فَلِنَا بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادْحُونَ مَرْدَدًا
 وَدَعَّ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنْسِي أَنَا الصَّائِحُ الْمُحْكِي وَالْآخِرُ الصَّدَى »
 أيما وضوح .

والثعالبي رحمه الله لم يكن سطحيا كما ظنَّ مقدّمو الذخيرة لابن بسام

(طبعة دار الكتب) . ولكنه كان امرأً عميقاً يخشى الحكام . وكان للشعر نقاداً . ولما ذكر لامية أبي فراس :

«مُصَابِي جَلِيلٌ وَالْعَزَاءُ جَمِيلٌ وَظَنَنْتِي بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ»

(وفتور هذا المطلع لا يخفى) لم يشأ أن يدع ما اختار منها دون إشارة إلى ما كان من أثر أبي الطيب عليه فقال عند قول أبي فراس :

«وَصَرْنَا نَرَى أَنَّ الْمَتَارِكُ مُحْسِنٌ وَأَنَّ خَلِيلًا لَا يَضُرُّ وَصُولُ»

«كَأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

«إِنَّا لَنَفِي زَمَنٍ تَرَكَ الْقَبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالٌ هَذَا ،

وقال أبو فراس في روميّاته :

«أَمَّا الْجَمِيلُ عِنْدَ كُنْ ثَوَابٌ وَمَا الْمُسِيءُ عِنْدَ كُنْ مَتَابٌ ؟!»

فسلخ من بائنة أبي الطيب في كافور :

«مُنَى كُنْ لِي أَنَّ الْبَيَاضَ خِرَابٌ فَيَخْفَى بِتَبْيِضِ الْقُرُونِ شَبَابٌ»

ماشاء . ونبه إلى بعض ذلك أبو منصور حيث قال يعلّق على قول أبي فراس :

«كَذَلِكَ الْوِدَادُ السَّحْضُ لَا يَرْتَجَى لَهُ ثَوَابٌ وَلَا يَخْشَى عَلَيْهِ عِقَابٌ»

ومثله للمتنبي :

«وَمَا أَنَا بِالْبَاعِي عَلَى الْخُبِّ رِشْوَةً ضَعِيفٌ هَوَى يَبْغِي عَلَيْهِ ثَوَابٌ»

وسكت الثعالبي عن قول أبي فراس :

«وَأَيَّتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابٌ

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابٌ»

فلم يعلّق عليه ، كعادته في الاكتفاء بالتعريض اليسير على النحو الذي رأينا . وقد سطا أبو فراس كما لا يخفى على قول أبي الطيب :

«إِذَا نِلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فَالْمَالُ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابٌ»

وتوكأ عليه. ولعلّه ظنّ أنّ «الكلّ» أجودُ من «المال» وهى ضعيفة من جهتي اللفظ والمعنى؛ أمّا من جهة اللفظ فمن أجل دخول «ال» عليها وهو مدفوع فى العريّة وأمّا من جهة المعنى فلائّه لم يحترس لنفسه ولا لمدوحه إذ كلاهما يدخلان فى حيّز «الكلّ» الهين. ولا كذلك قول أبى الطيّب :

وكل الذى فوق التراب تراب

إذ هو صحيح فى ذاته لا يضير الشاعر ومدوحه أن يدخل فى حيّزه ، أى الودّ هو الأمر النفيس والمال هين وكُلُّنا بعدُ من التراب وإليه .

هذا ولعلّ أبا فراس قد كان فى أخذه من أبى الطيّب حيث أخذ فى روبيّاته أسمعُ منه ننسا فى الذى جراه أيام كان بجلب كالذى قدّ مناه لك من من أبيات الدمستق وبني كلاب وكقوله مثلا :

«غَيْرِي يُغَيِّرُهُ الْفَعَالُ الْجَافِي وَيَحُولُ عَنْ شَيْمِ الْكَرِيمِ الْوَافِي»
فى أبيات فخرية جافية نظر فى مطلعها إلى قول المتنبي :

«غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ» (١٠)

ثم تجشم من بعدُ أصنافا من الحكيم مباراة له كقوله :

«إِنَّ الْغَنِيَّ هُوَ الْغَنِيُّ بِنَفْسِهِ وَأَتَوَانَهُ عَمَارِي الْمَنَاكِبِ حَافِي مَأْكُلٌ مَافَوْقَ الْبَسِيطَةِ كَافِيًا وَإِذَا قَنِعْتُ فَكُلُّ شَيْءٍ كَافِي»
وكقوله فى أخرى يفخر أيضا :

«إِذَا صَلْتُ صَوْلًا لَمْ أَجِدْ لِي مُصَاوِلًا

وإِنْ قُلْتُ قَوْلًا لَمْ أَجِدْ مَنْ يُقَاوِلُ»

وهذا كقول المتنبي :

«إِذَا صَلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَصَالًا لِمَصَالِ

وإِنْ قُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَقَالًا لِعَالِمِ»

أى لعالم بالقول ، ولو كان قال : «لم أترك مقالا لقائل» لم يكن شيئا

وما كان إلا جعجعة . وقد غاب هذا عن أبي فراس حيث رام أن يشابه آخر لفظه أوّله وغفل أن يستوثق للمعنى .

ولعلّه حسب أنّه بالتّدى صنع قد أربى على أبي الطيّب . وميمية أبي الطيّب التي منها «أذا صلتُ لَمْ أَتْرُكُ... البيت» نظمها قبل اتصاله بسيف الدولة ، عهد كان يصطاد ما «بين الكركيّ والعنديل» على حدّ تعبير الثعالبي . ونسائل بعدُ لماذا كان يعمد أبو فراس إلى مجازاة أبي الطيّب ومباراته ؟ وعن ذلك إجابات كثيرة . منها مثلاً أنّه كان فتى مغروراً يرى أن تُسلم له إمارة القلم كما اتحت له إمارة السيف وراثة لا كسبا .

وهذا الداء في بني آدم كثير عسى أن يكون مصدره حبُّ الكمال ، وكأنّ من يحسن شيئاً واحداً يرى ذلك نقصاً حتى يحسن كلّ شيء سواه ولعلّ الأُمراء الذين يتعاطون الأدب والفلسفة من أفعال الناس لهذا وقد يجيئون في هذا الباب بالأوابد كاللّدى فعل المأمون على فضله من فتنة خلق القرآن حين حسب جهلاً أنّ رجال الفكر من أمثال أحمد بن حنبل ينبغي أن يطيعوه في اللّدى صار إليه من الآراء في ميدان الفكر لأنّه كان يعتقد أنّه بحكم منصبه (كما نقول الآن) رجل الفكر الأوّل .

وعمر الإنسان أقصر من أن يتيح له الكمال ، والمرء بعدُ مظنةُ النقص فإن بدا فيه من الكمال شيء فذلك هو الشاذ النادر اللّدى يوصف بالعبريّة والنبوغ وما أشبه ذلك اللّهم إلا ما كان من أمر الأنبياء والمرسلين ، فهذا قد (١١) كان من محض فضل الله تعالى على الناس وهو أعلم حيث يجعل رسالاته .

وظهور العباقرة حين يظهرون يوهم بعض الطامحين أنّ منال مثل مقدرتهم وإبداع مثل إبداعهم سهل . فينبرون لمضاهاتهم بمعنىّ كاملٍ وبلا خجل وتكون من ذلك المآسى .

ولعلّ تقليد أبي فراس لأبي الطيّب كان من هذا الباب . ولعلّه كان (١٢) حسداً له على مانال من إعجاب سيف الدولة والحسد كما تبعته المنافسة يكون هو أيضاً من بواعثها وهذا أمر معروف .

وقد كان سيف الدولة لا يعجبه سوى أبي الطيب يد لك على ذلك قوله :
« وَقَدْ كَانَ يَنْصُرُهُمْ سَمْعُهُ وَيَنْصُرُنِي قَلْبُهُ وَالْحَسَبُ »
وقد كان يعلم علم اليقين أنه سيد الشعراء ويطرب له ويغار عليه أن
يشاركه فيه أحد غيره أو يعامله ويهيم أن يعامله معاملته التحفة النفيسة التي
صارت ملكا له . كأنه مثلا طائر نادر في قفص من ذهب هو مدينة حلب .
وغاب عن سيف الدولة أن أبا الطيب ما كان الا صقرا وذلك قوله :
« وَشَرُّ مَا قَنَصْتَهُ رَاحَتِي قَنَصُ شُهْبُ الْبُزَا سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّحْمُ »
وهو البازي كما لا يخفى وغيره من أمثال أبي فراس والحالدين والناشي
والنামী والسامري ومن إليهم هم : الخاز ي باز ي .
وقوله :

« وَجَاهِلٌ مَدَّةً فِي جَهْلِهِ ضَحِكِي حَتَّى آتَتْهُ يَدُ فَرَّاسَةٍ وَفَمٌ »

هذا ، ويجوز أن تقلد أبي فراس لأبي الطيب قد كان غيراً منه على
ما كان بينه وبين أبي العشائر من الود . وقد كان هو صديقا (لاريب بحكم
القرابة) لأبي العشائر وحرص الثعالبى على أن يذكر له أشعاراً أرسل بها إلى
أبي العشائر إذ كان هذا فى الأسر ، كقوله مثلا :

« أبا العشائر إن أسرت فطالما

أسرت لك البيض الحفاف رجالا »

وهذا كان قبل وقوعه فى الأسر .

وشعر أبي الطيب فى أبي العشائر كان للشكر والوفاء أو كما قال :

« مَالِي لَا أُمْدَحُ الْحُسَيْنَ وَلَا

أَبْدُلُ مِلُودٌ مِثْلَ مَا بَدَّلَهُ »

كشعره فى فاتك بمصر . ومما قال فيه :

« لَيْسَ إِلَّا أبا العشائر خَلِّقْ سَادَ هَذَا الْأَنَامِ بِاسْتِحْقَاقِ

ضَارِبُ الْمَنَامِ فِي الْغُبَارِ وَمَا يَرُ هَبُ أَنْ يَشْرَبَ الَّذِي هُوَ سَاقِي

ثَاقِبُ الرَّأْيِ ثَابِتُ الْحُكْمِ لَا يَتَمَدَّرُ مَرَّةً لَهُ عَلَى إِقْلَاقِ
مَسْكِينِ أَبُو فِرَاسٍ . ومثل هذا ينبغي أن يُحْفَظَ وَيُغَارَ مِنْهُ .

وروى العكبري في آخر شرح الميمية (وَأَحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ) «ولما أنشد
هذه القصيدة وانصرف كان في المجلس رجل يعاديه ، فكتب إلى أبي العشائر
كتاباً بأنطاكية يشرح فيه له ذكر القصيدة وأغراه به ، فوجه أبو العشائر
عشرة من غلمانة ، فوقفوا قريباً من باب سيف الدولة ، فلماً قرب منهم
ضرب رجل منهم بيده إلى عنان فرسه ، فسلَّ أبو الطيب السيف فوثب عليه
الرجل ، وتقدمت فرسه به فعبّر قنطرة كانت بين يديه ، وأصاب أحدهم
فرسه بسهم فانتزعه ، واستقلت الفرس به ، وتباعد بهم ليقطعهم من مدد
إن كان لهم ، ورجع إليهم بعد أن فنيَ نسايتهم ، فضرب أحدهم بالسيف
فقطع الوتر وبعض القوس ، وأسرع السيف في ذراعه ، فوقفوا على
صاحبهم المجروح وسار وتركهم ، فلماً يشسوا منه قال أحدهم : نحن
غلمان أبي العشائر » : (١٣)

« ومنسب عندي إلى من أحبه ... الخ . »

وكتب هذا الخبر ظناً أنه يروى قصة عترة كما ترى . ولُبُّ الخبر
أمر خمسة : كتابةُ عدو أبي الطيب إلى أبي العشائر ، إرسالُ بعضهم غلماناً
عشرة أو دون ذلك أو أكثر ليقتلوا أبا الطيب أمام دار سيف الدولة ، هربُ
أبي الطيب أو إفلاته بعد أن كاد يصاب ، دعوى بعض الغلمان أنهم لأبي
العشائر وقول أحدهم «خذها وأنا غلام أبي العشائر » ثم الأبيات التي مطلعها
«وَمُنْتَسِبٌ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحْبَبُهُ وَلِلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ حَقِيفٌ»
ولا يعقل أن يكون رجل من غير آل حمدان يَحْسُرُ أن يكتب إلى أبي
العشائر باسم سيف الدولة يلتمس إليه قتل أحد أبي الطيب أو سواه ، فهل
عسى ذلك ، ونحن نعلم الملابسات ، أن يكون غير أبي فراس ؟

وانتساب الغلام إلى أبي العشائر في السياق المتقدم كأنما أراد به الراوى

إظهار طابع الكذب فيه — وكذلك إرسال الرسول إلى أبي الطيب يستدعيه باسم سيف الدولة أيضا يجرى مجرى التحليل لاحاق الخبر .

وهنا نتساءل أترى أبا العشائر هذا الذي انتسب له الغلام كان نفس أبي العشائر أم مجرد اسمه جعل رمزاً لشخص آخر . . شخص لعله هو الذي كان المصدر الحقيقي للإنعام عند أبي الطيب والغيرة والحفيظة عند أبي فراس ؟ ؟

ونقد تذكر قولنا أننا إن أبا فراس لعله كان أسمع نفساً إذ حاكى أبا الطيب في روميّاته منه أيام حلب . ومصدر هذه السماحة أنه بعد أن أضفى البعد والاعتراب على أبي الطيب جلال الذكرى لم يستنكف أبو فراس أن يقف منه في تقليده الملح له كوقوف التلميذ ، كما وقف لاريب منه من قبل إذ هو غلام وأبو الطيب شاعر الشام . وكان يجارى أبا الطيب في الأوزان والقوافي ما استطاع كالذي رأيت في اللامية والبايئة وكما في رأيته :

« أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شَيْمَتُكَ الصَّبْرُ »

وهو من أوزان أبي الطيب ومنه قوله المشهور « فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبَكْرُ »

وكبائيته : « أَسَيْفَ الْهُدَى وَقَرِيحَ الْعَرَبِ »

وهي تجارى : « أَتَانِي الْكِتَابُ أَبْرُ الْكُتُبِ »

وكفوله :

« يَعْزُّ عَلَى الْأَحِبَّةِ بِالشَّامِ حَبِيبٌ بَاتَ مَمْنُوعَ الْمَنَامِ »

وهذا نهج « مَلُومُكُمْ مَا يَحِلُّ عَنْ الْمَلَامِ » — وقال أبو الطيب هناك : (١٤)

« عَلِيلُ الْجِسْمِ مُمْتَنِعُ الْقِيَامِ . . . الخ »

وكفوله :

« أَتَزْعُمُ يَا ضَخْمَ الْغَدَادِ أَنْتَنَا وَنَحْنُ أَسْوَدُ الْحَرْبِ لَا نَعْرِفُ الْحَرْبَا »

وهذا وزن « فَدَيْنَاكَ مِنْ رُبْعٍ وَإِنْ زِدْنَا كَرْبَا »

وقال :

« نَدَبْتُ لِحُسْنِ الصَّبْرِ قَلْبَ نَجِيبٍ وَنَادَيْتُ بِالتَّسْلِيمِ خَيْرَ مُجِيبٍ »

وهذا وزن :

« وَفِي تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَهَا »

وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِيَ لَهَا بِضَرْبٍ »

وما ضاهى فيه الوزن دون القافية أو اتبع مذهب القافية من قريب أو

بعيد كثير نحو قوله :

« يَا حَسْرَةً مَا أَكَادُ أَحْمِلُهَا »

وجارى فيه « أهلا بدار سباك أغيدها » فى الوزن وقاربها فى مذهب (١٥)

القافية وقال فيها :

« يَا وَاسِعَ الدَّارِ كَيْفَ تُوسِعُهَا وَنَحْنُ فِي صَخْرَةٍ نُزْلُزُلُهَا »

يَا نَاعِمَ الثَّوْبِ كَيْفَ تُبَدِّلُهُ ثِيَابُنَا الصُّوفُ لَا تُبَدِّلُهَا »

وهذا كطريقة أبى الطيب فى الأداء حيث قال :

« يَا عَاذِلَ الْعَاشِقِينَ دَعْ فِئْتَهُ أَضَلَّهَا اللَّهُ كَيْفَ تُرْشِدُهَا »

وبين المعانى بونٌ بعيد .

ونحو قوله :

« وَإِنَّكَ لِلْمَوْلَى الَّذِى بِكَ أَهْتَدِى »

وَإِنَّكَ لِلنَّجْمِ الَّذِى بِكَ أَهْتَدِى »

وَأَنْتَ الَّذِى عَرَفْتَنِي طُرُقَ الْعُلَا »

وَأَنْتَ الَّذِى أَهْدَيْتَنِي كُلَّ مَقْصِدٍ »

وَأَنْتَ الَّذِى بَلَّغْتَنِي كُلَّ غَايَةٍ »

مَشَيْتُ إِلَيْهَا فَوْقَ أَعْنَاقِ حُسْدِي »

وهذا كقول أبى الطيب :

« لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا »

في الوزن وكذلك في القافية إلا أنه خالف حركة الروي فجعلها خفصاً وهي هنا نصب . ونظر إلى قول أبي الطيب :
 «أَزَلَّ حَسَدَ الْحَسَادِ عَنِّي بِكِبَتِهِمْ فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حَسَدًا»
 وإلى طريقة مذهبه عامة . ونحو هذا كثير .

وقد تضرع أبو فراس إلى سيف الدولة غاية التضرع في الروميات عليه يرق له فيفديه من الأسر . وأعرض عنه سيف الدولة غاية الإعراض .
 وكان أول أمره إذ كتب إلى سيف الدولة في الفداء مُدلاً بنفسه لا يشك أن سيف الدولة سيفديه وذلك قوله مثلاً :

فَمِثْلُكَ مَنْ يُدْعَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ وَمِثْلِي مَنْ يُفْدَى بِكُلِّ مُسَوِّدٍ
 تَشَبَّثَ بِهَا أَكْرُومَةٌ قَبْلَ قَوَاتِهَا وَقَمَّ فِي خِلَاصِي صَادِقَ الْعَزْمِ وَأَقْعُدِ
 فَإِنْ تَفَتَّدُونِي تَفَتَّدُوا شَرَفَ الْعُلَا وَأَسْرَعَ عَوَادِ إِلَيْكُمْ مُعَوِّدِ
 يُدَافِعُ عَنْ أَعْرَاضِكُمْ بِلِسَانِهِ وَيَضْرِبُ عَنْكُمْ بِالْحُسَامِ الْمُهَنْدِ
 ولكن مع إبطاء سيف الدولة عنه تغيرت نعمته من الثقة إلى الضعف إلى الغيظ المنهار فمن ذلك قوله مثلاً :

وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى الْهَجَرَ وَالشَّمْلُ جَامِعٌ
 وَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَقِيَةٌ وَخِطَابُ
 فَكَيْفَ وَفِيمَا بَيْنَنَا مُلْكٌ قَيَّصَرُ
 وَلِلْبَحْرِ حَوْلِي زَخْرَةٌ وَعُبابُ
 أَمِنْ بَعْدِ بَدَلِ النَّفْسِ فِيكَ نَفِيْسَةٌ
 أَثَابُ بِمَرِّ الْعَتَبِ حِينَ أَثَابُ

وليت التاريخ حفظ لنا هذا العتب فنعلم منه بعض ما هو غامض عنا

الآن ،

«فَلَيْتَكَ تَحُلُوْا وَالْحَيَاةُ مَرِيْرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَتَامُ غَضَابُ
 وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ

إِذَا نِلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التَّرَابِ تَرَابٌ
ومن استعطافه البالغ الباكي :

«أَرَانِي طُرُقَ الْمَكْرُمَاتِ كَمَا رَأَى عَلَيَّ وَأَسْعَى لِي عَلَيَّ كَمَا سَعَى»
— وعلى اسم سيف الدولة والثانية حال وإن كررتها مرفوعة جاز على
أنها علم ولعله أجود —

«فَإِنْ يَكُ بَطْءُ مَرَّةٍ فَلَطَأُ مَلَا تَعَجَّلَ بِي نَحْوَ الْجَمِيلِ فَأَسْرَعَا
وَلَنْ يَخْفُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ فَإِنِّي لَا شُكْرُهُ التَّعَمُّيَ الَّتِي كَأَنَّ أَوْدَعَا
وَلَنْ يَسْتَجِدَّ النَّاسَ بَعْدِي فَلَمْ يَزَلْ»

بِذَلِكَ الْبَدِيلِ الْمُسْتَجِدِّ مُتَمَعًا
وكانه تأدب بأدب بيت لأبي الطيب من عينية له من هذا الوزن مرفوعة
الروى وهو قوله :

«تَذَلُّلٌ كَلَّا وَاخْضَعُ عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَى

فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لَا يَدُلُّ وَيَخْضَعُ»

إِلَّا أَنَّهُ ، عَلَى الْأَرْجَحِ ، لَمْ يَنْظُرْ إِلَى مَجَارَاةِ هَذِهِ الْعَيْنِيَّةِ كَمَا قَدْ نَظَرَ إِلَى
عَيْنِيَّةِ مَتَمِّ بْنِ نُوَيْرَةَ :

(١٦)

«فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لِيَطُولَ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا»
يستوحى منها سَمَتُ الْحَزْنِ وَالْإِطْمِئْنَانِ إِلَيْهِ . وَمَا أَخْلَصَ أَبُو فِرَاسٍ
فِي شَيْءٍ مِنْ فَخْمٍ شَعْرِهِ فَصَدَقَ كَمَا فَعَلَ فِي هَذِهِ الْعَيْنِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ فِي ذَلِكَ لَمْ
يَغِبْ عَنْهُ نَمُودَجُ أَبِي الطَّيِّبِ وَتَقْلِيدُهُ ، تَأْمَلْ قَوْلَهُ مِثْلًا :

«وَهَا أَنَا قَدْ حَلَّتْ الزَّمَانُ مُفَارِقِي وَتَوَجَّعَنِي بِالشَّيْبِ تَاجًا مُرْصَعًا (١٧)

فَلَوْ أَنَّنِي مَكُنْتُ مِمَّا أُرِيدُهُ مِنَ الْعَيْشِ يَوْمًا لَمْ أَجِدْ فِي مَوْضِعَا
أَمَّا لَيْلَةٌ تَمْضِي وَلَا بَعْضُ لَيْلَةٍ أُسْرِبُهَا هَذَا الْفُؤَادَ الْمَفْجَعَا
أَمَّا صَاحِبُ قَرْدٍ يَدُومُ وَقَاؤُهُ فَيُصْفِي لِمَنْ يُصْفِي وَيَرْعَى لِمَنْ رَعَى
أَفِي كُلِّ دَارٍ لِي صَدِيقٌ أَوْدُهُ إِذَا مَا تَفَرَّقْنَا حَفِظْتُ وَضِيعَا

وأول هذا من كلام أبي الطيب المشهور «لَيْتَ الحَوَادِثَ بَاعَتْنِي الذِّى (١٨) أَخَذَتْ» وسائرهُ فمن قوله :

«لَحَاَ اللهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخَا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدٍ أَلَمٌ فِيهَا مَعَذِبُ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً فَلَا أَشْتَكِي فِيهَا وَلَا أَنْعَتَبُ
وَبَنَى مَا يَدُودُ الشَّعْرَ عَنِّي أَقْلَهُ وَلَكِنْ قَلْبِي يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ قَلْبُ
وَمَا أَشْبَهَ ، كَقَوْلِهِ « يَقُولُونَ لِي مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ »
« أَفْنَى كُلِّ يَوْمٍ ذَا الدُّمُسْتَقُ مُقَدِّمٌ » وهلمَّ جراً .

وقال أبو منصور : وبلغ أبا فراس أن والدته قصدت حضرة سيف الدولة من منبج تكلمه في المفاداة وتضرع إليه ، فلم يكن عنده مارجت من حسن الإيجاب . ووافق ذلك غنفا من الدمستق بأبي فراس ومن معه من الأسرى وزيادة في إرهابهم فكتب إلى سيف الدولة :

« يَا حَسْرَةً مَا أَكَادُ أَحْمِلُهَا »

وأورد قدرا صالحا من القصيدة — وفيها يقول وهو صيحة اليأس والانهيار المغيظ الكامل :

« بِأَيِّ عُدْرٍ رَدَدَتْ وَالِهَةً عَلَيَّكَ دُونَ النُّورِ مُعَوَّلُهَا
جَاءَتْكَ تَمَّتَاحُ وَرَدَ وَاحِدِهَا يَنْتَظِرُ النَّاسُ كَيْفَ تُقْفِلُهَا
— أَى كَيْفَ تَرُدُّهَا —

« أَرْحَامُنَا مِنْكَ لِمَ تُقْطِعُهَا وَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تُوصِّلُهَا
سَمَحْتَ مِنِّي بِمَهْجَةٍ كَرُمْتَ أَيَّتْ عَلَى يَأْسِهَا مُؤَمِّلُهَا
أَيْنَ الْمَعَالَى الَّتِي عُرِفَتْ بِهَا تَقُولُهَا دَائِمًا وَتَفْعَلُهَا
يَا وَاسِعَ الدَّارِ كَيْفَ تُوسِعُهَا وَنَحْنُ فِي صَخْرَةٍ نَزَلْزَلُهَا
يَا نَاعِمَ الثَّوْبِ كَيْفَ تُبَدِّلُهُ ثِيَابُنَا الصُّوفَ لَا نُبَدِّلُهَا
يَا رَاكِبَ الْخَيْلِ لَوْ بَصُرْتَ بِنَا نَحْمِلُ أَفْيَادَنَا وَنَنْقُلُهَا

ولم يجد الثعالبي لإعراض سيف الدولة عن أبي فراس من تأويل ولكن
 عدّه من « حرفة الأدب » — أى سوء حظّ الأدباء — ومن « العين » التي
 تصيب أهل الكمال ، ولا ريب أنّ إعراض سيف الدولة كان عن تنكّر
 وعتب وجفوة ، يدُلُّك على ذلك ما تقدم وقول أبي فراس :

« أَسَيْفَ الْهُدَى وَقَرِيحَ الْعَرَبِ إلامَ الجَفَاءِ وَفِيمَ الْغَضَبِ »
 وقوله :

« تَنَكَّرَ سَيْفُ الدِّينِ لَمَّا عَتَبَتْهُ وَعَدَرَضَ بِي تَحْتَ الْكِلَامِ وَقَرَعَا »
 ونحو هذا كثير .

ونسأل بعدُ ما الذي أحفظ سيف الدولة على أبي فراس ؟
 وردّ سيف الدولة شفاعته والدته قد جرحه حتى أخرج من نفسه ضغينة
 حسد وكوامن غرور :

(١٩)
 « يَا وَاسِعَ الدَّارِ كَيْفَ تُوَسِّعُهَا وَتَحْنُ فِي صَخْرَةٍ نَزَلَتْهَا
 يَا نَاعِمَ الثُّوبِ كَيْفَ تُبَدِّلُهُ ثِيَابُنَا الصُّوفُ لَا تُبَدِّلُهَا
 يَا رَاكِبَ الْخَيْلِ لَوْ بَصُرْتَ بِنَا نَحْمِلُ أَقْيَادَنَا وَنَنْقُلُهَا
 رَأَيْتَ فِي الضَّرِّ أَوْجُهَا كَرِهْتَ فَارَقَ فِيكَ الْجَمَالَ أَجْمَلُهَا »
 أكان ذلك قبل مقتل أبي الطيّب ؟ وهل كان أبو العشائر حيّاً ومن
 الشخص الذي كاد لأبي فراس ؟

وقد قال أبو فراس يأسى على نفسه ويتأسى : —
 « مَا لِي جَزَعْتُ مِنَ الْخُطُوبِ وَإِنَّمَا أَخَذَ إِلَهُهُ لِبَعْضِ مَا أَعْطَانِي »
 وروى أبو منصور أن الروم قد خففوا من بعدُ عن أبي فراس ، ونوظر
 في أمر الهدنة وأجيب إلى ملتصقه بعد إكرام وتبجيل فقال في ذلك من قصيدة
 (تنظر إلى أبي الطيّب) :
 « وَلِلَّهِ عِنْدِي فِي الْإِسَارِ وَغَيْرِهِ مَوَاهِبٌ لَمْ يُخَصَّصْ بِهَا أَحَدٌ قَبْلِي »

«حَلَلْتُ عُقُوداً أَعْوَزَ النَّاسَ حَلَّتْهَا وَمَا زِلْتُ لَأَعْقِدِي يُذَمَّ وَلَا حَلَّتِي»
فدلنا بهذا على أنه في التذي وصل إليه لم يداهن في شيء من أمر الدين
والجهاد والله أعلم .

« وَمَا شَاءَ رَبِّي غَيْرَ نَشْرِ مَحَاسِنِي
وَأَنْ يَعْرِفُوا مَا قَدْ عَرَفْتُمْ مِنَ الْفَضْلِ »

وكان الأسر لم يعلم أبا فراس شيئا من التواضع . وقد ذهبت الضراعة
والانهيار لما ذهبت أسبابها . ونعمة الأشر والنسيان لما فات ظاهرة في هذه
الآيات .

قال أبو منصور : « ولما خرج قمر الفضل من سِرَّارِهِ وَأُطْلِقَ أَسَدُ
الْخَرْبِ مِنْ إِسَارِهِ لَمْ تَطُلْ أَيَّامُ فَرْحَتِهِ »
تأمل قوله « أَيَّامُ فَرْحَتِهِ » فهو نص في الذي قدَّمناه .

ثم قال أبو منصور : « وَدَلَّتْ قَصِيدَةُ قَرَأَتِهَا لِأَبِي إِسْحَقَ الصَّابِي فِي
مَرَثِيَّتِهِ عَلَى أَنَّهُ قَتَلَ فِي وَقْعَةٍ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَعْضِ مَوَالِي أَسْرَتِهِ »

وكان سيف الدولة قد مات منذ حين وحارب أبو فراس أبا المعالي
ابنه وفرغ غويهِ مولاه وقتله هذا ورمى جثته للكلاب وقد علم أبو منصور إلا
أنَّ قرب العصر والتقية منعه التصريح .

وكان أبا منصور بغى التلميح إلى علاقة ما بين هذا الحادث وأمر أبي
الطيب كله حين استشهد مباشرة بعده بقوله يخاطب سيف الدولة من مَرَثِيَّتِهِ
في خولة ، قال : وما أحسن وأصدق قول المتنبي :

فَلَا تَنْتَلِكِ اللَّيَالِي إِنْ أَيْدِيهَا إِذَا ضَرَبَنْ كَسَرْنَ النَّبْعَ بِالْغَرْبِ (٢٠)
وَلَا يَعْزُ عَدُوًّا أَنْتَ قَاهِرُهُ فَإِنَّهُمْ يَصِدُّنَ الصَّقْرَ بِالْخَرْبِ
وذكر ابن خالوية أنَّ آخر شعر أبي فراس قوله عند موته رحمه الله :
« أَبْنِيَّتِي لَا تَجْزَعِي ... الْآيَاتِ » (٢١)

فأنت ترى كيف جمّع بين ذكر أبي الطيّب وابن خالويه وسيف
الدولة جميعاً وتأمّلْ بعدُ قوله : « بعض موالى أسرته »
أترى الشخص المجهول المرموز إليه بأبي العشائر كان حيّاً بعد ؟ ربك
أعلم أى ذلك كان .

« قال أبو الطيّب ،

وَمَا أَنَا إِلَّا عَاشِقٌ كُلُّ عَاشِقٍ أَعَقَّ خَلِيلِيهِ الصَّفِيِّينَ لَائِمُهُ » (١)
فمن قسا قال لم يعشق إلا نفسه . ولكن السياق ينبئ عن إنسان بعينه
معشوق وذلك قوله :

« سَقَاكَ وَحَيَّانَا بِكَ اللهُ إِنَّمَا عَلَيَّ الْعَيْسِ نَوْرُ وَالْخُدُورُ كَمَا ئِمُهُ
وَمَا حَاجَةٌ الْأَطْعَانِ حَوْلَكَ فِي السَّرَى إِلَى قَمَرٍ مَا وَاجِدٌ لَكَ عَادِمُهُ
حَبِيبٌ كَانَ الْحَسَنَ كَانَ مُحِبُّهُ فَأَثَرُهُ أَوْجَارٌ فِي الْحَسَنِ قَاسِمُهُ
تَحْوُلُ رِمَاحُ الْخَطِّ دُونَ سِبَائِهِ وَتُسَبِّحُ لَهُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَرَامَتُهُ
وَيُضْحِي غَبَارُ الْخَيْلِ أَذْنَى سِتُورِهِ وَآخِرُهَا نَشْرُ الْكِبَاءِ الْمَلَا زِمُهُ »
أى نشر الطيب الملازم له . وهذه الصورة كأنما نظر إليها رجال
هوليود فى الذى يعرضون من صور أميرات قصصهم المقتبسة من ألف ليلة
وليلة .

ولكأن أبا الطيّب الفارس منتهى نفسه الباطل من سبى هذه الجارية لولايه
سبيل . وهى لاريب التى فى الدالية حيث مدح كافورا وقال : (٢)
أَوْدُ مِنْ الْأَيَّامِ مَا لَا تَوَدُّهُ وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهْنِي جُنْدُهُ
يُبَاعِدُنْ حُبًّا يَجْتَمِعُنْ وَوَصَلِهِ فَكَيْفَ بِحُبٍّ يَجْتَمِعُنْ وَصَدَّهُ »
وليس ههنا حيبان ولكن حيب واحد ، هو الذى بُوعِدَ وكانت
الأيام تجمه به واصلا ، فكيف تجمه به الآن مع الصدود الذى نشأ من
النوى ومن الجفوة التى وقعت بينه وبين آل حمدان — والبيت التالى يكشف
هذا المعنى :

أَبَى خَلْقُ الدُّنْيَا حَبِيْبًا تُدِيْمُهُ فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيْبًا تَرُدُّهُ
وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَبَعَلَتْ تَغْيِيْرًا تَكَلِّفُ شَيْءٌ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ»
وأبو الطَّيِّبِ يَخَاطَبُ نَفْسَهُ ، وَلا يَنْعَتُ الدُّنْيَا كَمَا وَهَمَ بَعْضُ الشُّرَاحِ ،
وَلَا يَخْلُو فِي هَذَا مِنْ رَجُوعٍ بِذِكْرَاتِهِ إِلَى وَرَاءِ ، وَصِفَةِ حَالٍ مِمَّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
سَيْفِ الدُّوْلَةِ وَمَنْ كَانُوا يَخْفُونَ بِهِ . . ثُمَّ فِي هَذِهِ الْخَطْرَةُ الْمُرَّةُ نَفَحَتْهُ رِيًّا
الْمَحْبُوبَةِ :

«رَعَى اللّٰهُ عَيْسًا فَارَقْتُنَا وَفَوْقَهَا مَهًا كُلُّهَا يُوَلِّى بِحَقْنِيهِ خَدَهُ
بِوَادٍ بِهِ مَا بِالْقُلُوبِ كَأَنَّهُ وَقَدْ رَحَلُوا جِيدُ تَنَازُّرٍ عَقْدُهُ
إِذَا سَارَتْ الْأَحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِهِ تَفَاوَحَ مِسْكُ الْغَانِيَاتِ وَرَنَدُهُ
وَحَالَ كَأَحْدَاهُنَّ رُمْتُ بُلُوغَهَا

وَمِنْ دُونِهَا غَوْلُ الطَّرِيقِ وَبَعْدُهُ» (٣)

وَمَا شَبَّهَ حَالَهُ بِأَحْدَاهُنَّ إِلَّا أَنَّهُمَا صَنَوَانٌ وَإِلَّا مَا صَحَّ التَّشْبِيهُ فِيهِ
نَفْسُهَا الْحَالُ كَمَا تَرَى .

وَقَالَ أَبُو مَنْصُورٍ التَّغَلَّبِيُّ فِي أَوَّلِ فَصْلِهِ عَنْ آلِ حَمْدَانَ : أَخْبَرَنِي
جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ أَنَّ الْمُتَنَبِّيَ لَمَّا عَوْتَبَ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ عَلَى تَرَاجُعِ شَعْرِهِ
قَالَ قَدْ تَجَوَّزْتَ فِي قَوْلِي وَأَعْفَيْتَ طَبْعِي وَاعْتَظِمْتَ الرَّاحَةَ مِنْذُ فَارَقْتَ آلَ
حَمْدَانَ . . أ . ه . وَإِنْ صَحَّتْ هَذِهِ الرِّوَايَةُ فَمَا أَرَاهُ إِلَّا قَدْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ
قَوْلَهُمْ إِذْ أَثْبِتَ لِنَفْسِهِ التَّجَوُّزَ وَمَا يَصْحَبُهُ مِنَ التَّصَرُّفِ ، وَإِعْفَاءِ الطَّبْعِ وَمَا
يَصْحَبُهُ مِنَ الْإِنْطِلَاقِ ، وَاسْتِشْعَارِ الرَّاحَةِ وَإِنَّمَا كَانَ سَبَبُ الرَّاحَةِ الدَّاعِيَةُ الَّتِي
وَجَدَ بِمَصْرِ حَيْثُ طَلَبَ خَالًا كَأَحْدَاهُنَّ فَصَارَ بِهِ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَجَاوَزَهُمَا مَعًا
وَصَارَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا مِنْ عِلٍّ ، مِنْ سَمَاءِ الْفَنِّ فِي رَيْفِ مَصْرِ الَّتِي احْتَوَتْهُ وَادَّاعَتْهُ
وَأَبْطَأَتْ دَعْوَى كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهَا ، وَمِنْ إِعْفَائِهِ طَبْعَهُ وَإِنْطِلَاقَهُ الَّتِي لَا يَدْفَعُ
قَوْلُهُ وَهُوَ بِفَارَسَ :

«أَزَاثِرُ يَا خِيَالَ أُمِّ عَائِدٍ أَمَّ عِنْدَ مَوْلَاكَ أَنْنِي رَاقِدٌ
عُدُّ وَأَعِدُّهَا فَحَبْدًا تَكْلَفُ أَلْصِقُ شَدِيْبِي بِشَدِيْكَ النَّاهِدُ»

تأمل قوله « تلف » وإنّما جعله تلفاً لما فيه من إهمالك في وصال عاقبته
السيف والتلف أو كما قال جران العود :

« وَقُلْنَ تَمَتَّعْ لَيْلَةَ النَّأْيِ هَذِهِ فَإِنَّكَ مَرْجُومٌ غَدًا أَوْ مُسَيِّفٌ » (٤)
أم ليس هذا كقوله :

فِيهِنَّ مَنْ تَقَطَّرُ السُّيُوفُ دَمًا إِذَا لِسَانُ الْمُحِبِّ سَمَّاهَا
وليس المحبُّ أحداً غيره وما السيوف اللاءُ كنَّ سيقطرن دما غير
سيوف بني حمدان ولم تكن الفتاة في حلب وإنّما كانت تقدم إليها وتسير
عنها . . لاشكَّ أنها كانت صاحبة درب القلّة :

« لَقِمْتُ بِدَرْبِ الْقُلَّةِ الْفَجْرَ لَقِيَّةً شَقَمَتْ كَمَدِي وَالصُّبْحَ فِيهِ قَتِيلٌ »
ولاريب أنّها هي التي أقامت بماء :

« يُحَرِّمُهُ لَمْعُ الْأُسْنَةِ فَوْقَهُ فَلَيْسَ لِظَمْآنٍ إِلَيْهِ سَبِيلٌ »
ولكنّ هذا ماء رمزي هو وصلها ومنعها بما كانت تمتنع به ، وقد
مرّ بك قوله :

« وَصِفْتُ فِيهَا مَصِيفَ بَادِيَةٍ شَتَوْتُ بِالصَّحْصَحَانِ مَشْتَاهَا »
فإذن لم تكن تسكن البادية وإنّما صافت ترفاً والتماساً للقاء الشاعر في
الذي كانت تتيح البداوة من حرّية لقاء لانتيجته حُجُبُ الحاضرة .

« مِنَ الْجَاذِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِبِ حُمْرُ الْحُلَى وَالْمَطَايَا وَالْجَلَابِيبِ »
تأمل قوله في زِيِّ الأعارب ، أي هي في زِيِّهنَّ وليست مِنْهُنَّ :

« أَفْدَى ظِبَاءِ فَلَاةٍ مَاعَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الْكَلَامِ وَلَا صَبْغَ الْحَوَاجِبِ »
رأى هذا بمصر وأعجبه بلاريب . (٥)

ثم ظباء الفلاة هؤلاء ، محبوبته وصويحباتها ، يمضغن كلامهن ويصبغن
حواجبهنَّ ولهنَّ حال الخضر ورقتهنَّ وهنَّ بعد في الفلاة ظباء فلاة
مُرْفَهَاتٍ لامعزها .

« آيْنَ الْمَعِيزُ مِنَ الْأَرَامِ نَاطِرَةٌ وَغَيْرَ نَاطِرَةٍ فِي الْحُسَيْنِ وَالطَّيْبِ »

وحسبك نظرة في الذي اختار أبو منصور من أشعار آل حمدان لتعلم
 ما مقدار ما بلغوا من لين ورقة وتأذق وترف . من ذلك مثلاً قول أبي وائل
 بن حمدان :

«لَا وَالَّذِي جَعَلَ الْمَوَا لِي فِي الْمَوَى خَدَمَ الْعَبِيدِ
 وَأَصَارَ فِي أَيْدِي الظُّبَا عِقَادَ أَعْنَاقِ الْأَسُودِ
 وَأَقَامَ الْوَيْةَ الْمَنِيَّةَ بَيْنَ أَفْنِيَّةِ الصُّدُودِ
 مَا الْوَرْدُ أَحْسَنُ مَنْظَرًا مِنْ حُسْنِ تَوْرِيدِ الْخُدُودِ

ولأبي زهير بن حمدان :

وَزَعَمْتُ أَنِّي ظَالِمٌ فَهَجَرْتَنِي وَرَمَيْتَ فِي قَلْبِي بِسَهْمٍ نَافِدِ
 فَتَنَعَمْ ظَلَمْتُكَ فَاغْتَفِرْ لِي زِلَّتِي هَذَا مَقَامُ الْمُسْتَجِيرِ الْعَائِدِ
 وقد مرَّ بك شعر أبي فراس اللين نسخة وقد نبا به ما حمله هو
 عليه من مذهب المتنبي في القوَّة وذلك كما قال المتنبي « تَكَلَّفُ شَيْءٌ فِي
 طِبَاعِكَ ضِدُّهُ » وأبيات أبي فراس التي تنسب إليه عند حمامه أشبه به
 وبمشرب قومه في اللين ورقة الانحلال :

«أَبُيَّتِي لَا تَجْزَعِي كُلُّ الْأَنَامِ إِلَى ذَهَابِ
 نُوحِي عَنِّي بِحُسْرَةٍ مِنْ خَلْفِ سِتْرِكَ وَالْحِجَابِ
 قُولِي إِذَا نَادَيْتَنِي فَعَجَزْتُ عَنْ رَدِّ الْجَوَابِ
 زَيْنُ الشَّبَابِ أَبُو فِرَا سِ لَمْ يُمْتَنِعْ بِالشَّبَابِ»

حتى عند الموت رحمه الله يروم الجناس .

والبدواة كثيراً ما تصير إلى اللين المفرط والانحلال حين تحالط الحضارة
 أو تخلد إليها ، والناس بعدُ ضروب والله تعالى أعلم .
 وهذا يقوى ما قدّمنا من أنَّ صواحب أبي الطيّب بالشام اصطنعن زِيَّ
 البادية وما مكن بدويّات .

وقال أبو الطيّب في أوائل أمره يذكر ممدوحا اسمه المغيث العجلي :

« لَمَّا أَقَمْتُ بِأَنْطَاكِيَّةَ اخْتَلَفَتْ إِلَى بِالْحَبَرِ الثَّرْكَبَانُ فِي حَلْبَا
 فَسِرْتُ عَجَلَانَ لَا أَلْوِي عَلَى أَحَدٍ أَحْتُ رَاحِلَتِي الْفَقْرَ وَالْأَدْبَا »
 والشعراء مِمَّا يَنْظُرُونَ بَعِينَ الْكُشْفِ . وَقَدْ كَتَبَ عَلَى أَبُو الطَّيِّبِ آخِرَ الدَّهْرِ (٦)
 أَنْ يَصْعَدَ صَيْتَهُ بِحَلْبٍ عِنْدَ أَمِيرِهَا ، وَلَكِنْ تَأْتِي ذَلِكَ لَهُ بَعْدَ أَنْ حَسَّ رَاحِلَتِيهِ
 الْفَقْرَ وَالْأَدْبَ إِلَى أَمِيرِ أَنْطَاكِيَّةِ أَبِي الْعِشَائِرِ فَإِنْ تَكَ فِتَاتِهِ كَانَتْ مَقِيمَةً فِي
 حَيْزِ أَبِي الْعِشَائِرِ — وَإِلَّا فَمَا مَعْنَى انْتِسَابِ الْغُلَامِ الَّذِي أَرَادَ قَتْلَهُ حَيْثُ قَالَ
 « خُذْهَا وَانَا عِلَامُ أَبِي الْعِشَائِرِ » — فَقَدْ كَانَتْ تَقْدُمُ حَلْبَ حِينَ تَقْدُمُهَا عَلَى
 بَعِيرٍ فَوْقَ هُودَجٍ ذِي عَبِيرٍ ، أَوْ كَمَا قَالَ :

« يَا طِفْلَةَ الْكَفِّ عِبْلَةَ السَّاعِدِ عَلَى الْبَعِيرِ الْمُقْلِدِ الْوَاحِدِ
 زَيْدِي أَذَى مُهْجَتِي أَرْدُكَ هَوَى فُاجِئِ هُلِّ النَّاسِ عَاشِقٍ حَاقِدِ »
 أَلَيْسَ هَهُنَا صَدَى قَوْلِهِ :

« وَمُنْتَسَبٌ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحْبَبُهُ وَلِلنَّبِيلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ حَفِيفُ
 فَنَفْسِي لَهُ نَفْسِي الْفِدَاءِ لِنَفْسِهِ وَلَكِنْ بَعْضُ الْمَالِكِينَ عَنِيفُ »
 بَلْ قَالَ : —

« حَكَيْتُ يَا لَيْلُ فَرَعَهَا الْوَارِدِ فَاحْكُ نَوَاهَا لِحَفْنِي السَّاهِدِ
 طَالَ بُبْكَائِي عَلَى تَذَكُّرِهَا وَطُلْتُ حَتَّى كِلَا كُفَّيَّ وَاحِدِ »
 أَكَانَتْ طَوِيلَةَ الْقَامَةِ طَوِيلَةَ الْفَرْعِ أَمْ تَأْمَلُهَا مِنْ عَدْوَةِ فَارِسٍ وَهِيَ (٧)
 فِي أَنْطَاكِيَّةِ أَوْ حَلْبٍ فَطَالَ طَيْفُهَا الْمُتَوَهَّمُ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ أَوْ كَمَا قَالَ شَيْخُ
 الشُّعْرَاءِ أَمْرُ الْقَيْسِ مِنْ قَبْلِ :

« تَمَنُّوْزُتُهَا مِنْ أَدْرِعَاتٍ وَأَهْلُهَا بَيْتَرِبَ أَدْنَى دَارِهَا نَظْرُ عَالٍ
 وَصَدَقَ وَمَا عَلِمَ وَيَحَى إِذْ ذَلِكَ نَوْرُ النُّبُوَّةِ .
 « مَا بَالُ هَذِي النُّجُومِ حَائِرَةٌ كَأَنَّهَا الْعُمَى مَا هَا قَائِدُ »
 وَهَذِهِ مِنْ صُورِ بَغْدَادَ . وَقَدْ رَأَى فِيهَا الْمُتَسَوِّلِينَ الْعُمِيَّانَ . . وَمِنْ عُمِيَّانِ

القلوب ، كما قد رأى قَبْلُ منهم بحلب وقال :
 « غَضِبْتُ لَهُ أَمَّارًا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ بِلَا وَاصِفٍ وَالشَّعْرُ تَهْدِي طِمَاطِمُهُ »
 وقال :

« أَنَا الَّذِي نَظَرَا أَعْمَى إِلَى أَدَبِي وَأَسْمَعْتُ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمٌ »
 وقوله بعد :

« أَوْ عُصْبَةٌ مِنْ مُلُوكِ نَاحِيَةٍ أَبُو شُجَاعٍ عَلَيْهِمُ وَاجِدٌ »
 يشعر ببني حمدان وأبو الطيّب هو الواجد . كان جاهلا — ماذا قال (٨)
 العكبري ؟ « وأجهل الناس عاشق حاقدا » . ولعل آل حمدان كلهم كانوا
 لديه عُمِيًّا إِلَّا هَاتِهِ الَّتِي أَحَبَّ . ألم يذكر أبو منصور في بعض
 الأشعار الَّتِي نسب إليهم ميلا ما من بعضهم إلى غزل المذكر؟ ولعلَّ هذا كان
 مذهبا من الغيرة على الحُرَم بين بعض طبقات العلية والفرسان في ذلك (٩)
 الزمان وفي أزمنة كثيرة من قبلُ ومن بعدُ والله تعالى أعلم .

قال أبو فراس :

« قَدْ كَانَ بَدَرَ السَّمَاءِ حُسْنًا وَالنَّاسُ فِي حُبِّهِ سَوَاءٌ
 فَزَادَهُ رَبُّهُ عِذَارًا تَمَّ بِهِ الْحُسْنُ وَالْبِهَاءُ
 لَا تَعْجَبُوا رَبُّنَا قَدِيرٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ »

وقال :

« قَمَرٌ دُونَ حُسْنِهِ الْأَقْمَارُ وَكَثِيبٌ مِنَ النَّقَا مُسْتَعَارُ
 وَغَزَالٌ فِيهِ نِفَارٌ وَمَا يُنْكَرُ رُمِنْ شِيْمَةِ الظُّبَاءِ النَّفَارُ
 لَا أَعَاصِيهِ فِي اجْتِرَاحِ الْمَعَاصِي فِي هَوَى مِثْلِهِ تَطْيِيبُ النَّارُ
 قَدْ حَذَرْتُ الْمَلَا حَ دَهْرًا وَلَكِنْ سَأَقْنِي نَحْوَ حُبِّهِ الْمُقْدَارُ
 كَمْ أُرِيدُ السَّلُو فَاسْتَعْظَفْتَنِي رَقِيَّةٌ مِنْ رُقَاكَ يَبَاعِيَارُ »

تَأْمَلْ خُنُوثَةَ قَوْلِهِ « يَا عِيَار »

وله في مزدوجته الطَّرْدِيَّة ، ومع احتراس أبي منصور فقد ذكره ولو شاء لاستغنى :

« ثُمَّ دَعَوْتَ الْقَوْمَ هَذَا بَازِي
قَالَ غُلَامٌ مِنْهُمْ أَنَا أَنَا
فَأَيُّكُمْ يُنْشِطُ لِلْبِرِّازِ
وَلَوْ دَرَى مَا بِيَدِي لَأَذْعَنَّا »

ومنها :

سُرَّ وَقَالَ هَاتِ قُلْتُ مَهْلًا
أَمَا يَمِينِي فَهِيَ عِنْدِي غَالِيَّة
فَقُلْتُ خُذْهُ هِبَةً بِقُبْلَةٍ
ثُمَّ نَدِمْتُ غَايَةَ النَّدَامَةِ
عَلَى مِرْزَاحِي وَالرَّجَالِ حُضْرُ
فَلَمْ أَزَلْ أَمْسَحْهُ حَتَّى انْبَسَطَ
إِحْلِيفْ عَلَى الرَّدِّ فَقَالَ كَلَّا
وَكَلِمَتِي مِثْلُ يَمِينِي وَافِيَّة
فَصَدَّ عَنِّي وَعَلَنَهُ خَجَلَةٌ
وَلُمْتُ نَفْسِي أَكْثَرَ الْمَلَامَةِ
وَهُوَ يَزِيدُ خَجَلًا وَيَحْضُرُ
وَهَشَّ لِلصَّيْدِ قَلِيلًا وَتَشِيطُ »

وقال حمدان الموصلي من آل حمدان ،

« يَا رَسُولَ الْحَبِيبِ وَيَحَاكَ قَدْ أَلَا
وَتَعَلَّمْتَ حُسْنَ الْفِطَاظَةِ تَلَا
وَلَقَدْ كِدْتُ أَنْ أَضْمَكَ لَوْ لَا
خَيْفَةٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَمَا قِي
تَقَى عَلَيْكَ الْحَبِيبُ حُسْنًا وَطِييَا
لَكَ فَطَرَّ قَتَ بَادِيًا وَمُجِييَا
أَنْ يُسَيِّءَ الظُّنُونُ أَوْ يَسْتَرِييَا
كُلْ قَدِيمًا صَارَ ارْسُولُ حَبِييَا »

ولأريب أن الرسل كانوا آنذ غلمانا يدلُّك قول أبي الطَّيِّب :

« كُلُّمَا عَادَ مَنْ بَعَثْتُ إِلَيْهَا غَارَ مِنِّي وَخَانَ فِيمَا يَقُولُ »

وبين هذا المذهب والذي تقدَّم بون عظيم .

ولآخر منهم . . قال الثعالبي : وكان أبو الحسن الماسرجي ينشد في

تدريسه مسألة « الحر لا يقتل بالعبد » هذين البيتين وهما لبعض آل حمدان :
خُذْ وَابْدِمْ هَذَا الْغَزَالَ فَإِنَّهُ رَمَانِي بِسَهْمِي مُقَاتِلَتِيهِ عَلَى عَمْدٍ
وَلَا تَقْتُلُونِي إِنِّي أَنَا عَبْدُهُ وَلَمْ أَرْ حُرًّا قَطُّ يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ »

وهذا يحتمل أن يكون في جارية . وكونهما في غلام أشبه .
وقال الثعالبي : وقال بعض الرواة دخلت على أبي العشائر أعوده في
علّة هجمت عليه فقلت ما يجد الأمير ، فأشار إلى غلام قائم بين يديه اسمه
نسطوس كأنّ رضوان غفل عنه فأبق من الجنّة وأنشد :

«أَسَقَمَ هَذَا الْغُلَامُ جِسْمِي بِمَا بَجَفَنِيهِ مِنْ سَقَامٍ
فَتُورُ عَيْنِيهِ مِنْ دَلَالٍ أَهْدَى فُتُوراً إِلَى عِظَامِي
وَامْتَزَجَتْ رُوحُهُ بِرُوحِي تَمَازُجَ الْمَاءِ وَالْمُدَامِ»

وهل سار أبو الطيّب على هذا المذهب إذ يقول :
«وَأَغْيَدِيَهُوْى نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ عَفِيفٌ وَيَهْوَى جِسْمَهُ كُلُّ فَاسِقٍ
وَمَا الْحُسْنُ فِي وَجْهِ الْفَتَى شَرْفًا لَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ وَالْحِلَاقِ»
ثم كرهه طبعه وإلى ذلك الإشارة ؟

«وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتُ تَغْيِيرًا تَكَلَّفْتُ شَيْءٌ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ»
أم أراد الكناية بالأغيد عن المليحة خشية السيوف التي تقطر دما :
«تَدَكَّرْتُ مَا بَيْنَ الْعَذِيبِ وَبَارِقٍ مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجَرَّى السَّوَابِقِ
وَصَحْبَةِ قَوْمٍ يَدُوحُونَ قَنِيصَهُمْ بِفَضْلَةِ مَا قَدْ كَسَرُوا فِي الْمَفَارِقِ»
أى ببقايا السيوف التي يكسرون في رؤس الأعداء ، أو كما قالت (١٠)
هند :

«نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقِ الطَّيِّبِ فِي الْمَفَارِقِ
وَالدُّرُ فِي الْمَخَانِقِ»

ويكون القنيص العاشق وذلك بقايا الطيب :
«وَلَيْلًا تَوَسَّدَ نَا الثَّوِيَّةَ تَحْتَهُ كَانَ شَرَاهَا عَنَبَرٌ فِي الْمَرَاقِ»
وعن أبي الفتح أنّه أراد الوسائل (هكذا) والصواب الوسائد كما يدل
سياق الشرح من بعد . قال العكبرى وقال أبو الفتح إنّما أراد الرسائل

(هكذا) وقال الخطيب لم يُرد الرسائل (هكذا) وإنما أراد مرافق الأيدي لأن الصعلوك المقاتل لا وسادة له ، وقول أبي الفتح هو الصحيح . أ . ه .
ولو قال : « وكلا الأمرين وجه » لقارب إن شاء الله .

وذلك أنه كأنه جعل الوسائد على ليل فوق الثوية ، فما فضل من المرافق عنهن مسه الثرى ومس العنبر والثياب المطيبات والحديث المُخَفِّيه (١١)
سماعُ المَزارِهرِ على القُطْرُبُلَى فلا تَزالُ له بَقِيَّةُ أبَدِ الدَّهرِ
« وَخُذْ سَمْعِي إِلَيْكَ فَإِنَّ فِيهِ بَقَايَا مِنْ حَدِيثِ كَالْعُسْقُودِ »
— كالدُّرِّ فِي المَخَانِقِ —

وليست الثوية هنا هي الموضع الذي قرب الكوفة ، الذي كان به قبر (١٢)
أبي موسى والمغيرة بن شعبة — ولعلّه لم يكن إلاّ مقابر ، قال حارثة بن بدر
الغداني يرثي زياداً :

« صَلَّيْ إِلَهِي عَلَى قَبْرِ وَطَهَّرْهُ عِنْدَ الثَّوِيَّةِ يُسَنِّي فَوْقَهُ الْمُورُ »
— ولكن الأرض التي نزلها ضيف ليل . والعرب تقول الثوية لما ارتفع من
الأرض وتقول للمأوى الإبل ثوية ومن رحل في جمع غفير كان مأوى إبله
حيث يبيت . وتقول لمنزل الضيف الثوي . وإنما كان أبو الطيّب بالشام وذلك
من الكوفة بعيداً ، ولعلّه تعمد هذا اللفظ للتعمية ، ليُظنَّ به ذكرُ عهد
من الكوفة .

وأتى الشراح الوهم من قوله من بعد :

« وَكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ مِنْ حَزِينٍ يَقُولُ لَهُ قَدْ وُمِي ذَا بَدَاكَ
وَمِنْ عَذَابِ الرُّضَابِ إِذَا أَنْخَضْنَا يُقْبَلُ رَحْلَ تَرْوِكَ وَالْوَرَاكَ
يُحَرِّمُ أَنْ يَمَسَّ الطَّيِّبَ بَعْدِي وَقَدْ عَبِقَ الْعَبِيرُ بِهِ وَصَاكَ »
وهذه ثوية الكوفة والكوفة دونها — ثم هي بعد لا تخلو من ذكرى ثوية
الشام إن كان الحزين بها أراد ، والموصوفات في قوله ومن عذب الرضاب (١٣)
الخ جواريه بعدما علّمتها الدعة اتخاذاً الجوارى .

قالوا شكوا أحد الملوك الأقدمين السَّام والوَصَب ففعل له في ركوب قارب بين عشرين صبايا في أزر قصار يحفون به ويتواثبن في النهر ، فشفاه ذلك وجعل يعود إليه كلما أحسَّ وَصَباً أو سامة .

« وَلَيْلًا تَوَسَّدْنَا الثَّوِيَّةَ تَحْتَهُ كَأَن تَرَاهَا عَنَبَرٌ فِي الْمَرَاقِي بِلَادٍ إِذَا زَارَ الْحَسَانَ بَغِيرَهَا حَصَى تُرِبَهَا ثَقْبَنَهُ لِلْمَخَانِقِ سَقَتْنِي بِهَا الْقَطْرُ بُلَى مَلِيحَةً عَلَى كِيَاذٍ مِنْ وَعْدِ هَاضِءٍ صَادِقٍ »
وهي التي قد يكون عنها كنى

« سُهَادٌ لِأَجْفَانٍ وَشَمْسٌ لِنَاطِيرٍ وَسُقْمٌ لِأُبْدَانٍ وَمِسْكٌ لِنَاشِقٍ وَأَعْيَدَ يَهُوَى نَفْسَهُ كُلَّ عَاقِلٍ عَقِيفٍ وَيَهُوَى جِسْمَهُ كُلَّ فَاسِقٍ »
أى ذلك لسوى الشاعر . أولديه المتعتان ، كقول أبى نواس « لَهَا

مُحِبَّانَ . . . الْبَيْت » (١٤)

« أَدِيبٌ إِذَا مَا جَسَّ أَوْ تَارَ مِزْهَرَ بِلَاكُلِّ سَمْعٍ عَنْ سِوَاهَا بِعَاقِقٍ يُحَدِّثُ عَمَّا بَيْنَ عَادٍ وَبَيْنِهِ وَصْدُ غَاهُ فِي خَدَّيْ غِلَامٍ مُرَاهِقٍ وَمَا الْحُسْنُ فِي وَجْهِ الْفَتَى شَرَفًا لَهُ وَلَكِنَّهُ فِي فِعْلِهِ وَالْخَلَائِقِ »

ويقوى أن هذا كناية قوله « وَصْدُ غَاهُ فِي خَدَّيْ غِلَامٍ مُرَاهِقٍ » ، إذ أعيد وحدها تجزىء عن هذا التفصيل . وكان العُكْبَرِيُّ أَحْسَنَ بَعْضِ الَّذِينَ نَرَى إِذْ نَبَّهَ إِلَى أَخْذِ الْمُتَنَبِّىِّ مِنْ (الْحَكَمَى) أَبَى نَوَاسٍ حَيْثُ قَالَ :

« فَتَنَّتْنِي وَصِيفَةٌ كَالْغِلَامِ الْمُرَاهِقِ
هِمَّةُ السَّالِكِ الْعَقِيهِ فِي وَسْئُلِ الْمُنَافِقِ »

وعن أبى الفرج البغاء أن المراد بالأعيد ههنا غلام بعينه وروايته تحمل (١٥) ما يكذبها (راجع المرشد ٣ - ٣٠٤) إذ الذى وصف من الغلمان قدم وهذا أديب ماهر بالزهر ولعله أخذ ذلك عن الفارابى ، ولعلَّ الفارابى لقي أبا

الطيب وأنس به وكان شيخا متفردا ، شاهد ذلك نفوره من مجلس سيف الدولة ، ومات رحمه الله بعد اتصال أبي الطيب بسيف الدولة بعامين (٣٣٩ هـ) وكان أكثرُ مقامه بدمشق ، قالوا وكان يحب المياه والبساتين مع الزهد وجفاء في الطبع ومعرفة باللغات وعلوم الماضين . كان فنانا . وذكر أبو الطيب ما يشعر بغوطه دمشق حيث قال :

«تَعَوَّدَ أَلَّا تَقْضِيَهُمُ الْحَبَّ حَيْدُهُ إِذَا الْهَامُ لَمْ تَرْفَعْ جُنُوبَ الْعَلَائِقِ

وَلَا تَرِدَ الْغُدْرَانَ إِلَّا وَمَاؤُهَا

مِنْ الدَّمِ كَالرَّيْحَانِ تَحْتِ الشَّقَائِقِ»

وهذا التشبيه جاء بعد الصور التي تقدمته مبينا لجوها كل المبانية ، وليس أبو الطيب بن كان يروم مجرد الزخرفة كقول الآخر : (١٦)

«كَأَنَّ مُحْضَمَّ الشَّقِيءِ قِ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدَ

أَعْلَامُ يَأْقُوتِ نُصْبِ مِنْ عَلَيَّ رِمَاحٍ مِنْ زَبْرَجْدٍ»

فيبدو هذا كأنه من ذلك . إذ لا ينبغي مع الصور التي تقدمت أن نغفل صورة الغدران ذات الماء العذب تحت الريحان والشقائق أو كالريحان تحت الشقائق . أليس في هذا نفَسٌ مقالته من بعد :

«أَبُوكُمْ أَدَمُ سَنَ الْمَعَاصِي وَعَلَّمَكُمْ مَفَارِقَةَ الْجِنَانِ»
ولانغفل عن قوله في الكلمة نفسها :

«يُفَرِّقُ مَا بَيْنَ الْكُمَاةِ وَبَيْنَهُمَا»

يعنى يفرق بين الفرسان ونساءهم والضمير يعود إلى الممدوح وهو سيف الدولة :

«بَضْرُبٍ يُسْلِي حَرَّهُ كَيْلَ عَاشِقٍ»

كأبي الطيب . أتى الظعن : أى النساء الظعينات

« أَتَى الظُّعْنُ حَتَّى مَاتَ طَيْرَ رَشَاشَةٍ »

مِنْ الدَّمِ إِلَّا فِي نُحُورِ الْعَوَاتِقِ » (١٧)

وهي الشواب الكواعب . وهذا كقوله أنفا :

« كَالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّقَائِقِ »

« بِكُلِّ فَلَاةٍ تُنْكَرُ الْإِنْسُ أَرْضَهَا ظَعَانُ حُمْرُ الْحَلِيِّ حُمْرُ الْيَانِقِ »

وهؤلاء ظعان آل حمدان والشاهد « حُمْرُ الْحَلِيِّ وَالْمَطَايَا وَالْجَلَابِيبِ »

ويوضح ذلك قوله بعد :

« وَمَلَكُمُوسَةٌ سَيْفِيَّةٌ رَبِيعَةٌ يَصِيحُ الْحَصَى فِيهَا صِيَاخُ اللَّقَالِقِ »

واللقالق من الطير بأصوات كوقع الخوافر

ثم قال :

« تَوَهَّمَهَا الْأَعْرَابُ سُورَةً مَتَرَفٍ تَذَكَّرَهُ الصَّحْرَاءُ ظِلَّ السُّرَادِقِ »

أى مترف يخرج للصحرَاء على وجه التزهة ويضرب لها سرادقه ، قالوا

كان هشام بن عبد الملك يفعل ذلك . وما سمَّاه مترفاً إلا لعلمه أنه مترف

« فَذُكِّرَتْهُمْ بِالْمَاءِ سَاعَةً غَبَّرَتْ سَمَاوَةَ كَلْبٍ فِي أَنْوْفِ الْحَزَائِقِ »

وَكَانُوا يَرُوعُونَ الْمُلُوكَ بِأَنْ بَدَوْا وَأَنْ نَبَتَتْ فِي الْمَاءِ نَبْتُ الْغُلَافِقِ »

والغلق ضرب من النبات يطفو على الماء . أراد أن الملوك لا يصبرون

عن الماء ، نبتوا فيه كنبت الغلق . والصورة غير بعيدة من صورة الريحان

تحت الشقائق .

ومكان عناية أبي الطيب بالحصى في هذه الكلمة الجيدة من شعره (١٨)

يُتَنَبَّهُ لَهُ : « كَانَ حَصَاها عَتَبَرُ فِي الْمَرَاثِقِ » . « يَصِيحُ الْحَصَى فِيهَا »

صِيَاخُ اللَّقَالِقِ » وفي لفظ اللقالق نفسه حكاية لصوت الحصى كما ترى .

« حَصَى تَرْبِهَا ثَقْبَتَهُ لِمَخَانِقِ » .

وفي نونية شعب بَوَّ أن قوله :

« وَأَمْوَاهُ يَصِلُ بِهَا حَصَاها صَلِيلَ الْحَلِيِّ فِي أَيْدِي الْغَوَانِي »

منظر الخصى ومسته وموسيقا لقالبه وصليبه كصليل الحلى . .
قالت الأندلسية

« يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَّةَ الْعَدَارَى فَتَلَمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ »
كل أولئك كان له بقلب أبي الطيب أيما علوق . . .

كما علق الخصى بالمرافق من الوسائد أو « طِفْلَةُ الْكَفِّ عِبْدَةُ انْسَاعِدِ »
هل كان رحمه الله فى خواص سيف الدولة الأربعة الذين ذكر ابن
خاتكان أنهم صلوا على أبى نصر الفارابى إذ دفن بظاهر دمشق - بثوية دمشق :
« وَكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ مِنْ حَزِينٍ يَقُولُ لَهُ قُدُّومِي ذَا بَيْدَاكَا »
ولشعر أبى الطيب أصداء تتجاوب . والصدق منهجه أبدا ، قال ابن
جنى ما عرفته إلا صادقا (الخصائص مصر ٢٤٨) . قال فى الدالية التى ودع
بها ابن العميد :

نَسِيتُ وَمَا أَنْسَى عِتَابًا عَلَى الصَّدِّ وَلَا خَفَرًا زَادَتْ بِهِ حُمْرَةُ الْحَدِّ
وَلَا لَيْلَةً قَصَّرْتُهَا بِقَصُورَةٍ أَطَالَتْ يَدِي فِي جِيدِهَا صُحْبَةَ الْعِقْدِ
تَمَنَّى يَلْدُ الْمُسْتَهَامِ بِمِثْلِهِ وَإِنْ كَانَ لَا يُغْنِي فَتِيلًا وَلَا يُجْنِدِي
وَغِظٌ عَلَى الْإِيَّامِ كَالنَّارِ فِي الْحَشَى وَلَكِنَّهُ غِظُ الْأَسِيرِ عَلَى الْقَيْدِ
بِقُصُورَةٍ أَوْ بِمَحْبُوسَةٍ مَقْصُورَةٍ « حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْحَيَّامِ »
والقصورة والقصورة بمعنى وعلى ذلك الرواية الأخرى .

« وَلَا لَيْلَةً قَصَّرْتُهَا بِقَصِيرَةٍ »

وهى غير جيّدة وكان فيها تعريضا ممن نسبها إلى أبى الطيب
إن لم تك أول ما قال ثم أعرض عنه بعد التروى . واستشهد العكبرى بقول
كثير :

« وَأَنْتِ الَّتِي حَبَبْتَ كُلَّ قَصِيرَةٍ إِلَى وَمَا تَدْرِي بِذَلِكَ الْقَصَائِرِ
عَنِيتُ قَصِيرَاتِ الْحِجَالِ وَلَمْ أَرِدْ قِصَارَ الْخُطَا شَرَّ النِّسَاءِ الْبَحَاتِرِ »
ولم يصنع كثير رحمه الله شيئا بما كان قصيرا أحق كذابا . . لكأنه رحمه (١٩)

الله مانسب هذا كله إليه إلا للتقليل من قيمة تشييعه فتأمل .

وقول أبي الطيب مشعر بمعنى القصر ، كعنب ، يدلُّك عليه (أطالت
يدى في جيدها صُحْبَةَ الْعَقْدِ) . والقصار مما يَكُنْ غُلَامِيَّات ملاحه :
« سَقَتْنِي بِهَا الْقَطْرُ بِلَايَ مَلِيحَةٍ » على كاذبٍ من وَعْدِهَا ضَوْءٌ صَادِقٌ
أحسن ما شاء .

إذ في الطول جَهَارَةٌ من تذكير تحمل على مزيد من التأنيث على هذا (٢٠)
يصح تأويل ما أولنا في قوله : « وَأَغْيَدَ يَهْوَى نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ ...
البيت » وقوله لابن العميد يصف الطريق :

« إِذَا مَا اسْتَجَبْنَ الْمَاءُ يَغْرِضُ نَفْسَهُ كَرَعْنِ بِسَبْتٍ فِي إِنْاءٍ مِنَ الْوَرْدِ »
وروى استحين بالياء وهو جيد — فيه صدى من قوله « كالريحان
تحت الشقائق » .

وقال أبو منصور : « أنشدني أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي
هذه الأبيات ولم يسم قائلًا ثم وجدتها في بعض التعليقات منسوبة الى بعض
آل حمدان :

« أَجِلْ عَيْنِيكَ فِي عَيْنِي تَجِدْهَا	مُشْرَبَةً نَدَى وَرَدِ الْخُدُودِ
وَصَافِحْنِي تَجِدْ عَبَقًا بِكَفَى	يَضُوعُ إِلَيْكَ مِنْ رَدْعِ الزُّنُودِ
وَاخْذُ سَمْعِي إِلَيْكَ فَإِنَّ فِيهِ	بَقَايَا مِنْ حَدِيثِ كَالْعُقُودِ »

والى هذه المعاني نظرت حفصة الركونية حيث قالت :

« أَزُورُكَ أَمْ تَزُورُ فَإِنْ قَلْبِي	إِلَى مَا تَشْتَهَى بُدْأَ يَمِيلُ
فَشَغَرِي مُورِدٌ عَذْبٌ زُلَالٌ	وَفَرَعٌ ذَوَابِتِي ظِلٌّ ظَلِيلُ
وَهَلْ تَخْشَى بَأْنَ تَظُنُّمَا وَتَضْحَى	إِذَا وَافَى إِلَيْكَ بِيَ الْقَمِيلِ
فَمَعْجَلٌ بِالْجَوَابِ فَمَا جَمِيلٌ	إِبَاؤُكَ عَنْ بُشَيْنَةِ يَا جَمِيلُ »

قالوا وفيها قتل عبد المؤمن أبا جعفر بن سعيد (ياقوت ٩ — ٢١٩ —
٢٢٧) والراجح من سياق الثعالبي أنه عرّف من المنسوبة إليه الأبيات وكم .

وعسى أن يكون أنبأه بذلك الميكالِيُّ أبو الفضل ، فقد كان كاسمه من الفضلاء ، فأراد ستره .

وقول فتاة آل حمدان — اذ لا تكون قائلة هذا غير فتاة — :

« أجل عينيك في عيني »

كقول أبي الطيب :

« شامية طالما خلوت بها تُبَصِّرُ في ناظري مُحَيَّاهَا » (٢١)

وهذا قولها « مُشَرَّبَةٌ نَدَى وَرَدِ الْخُدُودِ »

« فَقَبَلْتُ نَاضِرِي تُغَالِطُنِي وَإِنَّمَا قَبَلْتُ بِهِ فَاهَا »

وقال أبو الطيب : « لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي » وقال :

« أَفْسَدْتُ بَيْنَنَا الْمَوَدَّاتِ عَيْنَاهَا » — وقال وهو بفارس :

« إِنْ الَّذِينَ أَقَمْتِ وَاحْتَمَلُوا أَيَّامَهُمْ لِدِيَارِهِمْ دُؤْلُ

الْحُسْنِ يَرْحَلُ كُلَّمَا رَحَلُوا مَعَهُمْ وَيَنْزِلُ حَيْثَمَا نَزَلُوا

فِي مُقَامَتِي رَشَاءً تَدِيرُهُمَا بَدْوِيَّةٌ فُتِنَتْ بِهَا الْحِلَلُ »

أو كما قال :

« أَيْنَ الْمَعِيزُ مِنَ الْآرَامِ نَاضِرَةٌ وَغَيْرَ نَاضِرَةٍ فِي الْحُسْنِ وَالطَّيْبِ »

هذا قوله : « تديرهما » . وقول الفتاة في عجز البيت :

« مُشَرَّبَةٌ نَدَى وَرَدِ الْخُدُودِ »

كقوله : —

« حَيْثُ التَّقَى خَدُّهَا وَتُفَاحُ لُبْنَانٍ وَتَغْفِرِي عَلَى حَمِيَّاهَا »

وحمرة الخدِّ والدموع التي تنهلُّ عليه والنواظر النُّجْلُ كُلُّ ذَلِكَ كَثِيرُ

الدوران في نسيب الشعراء ، وهو في شعر أبي الطيب قبل أن يصير إلى

حلب سيف الدولة كقوله « أَيَا خَدَّدَ اللَّهُ وَرَدِ الْخُدُودِ » وقوله « بِيَاضِ الطَّلِي

وَوَرْدِ الْخُدُودِ » وكقوله « عَزِيزُ أَسَى مِنْ دَاوَاهِ الْخَدَقِ النُّجْلُ » ولكن في كلِّ

ذلك العموم وليس بِمُوشِكٍ أَنْ يَشْفَ عَنْ شَخْصٍ بَعِينَةٍ أَوْ أَنْ يَمَّ بِتَجَرُّبَةٍ كَقَوْلِهِ

« تَدِيرُهُمَا بَدَوِيَّةٌ فُتِنَتْ بِهَا الْحُلَلُ » « أَفْسَدَتْ بَيْنَنَا الْمَوَدَّاتِ عَيْنَاهَا »
« تُبْصِرُ فِي نَظَرِي حَيَّاهَا »

« تَبَلُّ خَدَّيْ كُلَّمَا ابْتَسَمْتُ مِنْ مَطَرٍ بَرَقَةٍ ثَنَائِيهَا »

« مَهَّاءُ كُلِّهَا يُؤَلِّى بِجَفَنِيَّةِ خَدِّهِ »

« وَلَا خَفَرًا زَادَتْ بِهِ حُمْرَةُ الْخَدِّ »

« أَلَمْ يَرَهُ هَذَا اللَّيْلُ عَيْنِيكَ رَوَيْتِي »

« إِذَا ظَفِرَتْ مِنْكَ الْعَيُونَ بِنَظْرَةٍ »

« قَفَى تَغْرَمُ الْأُولَى مِنَ اللَّحْظِ مُهْنَجَتِي »

بثانية والمتلف الشيء غارمه

« مَطَاعَةُ الْإِحْظِ فِي الْأَلْحَاطِ مَالِكَةٌ »

لمقلتيها عظيم المملك في المقل

وهل كان في خدَّها خالٌ يزيد له خدُّها احمرارا حين يتورد - أم
أراد بذلك كِبَرَهَا : « وَغَضَبِي مِنَ الْإِدْلَالِ سَكْرَتِي مِنَ الصَّبَا » وحسبها
ونسبها ، ويقوى هذا مكان « فَيَّ » و « مَنِيَّ » من قوله :

« عَوَازِلُ ذَاتِ الْحَالِ فِي حَوَاسِيدُ وَإِنَّ ضَجِيعَ الْخُودِ مَنِيَّ لِمَاجِدِ »

يردُّ يَدًّا عَنْ ثُوبِهَا وَهُوَ قَادِرٌ وَيَعْصِي الْهُوَى فِي طَيْفِهَا وَهُوَ رَاقِدٌ

ولاريب أن صاحبة « عواذل ذات الحال » هي الغلامية القصورة ذات

« البعير المقلد الواخذ » بآية ماقال :

« مَرَرْتُ عَلَى دَارِ الْحَبِيبِ فَحَمَّحَمَتْ جَوَادِي وَهَلْ تَشْجُو الْجِيَادَ الْمَعَاهِدُ »

وما تنكرُ الدهماءُ من رسمِ منزلٍ سقتها ضريبَ الشَّوْلِ فِيهِ الْوَلَاثِدُ »

وإنَّما كان هذا بصحصحان البادية حيث شتا وصاف . هذا وقولها :

« وَصَافِحْنِي تَجِدُ عَبَقًا بِكَفِي »

يطابق قوله : « يَاطْفَلْدَةَ الْكَفِّ عُبْلَةَ السَّاعِدِ »

وَنَعَتْ الْكَفَّ فِي الْغَزَلِ قَلِيلٌ وَمَا نَعَتَهُ أَبُو الطَّيِّبِ إِلَّا وَهُوَ يَسْجُلُ
إِحْسَاسًا . وَقَوْلُهَا :

« يَضُوعُ إِلَيْكَ مِنْ رَدْعِ النَّهْودِ »

أَي مَالِاصَتْهَنْ مِنْ الطَّيِّبِ — قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ : « أَلَا أَطِيرُ » أَوْ هَكَذَا (٢٢)
زَعَمَ أَبُو حَذْرَةَ الْخَارِجِيُّ —
كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

« وَقَدْ عَبَقَ الْعَبِيرُ بِهِ وَصَاكَا »

وَهُوَ فِي صِفَةِ جَوَارِيهِ بِالْكُوفَةِ اقْتَبَسَهُ مِنْ صِفَةِ صَاحِبَةِ الْآيَاتِ . وَكُونَ
الْعَبَقُ مِنْ رَدْعِ النَّهْودِ هُوَ عَيْنُ قَوْلِهِ : « أَطَالَتْ يَدِي فِي جِيدِهَا صَحْبَةُ الْعَقْدِ » (٢٣)
وَقَدْ تَأَمَّلْهُ يَعْثُ بِهِ فَذَلِكَ قَوْلُهَا تَرِيدُهُ إِلَى دُنُو أَقْرَبَ :

وَخُذْ سَمْعِي إِلَيْكَ فَإِنَّ فِيهِ بَقَايَا مِنْ حَدِيثِ كَالْعُقُودِ

« بَلَا كُلَّ سَمْعٍ عَنْ سِرِّهَا بِعَائِقِ » — وَمِنْ تَأَمُّلِهِ الْعَقْدَ حَيْثُ هُوَ قَالَ :

« لَهَا بَشَرُ الدَّرِّ الَّذِي قُلِّدَتْ بِهِ وَلَمْ أَرْ بَدْرًا قَبْلَهَا قُلِّدَ الشَّهْبَا »

وَهُوَ شَرْحُ قَوْلِهِ فِي الطَّيِّفِ :

« بَتْنَا يُنَاوِلُنَا الْمَدَامَ بِكَفِّهِ »

« سَقَنِي بِهَا الْقَطْرُ بُلَى مَلِيحَةٍ »

« مِنْ لَيْسَ يَخْطُرُ أَنْ نَرَاهُ بِبَالِهِ »

« نَجِّنِي الْكَوَاكِبَ مِنْ قَلَائِدِ جِيْدِهِ وَنَنَالُ عَيْنَ الشَّمْسِ مِنْ خُلْخَالِهِ »

وَهَذَا كَقَوْلِهِ « وَشَمْسٌ لَنَاظِرٍ » وَالْخُلْخَالُ بَقَايَا الْحَدِيثِ أَوْ كَمَا أَشَارَ

فِي قَوْلِهِ :

« وَقَدْ طَرَقَتْ فِتَاةَ الْحَيِّ مُرْتَدِيًا بِصَاحِبٍ غَيْرِ عَزْهَاءَ وَلَا غَزَلٍ

فَبَاتَ بَيْنَ تَرَاقِينَا نُدْقَعُهُ وَلَيْسَ يَعْلَمُ بِالشَّكْوَى وَلَا الْقَبِيلِ

ثُمَّ اغْتَمَدِي وَبِهِ مِنْ رَدْعِهَا أَثَرٌ عَلَى ذَوَابْتِهِ وَابْجَفْنِ وَالْحِلَالِ

قَالُوا الصَّاحِبُ غَيْرُ الْعَزْهَاءِ وَلَا الْغَزَلِ هُوَ السَّيْفُ — وَإِنَّمَا أَرَادَ نَفْسَهُ

فجعل السيف كناية ، ونظر إلى قول سُحَيْمٍ :

« فما زال ثوبى طيباً من ثيابها إلى الحولِ حتى أُنْهَجَ البرْدُ باليا »
أُنْهَجَ بلى ، والعِزْهَاءُ غير العزِل .
يدلُّكَ على إرادته نفسه قوله :

« فإِذَا تَرَيْنِي لَا أَقِيمُ بِلَدِي فَأَقْفُ عَمْدِي فِي دُلُوقِي وَفِي حَدِّي »
وقد عدلت العواذلُ الحوامِذُ ذاتَ الخالِ قبل اتصال أبي الطيّب بسيف
الدولة فى مقدمة لاميته فى أبى العشائر حيث قال :

« لَا تَحْسَبُوا رَبَّعْمَكُمْ وَلَا طَلَّهْ أَوَّلَ حَيٍّ فِرَاقِكُمْ قَتَلَكَهْ
قَدْ تَلِفَتْ قَبْلَهُ النُّفُوسُ بِبِكُمْ وَأَكْثَرَتْ فِي هَوَاكُمُ الْعَدَلَهْ »
وقوله تَلِفَتْ كقوله فى الدالية التى قالها بفارس من نفس هذا الوزن—
« فَحَبِّدَا تَلَفٌ أَلْصَقَ ثَدْيِي بِثَدْيِكَ النَّاهِد... الْبَيْتِ » ولا يخفى أن هذا هو
عين قول قول الفتاة : « يَضُوعُ إِلَيْكَ مِنْ رَدْعِ الْنُهُودِ »

« خَيْلًا وَفِيهِ أَهْلٌ وَأَوْحَشَنَا وَفِيهِ صِرْمٌ مُرَوِّحٌ لِإِيْلَهْ »
— الصرْم الجماعة من الخيامِ وأهلها وهذا حيث كانت اصطافت أو شتت —
« لو سار ذاكَ الحبيبُ عن فلكِ مارَضَى الشَّمْسَ بَرَجُهُ بَدَلَهْ »
الشَّمْسُ مفعولة ، وبرجُه فاعل . وحبيبة أبى الطيّب القصُورة القصيرة
عنده بدر ، فمتى ذكر أنَّها شمس كان ذلك من أجل التشبيه أو التضميل
كقوله : « شمس لناظر » — وكقوله ههنا « مارضى الشمسَ برجُه » أى
قصره لا يرضى بالشمس بديلاً منه وهو بدر وألغز ببرج السماء كما ترى .
ولكونها قصورة قصيرة عبلة غلامية جعلها بدرا فما كان يخفى عنه أن مذهب
الجاهلية (مانال أهل الجاهلية كلهم شعري) تشبيه النساء بالشموس :

« تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ بَيْنَ غَمَامَةٍ بَدَا حَاجِبُ مِنْهَا وَضُنَّتْ بِحَاجِبِ
وهذه طُوالَة كما ترى — وطُوالَات من قال فيهن :

« بِأَبَى الشَّمُوسِ الْجَانِحَاتِ غَوَارِبَا اللَّابِسَاتِ مِنَ الْخَرِيرِ جَلَابِبَا »
فقد سَمَّوْنَ لِيُبَهِّرُنَّه من الجلابيب ، كما ترى — ثم قال :

« أُحِبُّهُ وَالْهُوى وَأَدْوَرَهُ وكلُّ حُبٍّ صِبَابَةٌ وَوَلَّاهُ »
 وإنما قال « صِبَابَةٌ وَوَلَّاهُ » لما قال من قبل « وَالْهُوى » وهو يعلم أنَّ الْهُوى
 ههنا « تَلَفٌ »

« يَنْصُرُهَا الْغَيْثُ وَهِيَ ظَامِيَّةٌ » إلى سواه وَسُحْبُهَا هَطِيلَةٌ
 وهى ظامئة إليه هو؛ أَبُو الطَّيِّبِ - وصورة هذا السحاب بقيت فى
 فؤاده إلى حين زار ابن العميد فقال يصف المطر فى طريقه إليه :
 « كَفَانَا الرَّبِيعُ الْغَيْثُ مِنْ بَرَكَاتِهِ فجاءته لم تَسْمَعْ حِدَاءً سِوَى الرِّعْدِ
 إِذَا مَا اسْتَجَبْنَ الْمَاءُ يَعْزُضُ نَفْسَهُ كَرَعْنَ يَسْبِغْنَ فِي إِنْاءٍ مِنَ الْوَرْدِ »
 إذا ما استحين كما قال أَبُو الفتح جيد والكناية لانتحى ، كأن كل شربة أو
 حسوة إشارة « بقبلة » :

« أَتَذْكُرُ إِذْ تَوَدَّعْنَا سُلَيْمَى بفرعٍ بِشَامَةٍ سُقَى الْبِشَامُ » (٢٤)
 ويقوى هذا الوجه والله أعلم قوله :
 « وَأَشْنَبَ مَعْسُولَ الثَّنِيَّاتِ وَاضِحٍ سَتَرْتُ فَمِي عَنْهُ فَقَبَّلَ مَفْرُقَى »
 ثم يقول :

« وَأَحْرَبَا مِنْكَ ياجَدَّ أَيْتَهَا مُقِيمَةً فاعلمى ومُرْتَحِلَهُ »
 « عَلَى الْبَعِيرِ الْمَقْلَدِ الْوَاحِدِ »

وهذه صورة أبى العشائر حيث قال :
 « وَفَارِسَ الْأَحْمَرَ الْمُكَلَّلَ فِي طَبِئِ الْمُشْرِعِ الْقَنَا قَبْلَهُ » (٢٥)
 وفى البيت نظر إلى قول عنزة
 « أَشْطَانُ بَثْرٍ فِي لَبَّانِ الْأَدْهَمِ » « فَأَزُورُ مَنْ وَقَعَ الْقَنَا بِلَبَّانِهِ »
 ولكنه بعد فى أعماقه صورة هودج . هو الأحمر المكمل هنا والمقلد
 الواحد هناك .

« لَوْ خُلِطَ الْمَسْكُ وَالْعَبِيرُ بِهَا وَلَسْتُ فِيهَا لَخَلَّتْهَا تَفِلْدَةٌ »
 أى لأطيب بها .

«أَنَا ابْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الْبَاءِ حَيْثُ وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهُ»
وهذا جواب لمن لامها فيه أنه لا نسب له مثلاً . ومثل هذا قوله :

«وَأَنْ ضَجِيعُ الْخَوْدِ مِنْنِي لِمَا جَدَّ»

وهو موضع الاستشهاد وقد تكرر في شعره كقوله :

«وَلَسْتُ بِقَانَعٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ بِأَنْ أُعْزَى إِلَى جَدِّ هُمَامٍ»

وقوله :

«وَأِنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُودَ لَهُمْ مَنْ نَقَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حَيْلَهُ»
كأنه تعريض بهذا العاذل الذي تَنَقَّصَهُ في نسبه، ثم انتابته نشوة مرح شديدة الشبه بنشوته بعد لقاء درب القلة :

«فَخَرًّا لِعُضْبٍ أَرْوَحُ مُشْتَمِلَةً وَسَمَهْرَى أَرْوَحُ مُعْتَقِلَةً

فَلَا مِبَالَ وَلَا مِدَاجٍ وَلَا وَأَنْ لَا عَاجِزٍ وَلَا تُسْكَلَهُ

وَدِرَاعٍ سَيْفَتُهُ فَخَرَّ لَقَى فِي الْمُلْتَقَى وَالْعَجَاجِ وَالْعَجَلَهُ» (٢٦)

«رَمَى الدَّرْبَ بِالْجُرْدِ الْحَيَادِ إِلَى الْعَدَا»

«شَوَائِلُ تَشْوَالِ الْعَقَّارِبِ بِالْقَنَاتَا»

«وَسَامِعٍ رَعْتَهُ بِقَافِيَةٍ بِحَارُ فِيهَا الْمُنْقَحُ الْقَوْلَهُ

وَرَبَّمَا يَشْهَدُ الطَّعَامَ مَعِي مَنْ لَا يُسَاوِي الْخُبْزَ الَّذِي أَكَلَهُ

وَيُظْهِرُ الْجَهْلَ بِي وَأَعْرِفُهُ وَالدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمٍ مِنْ جِهَلِهِ»

لا يكون هذا المسعودي الذي أوصله إلى أبي العشائر وحسده من بعد وصار يتناوله عنده ولكنّه ذو خطر تجاهله وهو يعرف قدره ، لعلّه أبو فراس والذي لا يساوى الخبز الذي أكله هو المسعودي وليس موصوف البيتين المعروض به فيهما رجلاً واحداً ضربة لازم . وتأمل بعد قوله :

«وَيُظْهِرُ الْجَهْلَ بِي وَأَعْرِفُهُ وَالدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمٍ مِنْ جِهَلِهِ

مستحياً من أبي العشائر أن أسحب في غير أرضه حِلَلَهُ»

هل سأله المدح ليستعلى عليه وإلاّ فما قول أبي منصور : وإنّما لم يمدحه

ومدح من دونه من آل حمدان . . . الله الله وهل كان أبو العشائر دونه ؟ !

« من نَفَرَوْه وأنفَدُوا حِيلَه » (٢٧)

وقد كان أبو العشائر يحب أبا الطيّب ويُدْنِيهِ ويفهمه .
« قد هَذَبَتْ فُهْمَه الفَقَاهَةُ لِي وهَذَبَتْ شَعْرَى الفَصَاحَةُ لَه
فصرت كالسيف حامداً يَدَه لا يَحْمَدُ السَّيْفَ كُلُّ مَنْ حَمَلَه »
وشبيه بنسب هذه اللامية نسيب اللامية « اثلث فإنّا أيها الطلل » في
عضد الدولة ، إلاّ أنّه أجود لعظم التجارب وتمام النضج .

« اثلث فإنّا أيها الطلل نَبْكِ وَتُرْزَمُ تَحْتَا الإِبِلِ
أولاً فلا عتب على طلل إنّ الطلولَ لمثلها فُعِلَ
لو كنت تَنَطَّقُ قلت مُعْتَذِراً : بى غير ما بك أيّها الرجل
أبكاك أنّك بعض من شَغِفُوا لم أبلِك أنّى بعض من قَتَلُوا »
وهذا كما ترى إفتنان لما كان أجمل قبل ، حيث قال :

« ولا تحسبوا ربكم ولا طلل أوّلَ صبّ فِرَاقِكُمْ قَتَلَه »
القتيل الآن الطلل إذ شتّان فارس والشام . والديار التي ماتت
هى الشاعر وهو أيضاً الواقف عليها وذلك قوله :

« إنّ الذين أقمت وأحتملوا أيّامهم لديارِهِم دُؤْلُ »
والمقيم الشاعر إذ هم عنه باثنون

« الحُسْنُ يرحلُ كلّما رحلوا معهم وينزلُ حيثما نزلوا »
وهذا قوله « مقيمةً فاعلمى ومُرتحلةً »

« فى مُتَمَلِّتِي رِشاً تُدِيرُهُمَّ بَدَوِيَّةٌ فُتِنَتْ بِهَا الحِلْدَلُ »
إذ حلّت بها وليست منها فمَنظَرها باهر مستطرف .

« تشكو المطاعم طُولَ هَجَرَتِهَا وصدودها ومن اللذى تَصِلُ »
وذلك لتعللها عن العروض وهو تمهيد لقوله بعد

« ما أسأرتُ فى القعبِ من لبن تَرَكَتَهُ وَهُوَ الْمُسْكُ والعسلُ »
فإذا مدّها القعْبُ أصابت منه وأعطت أبا الطيّب سُوراً هو المسك والعسل

« لو خُلِطَ المسكُ والعيرُ بها ولست فيها لخلتها تفلسه »
 كما أسأرت في يده غداثرها فغمسه في الكأس وصار اللبن خمرا — (٢٨)
 وقد عبق العير به وصاكا
 « قالت ألا تصحوقلت لها أعلممتني أن الهوى ثملُ »
 أنها إشارة إلى قوله « وإيل توسدنا النوبة تحته ... البيت » ؟
 وقد قارب الانطلاق كما ترى ثم اقتضب إلى بتر مفاجيء حيث قال
 بعد هذا مباشرة :

« لو أن فناخسرا صبحكم وبرزت وحدك عاقه الغزلُ »
 وهو تخلص إلى المدح .

وهو اعتذار أيضا إلى فناخسرا أن هذا الغزل الصادق صرفه وقتا عن مدحه . قال ابن قتيبة : « كان بعض الرجّاز أتى نصر بن سيار وإلى خراسان لبني أمية فمدحه بقصيدة تشبيها مائة بيت ومدحها عشرة أبيات إلى آخر ما قال » .
 ثم هو آمانيُّ .

عاد الشاعر من المشرق وهو أمير ذو كئائب وبرزت وحدها فعاقه (٢٩)
 الغزل — أي انهزم كما قال أبو النخع عن أبى الطيّب — وتفرقت كئائبه وأصيبت عند دَيْرِ العاقول .
 (٣٠)

. . قال ابن خلكان وهو محقق « من الجانب الغربى من سواد بغداد عند دَيْرِ العاقول بينهما مسافة ميلين » أ . ه . فمن زعم أنه قتل أبعد من ذلك لم يصب .

« . . ان الملاح خوادعُ قتلُ »

قتله كما قتلن الربع . . « من الدم كالريحان تحت الشقائق »

« ما كنت فاعلةً وضيئفكم ملكُ الملوك وشأنك البُخلُ »
 أفتمنعين قيرى فتفتضحى أم تبذلين له الذى يسألُ »

لقد كان في أبي الطيّب رحمه الله مرح كثير وطموح أيّما طموح
« بل لا يَحِيلُ بِحَيْثُ حَلَّ بِهِ بُخْلٌ وَلَا جُورٌ وَلَا وَجَلٌ »
ومن الجور هرب والوجلُّ مُلاحقُهُ :

« يَنْصُرُهَا الْغَيْثُ وَهِيَ ظَامِنَةٌ إِلَى سِوَاهُ وَسُحْبُهُ هَطِيلَةٌ »
لازال الغيث والرّى والريحان والشقائق والروض —

« كلما رَحَبَتْ بِنَا الرُّوضُ قَلْنَا حُلْبٌ قَصْدُنَا وَأَنْتَ السَّبِيلُ »
والرماح كل ذلك أبدا ملء فؤاد الشاعر ، قال :

« يُشْتَاقُ مِنْ يَدِهِ إِلَى سَبَلٍ »

— هذا حين أخذ في المدح —

« شَوْقًا إِلَيْهِ تَنْبُتُ الْأَسَلُ » (٣١)

مسكين أبو الطيّب

« سَبَلٌ تَطُولُ الْمَكْرُمَاتُ بِهِ وَالْمَجْدُ لَا الْحَوَازَانُ وَالْتَقَلُ »
وهذان من نبات البادية طيبان . « حلب قصدنا وأنت السبيل »
كما ترى

« وَإِلَى حَصَى أَرْضٍ أَقَامَ بِهَا لِلنَّاسِ مِنْ تَقْبِيلِهَا يَلَلٌ » (٣٢)
إذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبه للمخائق

ولكن ليس في هذه اللامية المرح الذي في . .

« وَدَارِعَ سِفْتُهُ فَخَرًّا لِقَى فِي الْمُلْتَقَى وَالْعَجَاجِ وَالْعَجَلَةِ »

ولكن موسيقا وحزن عميق وبهجة راقصة مع ذلك :

« مَا أَسَارَتْ فِي الْقَعْبِ مِنْ لَبَنِ تَرَكَتُهُ وَهُوَ الْمِسْكُ وَالْعَسَلُ »

« بَدَوِيَّةٌ فَتِنَتْ بِهَا الْحِلَالُ »

« وَصُدُّوْهَا وَمِنَ الَّذِي تَصِلُ »

« الْحَسَنُ يُرَحِّلُ كُلَّمَا رَحَلُوا مَعَهُمْ وَيَنْزِلُ حَيْثَمَا نَزَلُوا »

« عَلَى الْبَعِيرِ الْمُقَلَّدِ الْوَاحِدِ »

ومهما يكن من شيء فمندا عسى أن تكون فتاة أبى الطيب التى عندها فيه العواذل

« أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباحث ... »

قبل اتصاله بسيف الدولة . وهُنَّ من آل حمدان ، قَصُورَةٌ ، قصيرة عيلة الساعد ، غير لثغاء ؟

أليست صاحبة اللامية — لك يامنزل — لثغاء ضاوية :

(٣٣) « كم وقفة سَجَرَتِكَ شوقا بعدما غَرَى الرقيبُ بنا وَلَجَّ العاذلُ
دونَ التعانقِ ناحلين كَشَكَلْتَنِي نَصَبٌ أَدَقَّهُمَا وَضَمَّ الشَّاكِلُ »
وما أنساه إِيَّاهَا نِيلُ الثَوْبَةِ إِذْ هِيَ فِي الْقَافِيَةِ صَدَى حَيْثُ قَالَ :

« وَسَوْقَ عَيْلٍ مِّنْ مَّعْدٍ وَغَيْرِهَا قَبَائِلَ لَا تُعْطِي الْقُفْيَ لِسَائِقِ
قَشِيرٍ وَبَلْعَجَلَانٍ فِيهَا خَفِيَّةٌ كَرَائِنٍ فِي أَلْفَاظِ الشَّغِ نَاطِقٍ »
غَرَى الرقيبُ بنا وأما العاذلُ فقد لَجَّ مِنْ بَعْدُ ، وَقَدْ رَامَ مَعْنَى فِي قَوْلِهِ :

« الطيب أنت إذا أصابك طيبه والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل »

فما استقام له إلَّا من بعدُ حين أمكنه أن يقول :

« مَا أَسَارَتْ فِي يَدَي غَدَائِرُهَا جَعَلَتْهُ فِي الْمُدَامِ أَفْوَاهَا »
لتطيب به المدام وقبلته مع المدام وقبَّلته وَقَبَّلَهَا مَعَ الْمُدَامِ وَكَلَامُ أَبِي الطَّيِّبِ
ههنا قمة .

وقد رَامَ مَعْنَى أَيْضًا فِي قَوْلِهِ :

« وَلِذَا اسْمُ أَغْطِيَةِ الْعَيُونِ جَفُونَهَا مِنْ أَنَّهَا عَمَلُ السُّيُوفِ عَوَامِلُ »
فما استقام له الا بعد عينها

« إِنَّ لَحْظًا أَدَمْتَهُ وَأَدَمْنَا كَانَ عَمَدًا لَنَا وَحَتَفَ اتِّفَاقُ »

تأمل « كان عمدا لنا » فنظرناه عمدا وكان فيه الموت — تديرهما بدويَّة
فتنت بها الحلل .

«لو عدا عنك غيرُ هجركَ بُعْدُ» لأرَارَ الرَّسِيمُ مَخَّ الْمُنَاقِي»
 هذا من الغريب الحوشى الذى عيب عليه . أرارَ أذهب مخ العظم ، جعله
 رارا ، يقال مَخُّ رَارٌ ومَخَّ رير والمناقى من الإبل سمانها . أى لو كان المانع
 من لقاك هو شىء سوى هجركَ إذن لطلبنا وصلك بالرسيم — أى سير الابل
 الشديد — حتى ولو أذهب ذلك مَخُّ السمان المناقى من مطايانا
 «ولمسيرنا ولو وصلنا عليها مثل أنفاسنا على الأرماق»

أى ولو وصلنا إليها وهى ونحن على آخر رمل —
 «ليس إلاّ أبا العشائر خالق» سادَ هذا الأَنامَ باستحقاقٍ
 أو كما قال لسيف الدولة من بعد وهو بالعراق :

«نحن أدرى وقد سألنا بنَجْدٍ أطويلُ طريقنا أم يَطْطُولُ
 وكثيرٌ من السُّؤالِ اشتياقٌ وكثيرٌ من رَدِّهِ تَعْلِيلُ
 والمُسَمَّوْنَ بالأَميرِ كثيرٌ والأَميرُ الذى بها المأمُولُ
 لَيْسَ إِلَّا كَيا عَلَى هُمَامٍ سيفه دون عِرْضِهِ مَسْئُولُ»

أهذا تجاوب من أصداء تجارب ، أم مجرد مذهب بيان وطريقة أسلوب ؟ !
 ومنذا عسى أن تكون فتاة أبى الطيّب بعدُ غير عقيلة من آل أبى العشائر الذى
 «ساد هذا الأَنامَ باستحقاقٍ» وتعلم بعدُ خبرَ الفاتية :

«ومنتسبٍ عندى إلى من أَحَبُّهُ وللنبْلِ حَوْلَى من يَدَيَّهِ حَفِيفُ»

وهو خبَرَ أن أحدهما الرجل الذى كان عَمْدُ وَّآ له فى مجلس سيف الدولة
 حين أنشد الميميةَ والآخِرُ أَنَّ أبا العشائر قد غضب على أبى الطيّب — قالوا
 «فأرسل له غلمانا فلاحقوا به بظاهر حلب ليلا» — ثم أَدْمِجَ هذا الخبر فى
 خبر الميمية طيّاً له .

وكان أبى الطيّب كان بأنطاكية فأوجب أمرَ حفيظة أبى العشائر ، زَلَّةً
 من أبى الطيّب أو وشايةً به أو هما معا أو شىء بينهما ، فأرسل بعد انصرافه
 من لحق به ، فأدْرِكَ بظاهر حلب ، أو دخلها . وقد أفلت أو استغاث وهو داخِلُها

والنصُّ عَمَلِيَّ «ظاهر حلب» يُشعر أَنَّهُ متى دخلها أمن إذ لا يُنتَهَكُ جوارَ سيف الدولة شاعِرُهُ . ولذلك من بعدُ سعى السامريُّ أن يُرَخِّصَ له في دمه . وأفاد أيضا من بعدُ من تجربة هذا الحادث: مدبرٌ وسهام دير العاقول . وليس بعيد، أن كان أبو فراس رأسهم، وأن يكونَ الذي وقع من أبي العشائر قد كان بتحريض منه . ثم رجحت سابقة الوداد مع قرب الشفيح مع ماجبل عليه أبو العشائر — كاسخه — من دماءة نفس وفكاهة روح .

وفي شعر أبي الطيّب ألفة له تدلُّ على ملازمة ومنادمة ومخالطة، كقوله
آتفا :

« قد هذبت فهمه الفقاهاةُ لي وهذبت شعري الفصاحةُ له »
وقوله :

« يا ابنَ من كَلَّمَا بَدَوْتُ بِدَالِي غائبَ الشَّخِصِ حَاضِرَ الأخلاقِ
لو تنكَّرتَ في المَكْرَرِّ لِقَوْمٍ حلفوا أَنَّا ابنه بالطَّلاقِ »
ولا أحسب قوله :

« وأخ لنا بَعَثَ الطَّلَاقَ أليَّةً لتعلنَ بهذه الخرطومِ
فجعلتُ رَدَى عِرْسِهِ كِفَارَةً من شُرْبِهَا وشربت غير أثيمِ »
كان في أبي العشائر :

ويَنِمُّ عن بعض ما كان يخاصُّ به أبو العشائر أبا الطيب خبر الديوان :
« وقال في أبي العشائر وعنده إنسان ينشده شعرا وصف فيه بركة في داره الخ . .

« لئن كان أحسن في وصفها فقد تَرَكَ الوصفَ في الحُسنِ لكِ »

قيل إنَّ شاعراً شبه أبا العشائر بالبركة وهو عن الواحدى وأضعفه العكبرى — والنصُّ « إنسان ينشده شعرا » يدلُّ على مكتوم اسمه وشخصه . وما ذاك إلاَّ أَنَّهُ من العقائل ، على الأرجح والله أعلم .
أو كما قال من قبلُ :

«ديسارُ اللّواتي دارهْنْ عزيزةٌ» بطولِ القنا يحفظُنْ لا بالتمائمِ (٣٤)
 حسانُ الثنّى ينقشُ الوشى مثله إذا مسنّ في أجسامهنّ النّوّاعِمِ
 ويَبْسمنَ عن دُرٍّ تقلّدنَ مثله كأنّ التراقي وشّحتْ بالمباسِمِ
 وهذه ابتسامة مع التفاتة .

وقد رأى جميعَ هذا من بعدُ عند آل حمدان :
 «لها بَشْرُ الدّر الذي قلّدت به ولم أر بدرًا قبلها قلد الشّهْبَا»
 وهي عينها البدر الذي أعطاه المحاق في قوله : (٣٥)

«وقد أخذَ التّمامَ البدرُ فيهم وأعطاني من السّقمِ المَحاقا
 وبين الفرعِ والقسمينَ نورٌ يقودُ بلا أزمّتها النّيّاقا
 وطرفُ إن سقى العُشّاقَ كَأساً بها نقصُ سقانيها دهاقا
 وخَصَرُ تثبّتُ الأَبصارُ فيه كأنّ عليه من حدقٍ نطاقا»

أى حزاما تعتجر به وقيل أن السرى حُمّ لما سمع هذا البيت حسدا (٣٦)
 لأبى الطيّب ثم مات بعد ثلاثة أيام ، والحق أن ذلك لم يكن وإنما سرقة
 فقَصّر عنه وذلك قوله :

«أحاطت عيونُ العاشقين بخَصَرِهِ فيهنّ له دون النطاقِ نطاقُ»
 وتفاهة هذا لا تخفى . هذا ، وكأنّه قد كان الاعتجار على الحصور
 ديدنا عند نساء آل حمدان فقد روى الثعالبي لابن ناصر الدولة في جارية
 لهم كانت تبلى معاجِرَها ، يبلّياها — لاشك — الغلو في الاعتجار ، قال
 «وأنشدني» يعنى التّوخى عن ابن ناصر الدولة . . «أيضا قال أنشدني لنفسه
 في جارية كانت معاجِرُها تبلى بسرعة :

«أرى الثيابَ من الكتّان يلمَحُها ضوؤُ من البدر أحيانا فيبليها
 وكيف تُنكرُ أن تبلى معاجِرُها والبدرُ في كلّ حين طالعُ فيها»
 وقد أحسن غاية الاحسان ، والعرب تزعم ان البدر يُبلى الثياب الحلوة —
 وحسبك قوله الثياب الحلوة !

كم كان أبو منصور بغدادياً مُحَكَّكاً دَرَبَ «على الخدائع وتحنك» (٣٧)
 — أترى العقيلة، الإنسان الذي كان ينشد شعراء، إن كان إلا أخت أبي (٣٨)
 العشائر مثلاً أليس أبو الطيب يقول ؟ . . .

«لهوى النفوس سريرة لا تعلمُ عَرَضاً نظرتُ وخلصتُ أنى أسلم
 يا أخت مُعْتَنِقِ الفوارسِ فى الوغى لأخوك ثم أرق منك وأرحم
 يَرْنُو إليك مع العفاف وعنده أن المَجُوس تُصِيب فيما تحكم»
 وأخطأ من ظن أن هذا ابن كيغلغ :

«راعتك رائعةُ البياض بمفرقى ولو أنها الأولى لراعَ الأسحمُ
 لو كان يمكننى سفرت عن الصبا فالشيبُ من قبلِ الأوانِ تَلُثمُ»
 وهذا كقوله :

«مُشِبُّ الذى يبكى الشباب مُشِيهٌ فكيف تَوَقَّيه وبانيه هادِ مُه
 وتكملة العيش الصبا وعقبيه غائب لَوْنِ العارضين وقادمه
 وما خَضَبَ الناسُ البياضَ لأنه قبيحٌ ولكن أحسنُ الشَّعرِ فاحمه
 وأحسنُ من ماء الشبية كلُّه حيا بارق فى فَاذَةِ أنا شائمه»
 الفَاذَةُ القبة والخيمة — قالوا أراد سيف الدولة — وذلك جائز وكذلك أراد
 نحو ما قال :

«فى بلدٍ تُضْرَبُ الحِجَالُ به على حِسانٍ ولسن أشباها
 لَقِينَا والحُمُول سائِرَةً وهنَّ دُرٌّ فَذُبْنَ أَمْوَاهَا»
 ثم يقول :

«وفوق حواشى كُلِّ ثَوْبٍ مُوجَهٍ من الدُرِّ سِمَطٌ لم يُثَقِّبه ناظمه» (٣٩)
 حُورٌ مقصورات فى الخيام . . .

«حِسان التَّنَى يَنْقُشُ الوشَى مثله إذا مِسْنٌ فى أجسامِهِنَّ التَّوَاعِمِ»
 وميمية ابن كيغلغ (٥٣٣٦) وميمية سيف الدولة (٣٣٧ هـ) متقاربتا
 العهد وكتاهما نظم بأنطاكية أو قريبا منها — وفى ميمية ابن كيغلغ إذ أراد

على المديح ، فأبى يقول :

«فلشدّ ماجاوزتَ قدركَ صاعداً ولشدّ ماقرّبتَ عليك الأتجمُ
وأرغتَ ما لأبى العشائر خالصا إنّ الثناء لمن يزَارُ فيمنعهمُ»
— وهذا شاهد المِقةِ والوداد —

«ولمن أقمتَ على المِوانِ ببابه تَدُنُو فَيُوجَأُ أخدعاك وتنههمُ»
— وهذا شاهد العزِ والمنعة —

«ولمن يهين المال وهو مُكرّمُ ولمن يَجُرُّ الجيش وهو عرمرمُ»
— وهذا شاهد الجاه والندى والسلطان —

«ولمن إذا التقت الكماةُ بتأزقٍ فنصيبه منها الكميُّ المُعَلَمُ
ولربّما أطَرَ القنّاةَ بفارسٍ وثنى فقوّمها بآخرَ منهمُ
والوَجْهَ أَزهر والفؤادُ مُشيعَ والرّمحُ أَسمرُ والحسامُ مصممُ
أفعالُ من تلد الكرامُ كريمةُ وفيعال من تلد الأعاجمُ أعجمُ»

وهذا أشبه بمن وصف بدءاً :
(٤٠)
«لأخوك ثمّ أرقُ منكِ وأرحمُ»
«وثنّى وقوّمها بآخرَ منهمُ»
والوجه أَزهر إلى آخر ما قال .

وهي التي راعتها رائعة البياض بـمـفـرق أبي الطيّب — فلم يخضب (٤١)
إذ ليس البياض في ذاته بقبيح ولكن عسى التمويه أن يكون قبيحاً :
«ومن هوى كلٍّ من ليست مُموّهةً تَرَكَتُ لَوْنَ مَشِييٍ غَيْرَ مَخْضُوبٍ
وَمِنْ هَوَى الصّدقِ في قولِي وعادَتِهِ رَغِبَتِ عَن شَعَرٍ فِي الوَجْهِ مَكْذُوبٍ
ليت الحوادث باعثنى الذي أخذت مني بحِلْمِي الذي أعطت وتجريبي

فما الحادثةُ من حِلْمٍ بمانعةٍ قد يُوجدُ الحِلْمُ في الشُّبانِ والشَّيبِ
وما كرَّرَ أبو الطَّيِّبِ حديثَ الصِّدِّيقِ والشَّيبِ إلَّا وهو يقرِّرُ تجربته
عميقة . ولذلك وثب به فؤاده إلى تمنَّى العهد القديم — هيهات أخت معتنق
الفوارس في الوغى . ولقد كان هو رحمه الله فارساً وحسبك شاهداً صفاته
الحليل .

«إذا لم تشاهدْ غَيْرَ حُسْنِ شَيْئَاتِهَا وَأَعْضَاءِهَا فَاحْسِنْ عَنْكَ مُغَيَّبٌ»
وقال بالشَّامِ يصف فارساً ويروِّضه : —

«أُعِدُّهُ لِلطَّعْنِ فِي الْفَيْسَالِقِ
وَالضَّرْبِ فِي الْأَوْجُهِ وَالْمَفَارِقِ
وَالسَّيْرِ فِي ظِلِّ الْأَوَاءِ الْخَافِقِ
يَحْمِلْنِي وَالتَّصَلُّ ذُو السَّفَاسِقِ»

أخذه من أمرىء القيس : «أقمت بنصل ذى سفاسق ميله» وهى البريق

«يَقْطُرُ فِي كُمِّي إِلَى الْبَنَائِقِ
لَا لِحِظِ الدُّنْيَا بَعِيْنَتِي وَأَمِيقِ
وَلَا أَبَالِي قِلَّةَ الْمُوَافِقِ
أَيُّ كَبَّتْ كُلَّ حَاسِدٍ مُنَافِقِ
أَنْتَ لَنَا وَكُنَّا لِلْخَالِقِ»

وإنَّما كان للعفاف يودُّ لو قد يرى رأى المجوس (٤٢)

«لهوى النفوس سريرة لاتعلم»

وكان إذن هو الذى يرنو . . وعلى هذا فهل كانت هذه التى أشعرنا
أنها لأبى العشائر أخت مثلاً إنَّما كانت لأبى العشائر زوجة مثلاً ، ولأبى
الطَّيِّبِ فى حكم المجاز والرحمة كأخت ، عكس ما كانت عليه حكاية
جعفر والعبَّاسة فى سالف الأساطير . . ؟!

« وإذا الحمائل ما نَحْنِدْنَ بِنَفْسِنَا إلا شَقَقْنَ عَلَيْهِ ثوباً أَخْضَرَا
يَحْمِلْنَ مِثْلَ الرَّوْضِ إِلَّا أَنَّهُ أَسْبَى مَهْمَةً لِلْقُلُوبِ وَجُؤَزَرَا
« حَيَاً فَازَةً فِي بَارِقٍ أَنَا شَائِمُهُ »
« فَبَلَحْظُهَا نَكَرَتْ قَنَاتِي رَاحَتِي ضَعُفُهَا وَأَنْكَرَ خَاتِمَايَ الْحِنْصَرَا
أَيُّ اضْطَرَبَ حَتَّى ارْتَجَفَتْ يَدَاهُ
(٤٣) « أَعْطَى الزَّمَانُ فَمَا قَبِلْتَ عَطَاءَهُ وَأَرَادَ لِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَخَيَّرَا
« عِنْدَ الْهَيْمَامِ أَبِي الْمَسْكَ الَّذِي غَرِقَتْ
فِي جُودِهِ مُضَرُّ الْحَمَرَاءِ وَالْيَمْنُ
تَحْمَلُوا حَمَلَتِكُمْ كُلُّ نَاجِيَةٍ
فَكُلُّ بَيْنَ عَمَلٍ الْيَوْمَ مَوْثِقٌ
مَا فِي هَوَادِجِكُمْ عَنْ مُهْجَتِي عِيَوضٌ
إِنْ مِتُّ شَوْقاً وَلَا فِيهَا لَهَا ثَمَنٌ
أَتَرَى جَمِيعَ هَذَا مَجْرَدَ أَسْلُوبٍ لَفْظٍ وَطَرِيقَةٍ بَيَانٍ . أَمْ أَنَّ وَرَاءَهُ قِصَّةً مِنْ لَحْمٍ
وَدَمٍ كَانَ فِيهَا مَصْرَعُ الشَّاعِرِ . . قِصَّةُ حُبِّهِ امْرَأَةً عِنْدَ آلِ أَبِي الْعَشَائِرِ .
« يَا طِفْلَةَ الْكَفِّ عِبْلَةَ السَّاعِدِ عَلَى الْبَعِيرِ الْمُقْلَدِ الْوَاحِدِ »
اللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ .

(٤)

لماذا غادر أبو الطيّب مصر وبها وجد الدعة والأمن ؟ وزعموا أن كافورا وعده الملك ، وأصوب لو قالوا إن من أوفدهم إليه وعدوه ذلك باسمه . وعسى أن يكون قد أذن في ذلك من دون أن يضمّنه أو يعد بمقاربة ضمانه إذ لا يعقل من مملوك وصل إلى ذروة الملك بالكيد والجد والتدبير أن يظن أن الملك يوصل إليه بغير هذا الطريق ، وأن الشعراء يجازون بالولاية على القصائد . مهما تسم نفسه إلى المدح وحسن الأحداث واقثناء ما كان يقتنى ملوك عصره من النفائس « كالصائح المحكى » مثلا . (١)

ولم يكن بلاط كافور أصحاب نبال يرسلونها في غلس الظلام « خذها وأنا غلام أبى العشائر » ولامفاتيح يشجعون بها الرؤوس في المجالس ، ولكن من ملأ مصر ، أهل سياسة ودمائة طباع ولطف كياسة وظرف ثياب ومجالس وحديث . وكانوا على ثقة أن الخفض في ريف النيل جائزة هي أسنى مايوهب . وأن مدّ الحبال لبدواة الوحش النفور في أبى الطيّب حتى يأنس إلى ظلّ هذا الخفض يجوز معه بعض الكذب . وكان نصحو أبا الطيّب أن ينظم في الأسود . . إنّه يحب الفخر . . وأمر بأيدينا . . ومع توالى المدائح يكون توالى النعم . وأبو الطيّب ينتظر الولاية :

« فنى ما سرينا فى ظهّور جُودنا إلى عَصْرِهِ إِلَّا نَرْجَى التَّلَاقِيَا (٢)
تَرْفَعُ عَنْ عُونِ المِكارمِ قَدْرُهُ فَمَا يَفْعَلُ الفَعْلَاتِ الا عَدَارِيَا
وغير كثير أن يزورك راجلٌ فيرجع ملكاً للعراقين واليا »
ويعلم فى أعماقه أن ذلك انتظار لا يستقيم ولعلّه غير حكيم :

« فقد تَهَبُّ الجَحِيشَ الذى جاء غازيا لسائلك الفَرْدِ الذى جاء عافيا
وتَحْتَقِرِ الدنيا احتقاراً مُجَرَّبٍ يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا »

قال أبو منصور: «سبحان الله! ما أحسن الحشر بقوله حاشاك» وكان يقال لنحو هذا حشو اللوزينج.

«وما كُنْتُ مِمَّنْ أَدْرَكَ الْمُلُوكَ بِالْمَنَى وَلَكِنْ بِأَيَّامٍ يُشْبِهُنَ النِّوَاصِيَا»
ويلج أبو الطيب في طلب الولاية:

«وما زال أهلُ الدَّهْرِ يَشْتَبِهُونِ لِي إِلَيْكَ فَلَمَّا لُحِتَ لِي لَاحَ فَرَدُّهُ
وَأَلْقَى الْقَسَمَ الضَّحَّاكَ أَعْلَمُ أَنَّهُ قَرِيبٌ بَدَى الْكَفَّ الْمَفْدَاةَ عَهْدَهُ
فَانْزِلْتُ مَا أَمَلْتُ مِنْكَ قَرُبًا شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعْجِزُ الطَّيْرَ وَرَدُّهُ» (٣)
وذلك نيل الولاية بالشعر وما ظفر بمثل ذلك شاعر ذو خطر منذ أن وإلى
أبو تمام يريد الموصل.

«وَوَعْدُكَ فَعْلٌ قَبْلَ وَعْدٍ لِأَنَّهُ نَظِيرُ فَعَالٍ الصَّادِقِ الْقَوْلِ وَعَدُهُ»
مسكين أبو الطيب، وهل وعده إلا ابن حنزابة ومن إليه. (٤)

وقد أعجب أبو الطيب بكافور ووجد إعجابا منه به وفيهما له وأنس
عقل — يمازجه استشعار الرضا بما كان يوليه كافور وبلاطه من عناية وإكبار
قدر. وأمن أبو الطيب من خوف وانطلقت نفسه كما لم تنطق من قبل.

«وَجَدْتُ أَنْفَعَ مَا لَ كُنْتُ أَذْخِرُهُ مَا فِي السَّوَابِقِ مِنْ جَرَى وَتَقَرِيبِ» (٥)
لما رأين صُروف الدَّهْرِ تَغْدِرُ بِي وَفَيِّنَ لِي وَوَفَّتْ صُمُّ الْأَنْبِيَا
فَتُنَّ الْمَهَالِكُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهَا مَاذَا لَقِينَا مِنَ الْجُرْدِ الدَّرَاحِبِ
زعم ابن الأثير أن في متن شعر أبي الطيب وهيا وكذب ورب الكعبة... (٦)
«تَهْوَى بِمُسْجَرْدٍ لَيْسَتْ مَذَاهِبُهُ لِلْبُسْرِ ثَوْبٌ وَمَأْكُولٌ وَمَشْرُوبٌ»
وقد وجد الثوب والمأكول والمشروب — مذهب جديد مألوف من قبل أهو
مقبل عليه فآلفه؟

«يَرْمِي النُّجُومَ بَعَيْنَتِي مِنْ يُحَاوِلُهَا كَأَنَّهَا سَلَبٌ فِي عَيْنٍ مَسْلُوبٍ» (٧)
وهذا قوله آتفا:

«إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرْفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النَّجُومِ»

ونظر إلى أبي الطيب أبو العلاء فشرح حيث قال يذكر قصده
أمة وفراق بغداد :

« لولا رجاء لقائها لما تبعت
ولا صحبت ذئب الإنس طأوية تراقب الجدى فى الخضراء مسبوتا »
وقد يشرح الواضح بالغريب أحيانا .

« حتى وصات إلى نفس محجة تلقى النفوس بفضلي غير محبوب
فى جسم أروع صافى العقل تضحكه »

خلاتق الناس إضحاك الأعاجيب

تأمل قوله « صافى العقل » — وأما الناس الذين أضحكه أخلاقهم فقد
كانوا أهل الكياد بحلب :

« فالحمد قبل له والحمد بعد لها وللقنا ولا دلاجى وتأويى »
ولأبى الطيب بالخیل صدق غرام

« وكيف أكفر يا كافور نعمتها وقد بلغنك بى ياخير مطلوب »
— وهذا نفس من روح مصرى —

« يأيمها الملك الغانى بتسمية »

فى الشرق والغرب عن وصف وتلقيب

كأنه يعتذر به عن تسميته آنفا — واستمر يعتذر فأجاد حيث قال :

« أنت الحبيب ولكنى أعوذ به »

من أن أكون محبباً غير محبوب

— وهذا تعريض بحلب وبالولاية كما ترى —

وتوالت عليه نعم كافور سواها :

« إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية فجودك يكسونى وشغللك يسلب »

وذكره الضيعة انصراف عن الولاية كما ترى . وكأنه اقترح اقترحه عليه ابن

حزابة وأضرابه من باشوات كافور

وبصّر تَعَلَّم أَبُو الطَّيِّبُ أَنْ يُلْذَّ الدَّعَةَ وَالْأَمْنَ :

« نَامَت نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَنْ تَعَالِيهَا وَقَدْ بَشِمَنْ وَمَا تَفَنَّى الْعَنَاقِيدُ »

ولم لانتام ان كانت العناقيد لانفنى ؟ !

وزعم بعض الخذاق أنَّ أبا الطَّيِّبِ أَسَرَ الهِجَاءَ فِي مَدْحِهِ لِكَافُورٍ فَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ يَكُونُ هَهُنَا أَسْرُ الْمَدْحِ فِي الْهِجَاءِ الَّذِي هِجَاهُ بِهِ .

« بَدَلَسْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي »

والمطارف والحشايَا نِعَمَ وَأَبُو الطَّيِّبِ بِهِنَّ شَدِيدُ الْإِحْسَاسِ ، كَأَنَّهُ قَدْ كَانَ مَخْدُومًا بِمِصْرَ كَمَا لَمْ يَخْدُمَ بِالشَّامِ .

« إِذَا مَا فَارَقْتَنِي غَسَلْتَنِي كَأَنَّا عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامٍ »

قال أبو منصور : « وَأَيْسَ الْحَرَامِ بِأَخْصَصٍ بِالْإِغْتِسَالِ مِنْهُ مِنَ الْحَلَالِ »
— وَمِنْ يَكُ مِثْلُ أَبِي الطَّيِّبِ فَقَدْ يَرَى ، مِثْلُ أَهْبَارِ النَّصَارَى ، أَنَّ الْأَمْرَ جَمِيعُهُ حَرَامٌ — وَأَنَّ الْحَلَالَ يَجِبُ الْإِقْتِصَادُ فِيهِ كَمَا ذَكَرُوا مِنْ تَعَالِيمِ طُومَا (٨) أَكُوَانِيَّاسِ .

« وَلِلْخَوْدِ مِئْتَى سَاعَةٍ ثُمَّ بَيْنَنَا فَلَاقَ إِلَى غَيْرِ الْمَقَاءِ تُجَابُ »

وقد شرب الكأس وطرب بمصر إلى تهزَّم الشَّجْوِ الْبَعِيدِ — وَلَعَلَّمَا سَمِعَ (٩) سَوَاقِي النَّيْلِ :

« أَصْخَرَةً أَنَا مَالِي لَا تُحَرِّكْنِي هَذِي الْمَدَامُ وَلَا هَذِي الْأَغَارِيدُ »

وقد كان شرب وطرب عند أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ طُغَيْجٍ وَهُوَ يَهْبِيءُ نَفْسَهُ إِلَى مِصْرَ وَالنَّيْلِ فِي الزَّمَانِ الْقَدِيمِ .

« وَوَقْتُ وَفَى بِالْدَّهْرِ لِي عِنْدَ وَاحِدٍ وَقَفَى لِي بِأَهْلِيهِ وَزَادَ كَثِيرًا »

شَرِبْتُ عَلَى اسْتِحْسَانِ ضَوْءِ جَبِينِهِ وَزَهْرٍ تَرَى لِلْمَاءِ فِيهِ خَرِيرًا »

وقد وقف عند عدوة النيل وراعه :

« وَسَمَّنَا بِهَا الْبِيدَاءَ حَتَّى تَغْمَرَتْ مِنَ النَّيْلِ وَاسْتَدْرَكَتْ بِظِلِّ الْمَقْطَمِ »

وقد سجَّلَ هَهُنَا إِحْسَاسَ الْوَارِدِ لِلنَّيْلِ مِنَ الْقَفْرِ . . يَبْلُ قَدَمِيهِ وَيَغْتَرِفُ بِيَدِيهِ

وَيَمْسَحُ وَجْهَهُ وَيَأْوِي إِلَى الظِّلِّ . . . « رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ »
 « وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ السَّوَابِيَا » وهل البحر إلا النيل . (١٠)
 « وَبَحَرُ أَبُو الْمَسْكِ الْهَمَامُ الَّذِي لَهُ عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبابٌ »
 وقد فهم معنى الحياة ومعنى الخلود ومعنى الأهرام — ولكنه ابن الصحراء
 هرب منها ومن الفناء واليه يعود « وكم هارب مما إليه يثول »
 « أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانُ مِنْ بُنْيَانِهِ مَا قَوْمُهُ مَا يَوْمُهُ مَا الْمَصْرَعُ
 تَتَخَلَّفُ الْآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا حِينًا وَيُدْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَتَّبَعُ »
 وبمصر أفاد رقة ورآها :

« فَرَبَّمَا جَزَتْ الْإِحْسَانَ مُوَلِّيَّهِ خَرِيدَةً مِنْ عَدَارِي الْحَيِّ مِكْسَالُ »
 وقد أحسنت إليه وأحسن إليه فيها الزمان :

« صَحَبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا
 وَتَوَلَّوْا بِغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضُهُمْ أَحْيَانَا »
 « كَلِيلُ تَوَسَّدْنَا الثَّوِيَّةَ » . . . (١١)

« رَبَّمَا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لِيَالِيَهُ وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الْإِحْسَانَا »
 وهذا بمصر — وأوشك أن يرضى أبو الطيّب بها الاستقرار . فقد صار بعد
 طلب الضيعة الى الطلب غير المبين بشيء :

« فَارْمِ بَنِي مَا أَرَدْتَ مِنِّي فَإِنِّي أَسَدُ الْقُلُوبِ آدَمَى الرُّوَاءِ
 وَفُؤَادِي مِنَ الْمَمْلُوكِ وَإِنْ كَانِ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ »
 هذا بعد أن أمره كافور من حيث هو شاعر أن يصف دارا بناها —
 ويكون الناصحون قد قالوا له — دع ذكر الضيعة الآن وأظهر اخلاصك
 للأمر فهو يجيبك بلا ريب . . . قل له أنت ذو كفايات . . . لاشاعر فقط . .
 وإن من الشعر لحكما ولكن الشعراء يقولون مالا يفعلون . (١٢)

« يَا رَجَاءَ الْعُيُونِ فِي كُلِّ أَرْضٍ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ أَنْ أَرَاكَ رَجَائِي
 وَلَقَدْ أَفْنَتَ الْمَفَاوِزُ خَلِيلِي قَبْلَ أَنْ نَلْتَقَى وَزَادِي وَمَائِي »

«لَيْتَ الحَوَادِثَ بَاعَتْنِي الَّذِي أَخَذْتَ

مِنْنِي بِحِلْمِي الَّذِي أَعْطْتَ وَتَجْرِبِي»

«كَأَنَّ كُلَّ سَوْأَلٍ فِي مَسَامِعِهِ قَمِيصُ يُوسُفَ فِي أَجْفَانِ يَعْقُوبَ»
وقد خرج أبو الطيّب من مصر وهو يعلم أنّه ملاق الموت، والموت أفظع
منظرا من الذل :

«وَمُرَادُ النَّفْسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ نَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ نَتَفَانِي
غَيْرَ أَنْ الْفَتَى يُلَاقِي الْمَنَاسِبَ كَالْحَاتٍ وَلَا يُلَاقِي الْهَوَانَ»
وقد صار من التصريح بالطلب المبهم إلى التلميح :
«وفي النفس حاجاتٌ وفيك فطانة»

ومن قبلُ إلى الفكاهة الممزوجة بالحزنِ

«وقد وصلَ المهرُ الذي فوقَ فخذِهِ

من اسمِكَ مَا فِي كُلِّ جِدٍّ وَمَعْصَمٍ
لَكَ الْحَيَوَانُ الرَّأكِبُ الْخَيْلَ كُلُّهُ

وإن كَانَ بِالنَّيِّرَانِ غَيْرَ مُوسِمٍ
وَلَوْ كُنْتُ أَدْرَى كَمْ حَيَاتِي قَسَمَتُهَا

وَصَيَّرَتْ ثُلُثِيَّهَا انْتِظَارَكَ فَاعْلَمْ
وَلَكِنْ مَا يَمْضِي مِنَ الْعُمُرِ فَائَتْ

فَجُدْ لِي بِحِطِّ الْبَادِرِ الْمُتَغَنَّمِ
وَمِثْلِكَ مَنْ كَانَ الْوَسِيطَ فَوَادُهُ

فَكَلِّمَهُ عَنِّي وَلَمْ أَتَكَلَّمْ

وبعيد ما بين هذا والتحدى الذي كان منه بحلب :

«أَسِيرُ إِلَى إِقْطَاعِهِ فِي ثِيَابِهِ	عَلَى طَرَفِهِ مِنْ دَارِهِ بِحُسَامِهِ
وَمَا مَطَرُ تَنِيهِ مِنَ الْبَيْضِ وَالْقَنَا	وَرُومُ الْعَبِيدِ هَاطَلَاتُ غَمَامِهِ
فَتَى يَهَبُ الْأَقْلِيمَ بِالْمَالِ وَالْقُرَى	وَمِنْ فِيهِ مِنْ فُرْسَانِهِ وَكِرَامِهِ

وَيَجْعَلْ مَاخُولْتُهُ مِنْ نَوَالِهِ جَزَاءً لِمَا خُولْتُهُ مِنْ كَلَامِهِ »
 وقد كانت فى بلاط حلب بقايا بدواة يفهمها ويقوى على مِرَاسِهَا
 ولكن أسلوب الحضارة المُوغَلِ فيها كان له امتحاناً عظيماً . وقد زعم البديعى
 أن من إساءته — كان — ذكره لون كافور . وما كان ليذكره لو لم يسأل أو
 أشير عليه به .

وقد أحسن حيث قال فى دار كافور حيث يشرف هو منها :
 « تَفْضَحُ الشَّمْسُ كُلَّمَا ذَرَّتْ الشَّمْسُ سُوسَ بِشَمْسٍ مِنِيرَةٍ سَوْدَاءِ »
 — ومن عجب التوافق بين الشعراء نعت شكسبير لشرفة جوليت فهو قريب (١٣)
 من هذا —

« إِنَّ فِى ثَوْبِكَ الَّذِى أَلْمَجْدُ فِيهِ لَضِيَاءٌ يُزْرِى بِكُلِّ ضِيَاءٍ
 أَمَّا الْجِلْدُ مَكْبَسٌ وَابْيَضَاضُ النَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ ابْيَضَاضِ الْقَبَاءِ »
 وأعسر مركبا من أمر اللون ما عمد إليه أبو الطيب من تهوين أمر الجنس ،
 وكان له من أسلوب العبادة وسُمُوتِ التقوى ما أسعفه فى جرائته على
 ذلك ، كقوله :

« أَمَّا يَفْخُرُ الْكَرِيمُ أَبُو الْمَسْكِ بِمَا يَبْتَغِي مِنَ الْعَلِيَاءِ
 لَا بِمَا يَبْتَغِي الْخَوَاصِرُ فِى الرَّيْفِ وَمَا يَطْبِئِ قُلُوبَ النِّسَاءِ »
 ولا يخلو هذا الكلام من التعريض ببعض « الباشوات » . . . إلا أنه
 خفى المدخل جداً . . . مبارزة بشفار رقيقة بين ذكاء البدوى ونفاسة من
 يكون قد جعل بنفسه عليه مكانه عند الأسود .

ومما يؤكد ما نرى من دفع ما ذكره البديعى ، أن الثعالبي لم يذكر شيئا
 من أمر الإشارة إلى لون كافور فيما عدد من باب إساءة الأدب بالأدب
 بل عدَّ ذلك من محاسنه حيث يقول : « وكقوله :

« فَجَاءَتْ بَنَاتُ إِنْسَانٍ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بِيَاضاً خَلْفَهَا وَمَاقِبَا

وهذا أحسن ما يمدح به ملك أسود ولانهاية لحسنه وشرف معناه وجوده
تشبيهه وتمثيله « . ا . ه .

وأخطأ الذين منّوا أبا الطيّب باسم كافور إذ لم يقدروا أنه بحكم تفوقه
كان ينبغي ألاّ يساس بما يساس به سائر أصحاب المطالب والطموح . وأنه
وإن يطمئن به مقام الدعة ، وتعرض نفسه عن طلب الولاية ، ما كان ذلك
لنفسه ما وعدوه وما منّوه أول الأمر بحال ، وأن هذا تارك في نفسه من
من المارة حزراً ، وأنه متى علم أن كافورا لم يكن مصدر الوعد كان
استفظاعه ما خدع به أشد ، ومن هنا يبدأ الكيد له وعليه ، وكان امرأ صلب
العود صعب المراس — هذا الذي أنطقه بسياسة الملك والنفس بعد مصري
حضاري :

« صار ما أوضع المحبون فيه
وكلام الوشاة ليس على الأح
ولا كذلك ما بين أبي الطيّب وكافور

« إنما تَنْجِجُ المقالة في المر
ولعمري لقد هزرت بما قيل
وأشارت بما أبیت رجال

كابن حنّابة وأصحابه الدبلوماسيين

« قد يُصِيبُ الفتى المشير ولم يج
هدّ ويشوي الصواب بعد اجتهد

هل أشار أبو الطيّب على كافور في هذا الأمر ؟ لقد ارتقى مركبا
صعبا ؟ ولا يكون الفتى المشير إلاّ ضربا من الكناية عن نفسه وإلاّ كان تعريضا
بمن استشار كافور وخالف وقد تعلّم أبو الطيّب بمصر أن يخفي التعريض أو (١٤)
لا يلّم به على أية حال ، والله تعالى أعلم .

وكان الذين تمرس بهم في مصر دهاة أهل أغوار . وكان ابن حنّابة

يخسده على الأرجح ، من شواهد ذلك مانقل الثعالبي عن ابن جني قال
بمعرض الحديث عن البيت :

« أزورهم وسوادُ الليل يشفعُ لي وأثنى وبياضُ الصبح يغري بي »
« حدثني المتنبي وقت القراءة عليه قال لي ابن حنزابة وزير كافور ،
أحضرت كتبي كلها وجماعة من الأدباء يطلبون لي من أين أخذت هذا
المعنى ، فلم يظفروا بذلك . وكان أكثر من رأيت كتبها . »

وهذا من ابن حنزابة ملق عتيق ، ودعواه تكليف جماعة من الأدباء
هو المشعر بالحسد - وعلم أبي الطيب ذلك منه هو الذي قوى عنده قبول
خبره كما ترى .

أما مانقل من أن أبا الطيب مأتى بمصر إلا من جهة تركه مديح ابن
حنزابة فليس بشيء اذ ما كان ليمدحه من غير وساطة كافور .

قال ابن خلكان ، وذكر الوزير المغربي في كتابه أدب الخواص ،
الوزير أبا الفضل جعفر المذکور : « وأجاريه شعر المتنبي فيظهر من
تفضيله زيادة تنبيه على ما في نفسه الخ » فهذا يقوى ما قدمنا .

وقد أنس أبو الطيب إلى فاتك المجنون بالفيوم كأنسه من قبل إلى أبي
العشائر - ولتنسم نفس البادية عنده .

« تُغير منه على الغارات هيبتُه ومن له بأقاصي البر أهمال
له من الوحش ما اختارت أسنته عيرٌ وهيئٌ وخنساء وذيال » (١٥)
وكان أهل حلب اتصلوا بابن حنزابة ومن حول كافور وابتدأت حرب
السياسة والوشاية - إبطان الهجاء في المديح - ذكر اللون - التعريض بأن
الأستاذ خصى - كل هذا يهمس به كيدا ويبلغ كافورا . وروى ابن خلكان
أن كافورا وعد أبا الطيب ولاية بعض أعماله « فلمَّا رأى تعاليه في شعره
وسُموه في نفسه ، خافه وعوتب فيه فقال ، يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد
صلى الله عليه وسلم أما يدعى المملكة مع كافور ، حسبكم . » وما وعد

كافور ولكن نسب ذلك إليه يدلّك قول أبي الطيّب :
 « وَوَعْدُكَ فِعْلٌ قَبْلَ وَعْدٍ لِأَنَّهُ نَظِيرُ فَعَالٍ الصَّادِقِ الْقَوْلِ وَعَدَهُ
 فَكُنْ فِي اصْطِنَاعِي مُحْسِنًا كَمُجَرَّبٍ
 يَبِينُ لَكَ تَقَرُّيبَ الْجَوَادِ وَشَدُّهُ »

فهذا كآثره يسأله وعدا فإذا كان الوعد كان الفعل، وكان ذلك إحسانا وتجربة،
 ويذكره أيضا مانسب إليه من وعد إذ لا يمكن أن ينسب إليه عند أبي الطيّب،
 وليس هو حقا مصدره — وعلى هذا التأويل ظاهر لفظ البيت .

وما عاتب كافورا من أحد . ولكنها أقاويلٌ وحربُ أعصاب . ويبلغ
 ذلك أبا الطيّب وكافورا قال البديعيُّ : « وسأل أبو الطيّب كافورا أن يوليه
 صيداء من بلاد الشام أو غيرها من بلاد الصعيد » — تأمل شاهد التزويق
 والتأليف — « فقال له كافور انت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين
 سمحت نفسك إلى النبوة » — هذا قيل لكافور « فان اصبحت ولاية وصار
 لك اتباع فمن يطيقك ؟ ! »

وما كان في شعر أبي الطيّب لكافور من تعالٍ يوحشه منه، ولكن كان
 مدحا خالصا مجوّدا .

« وما كُلُّ هَؤُلَاءِ جَمِيلٌ بِفَاعِلٍ وَلَا كُلُّ فَعَالٍ لَهُ بِمَتَمٍّ
 فَدَى لِأَبِي الْمَسْكِ الْكَرَامِ فَإِنَّمَا سَوَابِقُ خَيْلٍ يَهْتَدِينَ بِأَدْهَمِ
 أَغَرٍّ بِمَجْدٍ فَدِ شَخْصَنٍ وَرَاءَهُ إِلَى خُلُقٍ رَحْبٍ وَخُلُقٍ مُطَهَّمِ
 إِذَا مَنَعَتْ مِنْكَ السِّيَاسَةُ نَفْسَهَا فَقِفْ وَقِفَةً قُدَّامَهُ تَتَعَلَّمِ
 يَضِيقُ عَلَى مَنْ رَآهُ الْعُدْرُ أَنْ يُرَى

ضَعِيفَ الْمَسَاعِي أَوْ قَلِيلَ التَّكْرَمِ »

وروي عن أبي الفتح أنه يجعل هذا داخلا في الهجاء على معنى أن مثله
 في الخسة إذا ساد فلا عذر لأحد ألاّ يسود . ولعلّ هذا من تبريرات أبي
 الطيّب من بعده لما خبثت نفسه على كافور . والقول ما قال ابن القطاع :

« الهجاء هو أن يقول إنَّ كافورا قد ضيَّقَ علىَّ ، ولا نفع لي منه ، ولا جاء لي عنده ، وإنَّه ينتفع بخدمتي ، ولو أنَّه قال هذا لشخص لخاف أن يتصل بكافور فيكون فيه هلاكه . » — وكذلك فعل من بعد .

وقد وقف أبو الطيّب أمام كافور وقفة ، وعمل الآخرون له في الخفاء . فالتعالى الذي ذكر ابن خلكان إنَّما كان ماصنف من وقعة فيه بناء على شعره القديم .

قال أبو منصور : « وما زال في برد صباه إلى أن أخلق برد شبابه وتتضاعفت عقود عمره يدور حُبُّ الرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضمّر من كامن وسواسه في الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الأطراف ويستكثر من التصريح بذلك مثل قوله :

«لقد تصبَّرتُ حتى لات مصطبرٍ فالآن أقحم حتى لات مقتحمٍ
لأتركنَّ وجوه الخيل ساهمةً والحربُ أقومُ من ساقٍ على قدمٍ
والطعنُ يُحرِّقُها والزجرُ يُقلِّقُها حتى كأن بها ضرباً من اللَّحمِ
قد كللتها العوالي فهني كالحة كأنما الصَّابُ مذرورٌ على اللجمِ
بكل مُنصَلتٍ ما زال مُنتظري حتى أدلَّتْ له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلواتِ الخمس نافلةً

ويستحيلُ دم الحُجَّاجِ في الحرَمِ»

وقوله :

« سأطلبُ حقِّي يانقنا ومشايخٍ كأنَّهمُ من طول ما التَّموا مُردُ
ثِقَالٍ إذا لاقوا خِفَافُ إذا دُعُوا كثيرٍ إذا شدُّوا قَلِيلٍ إذا عُدُّوا
وطعنُ كأنَّ الطَّعنَ لا طعنَ عنده وضربُ كأنَّ النَّارَ من حرِّه بردُ
إذا شئتُ خَفَّتْ بي على كُلِّ سابعٍ

رجالُ كأنَّ الموتَ في فَمِها شَهْدُ»

وقوله :

«وَلَا تَحْسِبَنَّ الْمَجْدَ زَقَاً وَقَيْنَةً» فما المجد إلاَّ السَّيْفُ والفتكة البكر
وتَضْرِيبُ أَعْنَاقِ الْمُلُوكِ وَأَنْ تُرَى لك الْحَبَوَاتُ السُّود والعسكر المعجر
وتركك في الدنيا دويّاً كأنما تَدَاوِلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَمَلُهُ الْعَشْرُ»
وقوله :

«وَأَنْ عَمَّسَتْ جَعَلَتْ الْحَرْبَ وَالِدَةً» وَالسَّهْمَ رِيّاً أَخَا وَالْمَشْرِفَى أَبَا
بِكُلِّ شَعَثٍ يَكَلِّفِي الْمَوْتَ مُبْتَسِماً حَتَّى كَأَنَّ لَهُ فِي قَتْلِهِ أَرْبَاباً
قَحْ يَكْنَادُ صَهِيلُ الْخَيْلِ يَقْدَفُهُ مِنْ سَرْجِهِ مَرَحاً بِالْغَزْوِ أَوْ طَرِبَا
الْمَوْتَ أَعْدَرُ لِي وَالصَّبْرُ أَجْمَلُ بِي وَالْبِرُّ أَوْسَعُ وَالْدُنْيَا لِمَنْ غَلَبَهَا»

وكان كثيراً ما يتجشم أسفاراً بعيدة أبعد من آماله الخ . . . « فمثل » دولة
الخدم « و » سأطلب حقي « و تضريب أعناق الملوك « و ترك الدوى « مما
يفسد إنشاده صفاء المجلس عند مثل كافور متى ما أريد به حاق الكيد . وما (١٦)
كان أبو الطيّب ، إذا زير في مجلسه للدرس إلاَّ آمناً ينشد أصناف هذا ويستملاه
فيملّيه وما يعلم أن السم في الدسم . وربما كان يترجم لنفسه . فيتصل أمثال
ابن حنزابة بأمثال ابن خالوية فيجدون من سالف أمره بالشام أخباراً وأساطير
كدعواة النبوة . . .

ولعله ماسى المتنبى إلاَّ بقوله :

« مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةٍ إِلَّا كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارِكُهَا اللَّهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ »

كما لقب المتنبي بقوله « وَثَقَّبَنِ الْوَصَاوِصَ لِلْعُيُونِ »
ويدلُّ على اتصال الأسباب أو نوع من اتصال الأسباب بين أعداء أبسى
الطيّب بحلب وأعدائه بمصر ما أشيع من موته في مجلس سيف الدولة وبلوغ
ذلك إيّاه فقال :

« يا من نُعِيْتُ عَلَى بُعْدٍ بِمَجْلِسِهِ كُلِّ بَما زَعَمَ النَّاعُونَ مُرْتَهَنُ
 كم قَدْ قُتِلَتْ وَكم قَدْ مِتُّ عِنْدَكُمْ ثُمَّ انْتَفَضَتْ فزال القبر والكفن »

تأمل قوله « قتل » . قال البديعي : « ثم وقعت الوحشة بينهما » يعنى
 بينه وبين كافور « ووضع عليه العيون والأرصاد خوفا من أن يهرب ،
 وأحس المتنبي الشر ، قال الوحيدى كنت بمصر وبها أبو الطيب ووقفت من
 أمره على شفا الهلاك ، ودعتنى نفسى لحب أهل الأدب إلى أن أحثه على
 الخروج من مصر فخشيت على نفسى أن يشيع ذلك عنى وكان هو مستعداً
 للهروب وإنما فات أظافير الموت ومخالب المنية من قرب وهو جنى ذلك على
 نفسه لأنه ترك مدح ابن حترابة وهو وزير كافور والمقرب منه وهو مع
 ذلك من بيت شريف أهل وزارة ورياسة الخ » . . . وإذ كان أبو الطيب
 مستعداً يراقب الشر فما معنى استحثاث الوحيدى له ؟

وأمثال الوحيدى هذا كانوا — على الأرجح — هم السعاة فيما بين
 مصر وحلب ولعلّ أبا الطيب لم ينعه أحد بحلب وإنما قيل ذلك اختباراً له ،
 وإرجافاً به على وجه الإرهاص بما كان يتوقع أعداؤه من خاتمة أمره وانفعل
 أبو الطيب :

« رَأَيْتُكُمْ لَا يَصُونُ الْعَرِضَ جَارُكُمْ وَلَا يَدِرُّ عَلَى مَرَعَاكُمْ اللَّيْنُ
 جزاء كل قريب منكم مكلّ وحظ كل محب منكم ضغن
 وتغضبون على من نال رِفْدَكُمْ حتى يُعَاقِبَهُ التَّنْغِصُ وَالْمِنْنُ
 فغادر الهجر ما بينى وبينكم يهماء تكذب فيها العين والأذن
 تحبوا الرّواسم من بعد الرّسيم بها وتسأل الأرض عن أخفاها الثفن
 إني أصاحب حلمى وهى بى كرم ولا أصاحب حلمى وهى بى جبن »

وهذا يقوله فى نفسه لأهل مصر فى بلاط كافور

ولا أقيم على مال أذلّ به ولا ألدّ بما عرّضى به دَرِنْ
 وهذا كقوله « إذا نلت منك الودّ فالمال هين »

«سَهَرْتُ بَعْدَ رَحِيلٍ وَحَشَّةً لَكُمْ ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وَارْعَوِي الْوَسْنَ»
 قال أبو منصور «ولما سمع سيف الدولة البيت الذي يتلوه وهو قوله :
 «وإن بليت بُودٌ مثل ودكم فإنني بفراقٍ مثله قسيمُن»
 قال سار وحق أبي .

ولعلَّ أبا الطيب لم ينشد هذه القصيدة كافورا وإن كان بعد هذا يقول :
 «أبلى الأجلَةَ مَهْرِي عند غيركم وبُدِّلَ العُدْرُ بالفسطاط والرَّسن»
 «عند الحمام أبي المسك الذي غرقت في جوده مُضَرُّ الحمرَاء واليمن
 وإن تأخر عني بعض موعيده فما تأخرُ آمالي ولا تهينُ
 «هو الوفي ولكني ذكرتُ له مودةً فهو يبخلوها ويمتحنُ»
 ولكن كافورا كان يقدم السياسة على مودات الرجال . واصطناع خاصة
 رجاله ، واستبقاء طاعتهم ، وموادعة سعاة حلب ، كان ذلك أولى بالعبادة
 من أطعام أبي الطيب . وإنما كان شاعرا .

وقلق أبو الطيب إلى مال له بالرملة ، كما كان قلق من قبل إلى القيوم
 واستأذن كافورا فقال له : «نحن نبعث في خلاصه ونكفيك» ويلينه ويطيابه
 ودبَّ الشك إلى نفس «أوطيلو» الأبيض . . وأنشأ يقول :

«أَتَحْلِفُ لَا تُكَلِّفُنِي مَسِيرًا إِلَى بَلَدٍ أُحَاوِلُ فِيهِ مَالًا
 وَأَنْتَ مُكَلِّفُنِي أَنْبَى مَكَانًا وَأَبْعَدَ شُقَّةً أَشَدَّ حَالًا
 إِذَا سِرْنَا عَلَى الْفُسْطَاطِ يَوْمًا فَلَتَقِنِي الْفَوَارِسَ وَالرَّجَالَ
 لِيَتَعَلَّمَنَّ قَدْرَ مَنْ فَارَقَتْ مِثْلِي وَأَنْتَ رُمْتَ مِنْ ضَيْمِي مَحَالًا»
 ولعلَّه أنشدها من كان يثق به فبلغت ، مع أمثال :

«سأطلب حقى بالقنا ومشايخ»

«وكلُّ ما قد خلق الله وما لم يخلق

مُحْتَقِرٌ فِي هِمَّتِي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي»

ومن ثمَّ بدأت قصة الحبس وأكل الأزواد. كلما استأذن أبو الطيب حلف (١٧) عليه كافور ، بين ملاينة واختبار ومطل . وهو بعد موظف عليه عمل الشعر .

« إِنَّمَا التَّهْنِئَاتُ لِلْأَكْفَاءِ »

« عَدُوُّكَ مَدْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ »

وله جار (١) ، هو عند أبي الطيب جائزة ينطلق بعدها إن شاء أنى شاء ، أو يُعْطَى الْوَلَايَةَ ، أمّا أن يُصَارَ بِهِ إِلَى أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الْجَائِزَةِ ، فذلك أكل زاده ، سيّان ذلك فى الدينار الذى أخذ من الحاجب والستمائة التى أفاد من كافور . وأنشأ يقول :

« لَوْ كَانَ ذَا الْآكَلِ أَزْوَادَنَا ضَيْفًا لَأَوْسَعَنَاهُ إِحْسَانًا

لَكِنَّا فِي الْعَيْنِ أَضْيَافُهُ يُوسِعِنَا زُورًا وَهَيْثَانَا

فَلَيْتَهُ خَلَّى لَنَا سُبُلَنَا أَعَانَهُ اللَّهُ وَإِيَّانَا »

ولعله أنشدها من كان يثق به ، فبلغت ابن حنّابة أو بلغت كافورا . . .
وقع من الوحشة بعد ما لا يصلح ، وأنشأ أبو الطيب يقول :

« صَحِبَ النَّاسَ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانِ وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا »

وشكا فيها الدهر ولم ينشدها كافورا ، وحثَّ نفسه على الرحيل ، وإن كان مُرَادُهُ الْبَقَاءُ مَعَ الدَّعَةِ فِي رَيْفِ مِصْرَ لَا التَّعَرُّضَ لِلْمَهَالِكِ الَّتِي كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهَا مُنْتَظَرَتُهُ خَارِجَهَا .

« وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدًى فَمَنْ الْعَجْزُ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا

كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَنْفَسِ سَهْلٌ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا »

(١) الجارى هو الراتب الجارى كالمهايات الآن مثلاً

وَبُسَّتْ حَوْلَهُ الْعْيُونُ وَالْأَرْصَادُ كَمَا قِيلَ ، وَالرَّاجِحُ أَنْ كَافُورًا لَمْ يَكُنْ يَبَالِي
 الْإِظْفَرُ بِهِ مَتَى أَفْلَتْ ، أَوْ تَعَمَّدَ أَلَا يَفْعَلُ ، إِذْ بَقَاءَهُ لِيَمْدَحَ حَتَّى كَانَ يَرِيدُ ،
 لِبَقَاءِهِ لِيَهْجُوهُ .. قَالُوا وَجَّهَ «رَوَاحِلُ خَلْفَهُ إِلَى جِهَاتٍ شَتَّى فَلَمْ يَلْحَقْ» —
 وَذَلِكَ آيَةٌ أَنَّهُ لَمْ يَبَالِ مَجْرَدُ حِفَافٍ عَلَى مَظْهَرِ هَيْبَةِ الدَّوْلَةِ . وَقَدْ خَابَ
 ظَنُّهُ فِي كَافُورٍ كَمَا خَابَ ظَنُّهُ فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ مِنْ قَبْلِ .

كَانَ يَرْجُو مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ أَمِيرَ الْعَرَبِ الذِّي تَصْلَحُ عَلَيْهِ ، وَقَدْ وَجَدَ
 فِيهِ مِنْ ذَلِكَ مَخَايِلَ قُوَّةٍ عِنْدَهُ ذَلِكَ الرَّجَاءُ . وَلَكِنْ سَيْفُ الدَّوْلَةِ مَا كَانَ إِلَّا مَنْ
 أَمْرَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي عَصْرِ الطَّوَائِفِ ، وَعَلَى رَأْسِ أَسْرَةٍ أُخِذَتْ فِي
 الْإِنْخِلَالِ . مِثْلًا أَمْرَ نَاصِرِ الدَّوْلَةِ أَخُوهُ بِقَتْلِ عَمِّهِ سَعِيدٍ ، وَالِدِ أَبِي فِرَاسٍ
 فَعَصَرَتْ مَذَاكِيرَهُ حَتَّى مَاتَ . وَقَلَعَتْ سَخِينَةً أُمَّ أَبِي فِرَاسٍ — عَيْنُهَا لَمَّا (١٨)
 بَلَغَهَا أَنَّهُ قَتَلَ وَرُمِيَتْ جَثَّتْهُ لِلْكَلَابِ !
 (١٩)

« وَلَا فِي مَنْ جَنَازَتُهَا تَجَارٌ يَكُونُ وَدَاعُهَا تَفْضُصُ النَّعَالَ »

وَكَانَ أَبُو الطَّيِّبِ عَارِمًا فِي ، مَزَاجِهِ قَرْمُطِيَّةٌ (يَسْتَحِلُّ دَمَ الْحُجَّاجِ فِي
 فِي الْحَرَمِ)
 (٢٠)

« كَالَّذِي قَامَ بِجَمْعِ الزَّنْجِ بِالْبَصْرِ مَرَّةً وَالْقَرْمُطِيِّ بِالْأَحْشَاءِ » (٢١)
 قِيلَ وَاتَّبَعَتْ نُبُوته بَادِيَةَ كَلْبٍ . وَمَا كَانَ لِيُخْلُوَ مِنْ أَخْلَاطٍ مِنْ مَنْ
 تَبِعُوهُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ سُودَانٌ ، عَلَى آيَةِ حَالٍ (فِي خَبَرِ أَبِي سَعِيدِ الْجَنْدَبِيِّ
 صَاحِبِ الْقَرَامِطَةِ — ٢٨٦ هـ — وَانْضَمَّ إِلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنْ بَقَايَا الزَّنْجِ وَاللُّصُوصِ)
 وَمَا يُخْلُو — مَعَ الْفَهْمِ — مَنْ أَنْ يَكُونَ تَوَدَّدَ إِلَى كَافُورٍ بِفَضْلَةٍ مَا كَانَ يَتَوَدَّدُ بِهِ
 إِلَيْهِمْ وَإِنْ يَكُونُ رَأْيُ فِيهِ « ابْنُ شَعْبٍ » مِمَّنْ جَمَعَ صَاحِبُ الزَّنْجِ بِالْبَصْرَةِ
 يَرْبُطُهُ وَإِيَّاهُ أَنَّهُ هُوَ أَيْضًا ابْنُ الشَّعْبِ الثَّائِرُ :

« وَجَنَّبَنِي قُرْبَ السُّلَاطِينِ مَقْتَتَهَا وَمَا يَقْتَضِينِي مِنْ جَمَاجِمِهَا النَّسْرُ »
 « أَرَانِيبُ غَيْرِ أَنَّهُمْ مُلُوكٌ مُفْتَتِحَةٌ عِيُونُهُمْ نِيسَامُ »
 وَلَكِنْ كَافُورًا مَا كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ فِي شَيْءٍ . وَأَغْلَبَ الرَّأْيُ أَنَّهُ

اِخْتُطِفَ صَغِيرًا بَعْضَ الْجِبَالِ فِيمَا بَيْنَ النِّيلَيْنِ وَعُلِيَا زِغَاوَةٍ ثُمَّ خُصِيَ فِي قَرْيَ طَرِيقِ الْقَوَافِلِ ، لِيَكُونَ فِي بَيْتٍ مُوسِرٍ أَوْ قَصْرِ مَنِيفٍ .

حَكَى عَنِ الْمُتَنَبِّى أَنَّهُ قَالَ : « كُنْتُ إِذَا دَخَلْتُ عَلَى كَافُورٍ أَنْشُدُهُ يَضْحَكُ إِلَى وَيِشْ فِي وَجْهِهِ إِلَى أَنْ أَنْشُدْتَهُ

وَلَمَّا صَارَ وَدُّ النَّاسِ خَيْبًا جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامِ ابْتِسَامٍ
« وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لَعَلَّمَنِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ »
قَالَ ، فَمَا ضَحِكُ بَعْدَهَا فِي وَجْهِهِ إِلَى أَنْ تَفَرَّقْنَا ، فَعَجِبْتُ مِنْ فُطْنَتِهِ وَذِكَايِهِ . . . وَقَدْ كَانَ النَّاسُ يَتَحَامَوْنَ اللَّحْنَ فِي مَجْلِسِهِ . وَمِنْ سَخَرِيَةِ الْأَقْدَارِ بِأَبِي الطَّيِّبِ أَنَّ مَقَالَهَ فِي الْمُلُوكِ انْعَكَسَ عَلَيْهِ ، فَادْعَى حُبَّهُمْ ، وَلاَزَمَهُمْ ، وَاطْعَمُوا النِّسْرَ مِنْ جَمْعِمَتِهِ .

وَالْتَفَتَ يَنْظُرُ بَعِينَ الْغِيْظِ إِلَى ابْنِ حَنْزَابَةٍ وَأَضْرَابِهِ مِنْ طَبَقَةِ الْبَلَاطِ الْحَاكِمَةِ آنَئذٍ :

« أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ يَا أُمَّةً ضَحِكْتَ مِنْ جَهْلِهَا الْأُمَمِ »
وَلِإِلَى حَضْرَةِ كَافُورٍ وَهُوَ فِي الثِّيَابِ الْبَيْضِ ، أَسْوَدَ شَدِيدَ السَّوَادِ بَصَاصًا (٢٢)
« كَأَنَّ الْأَسْوَدَ اللَّابِئِيَّ فِيهِمْ غَرَابٌ حَوْلَهُ رَحْمٌ وَبُومٌ »
وَكُلُّهُمْ عِبْدَتِي وَبِهَائِمٌ ، مَوَالِيَهُمْ وَصَمِيمُهُمْ . .

« وَبَلَمَهَا خُطْبَةً وَيَلِمَّ قَابِلُهَا لَمْلُهَا خُلُقَ الْمَهْرِيَّةِ الْقَوْدُ
وَعِنْدَهَا لَذَّةُ طَعْمِ الْمَوْتِ شَارِبُهُ إِنْ الْمَنِيَّةُ عِنْدَ الذُّلِّ قِنْدِيدٌ »
وَشَتَّانَ نَجَاءِ الْجَرْدِ السَّرَاحِبِ ، عَشِيَّةَ شَرْقَى الْخَدَالَى وَغَرْبُ
« عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِي مِنْ جَفَوْتِهِ وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّتِي أُنْجَبُ »
مِنْ نَجَاءِ الْمَهْرِيَّةِ الْقَوْدِ — الَّذِي إِنَّمَا كَانَ نَجَاءً إِلَى الْمَنِيَّةِ .

وَهَلْ كَانَ كَافُورٌ مَثْقُوبُ الْمَشْفَرِ كَبَعْضِ مَا تَصْنَعُ الْقَبَائِلُ فِي أَعَالَى السُّودَانِ ؟
« وَأَنَّ ذَا الْأَسْوَدِ الْمَثْقُوبِ مَشْفَرُهُ تُطْعِمُهُ ذِي الْعَضَارِيطِ الرَّعَادِيدِ »
لَعَلَّهُ كَانَ مَثْقُوبَ الْأُذُنِ مِنْهُدِلِ الْمَشْفَرِ فَجَمَعَ أَبُو الطَّيِّبِ بَيْنَهَا وَذَلِكَ قَوْلُهُ :

«أَمْ أَدْنَاهُ فِي يَدِ النَّحَّاسِ دَامِيَّةٌ أَمْ قَدَرُهُ وَهُوَ بِالْفِلَسِّينِ مَرْدُودٌ ۚ»
وحقق ابن خلدان أن الإخشيد اشتراه بثمانية عشر دينارا . وما ذلك بئمن
زهيد .

والَّذِي غَاظَ أَبَا الطَّيِّبِ أَنَّ هَذَا الْعَبْدَ اسْتَهَانَ بِقَدَرِهِ هُوَ الْحَرُّ . فَأَثَرُ عَلَيْهِ الْعَبِيدُ
أَمْثَالُ ابْنِ حَنْزَابَةَ

«بِهَا نَبَطْتُ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ يُدْرَسُ أَنْسَابَ أَهْلِ الْفَلَاحِ»
وعاد أبو الطيب إلى ما كان أحسن ما علم فقال ، فمسخة ، ليكون أسوأ
ما يعلم فيقول :

«الْعَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الْحُرِّ مَوْئُودٍ
لَا تَشْتَرِي الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ»
وكما أعمل ذكاءه يدفعه الطمع والرجاء في مدح الشمس المنيرة السوداء (كان
أسود بصاصا) ، أعمله في ذم التجارب التي اخترنها عقله الباطن أيام الرق
فجعلته يصنع بأبي الطيب من الامتهان والاستصغار ما صنع .
قال يودع عضد الدولة :

«فَدَى لَكَ مِنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَ فَلَا مَلِكُ إِذَنْ إِلَّا فِدَاكَ
وَلَوْ قُلْنَا فَدَى لَكَ مِنْ يُسَاوِي دَعَوَنَا بِالْبَقَاءِ لَمَنْ قَلَاكَ
وَأَمْنًا فِدَاكَ كُلَّ نَفْسٍ وَلَوْ كَانَتْ لِمَلِكَةٍ مَلَاكَ
وَمَنْ يَظُنُّ نَشْرَ الْحَبِّ جُودًا وَيَنْصِبُ تَحْتَهُ مَا نَشْرَ الشَّبَاكَ»
كَأَن يُمَنِّحَ جَائِزَةً ثُمَّ يَحْبِسُ مِنْ بَعْدِ لِيَخْدُمَ وَيَمْدَحَ

«وَمَنْ بَلَغَ التَّرَابَ بِهِ كَرَاهٍ وَإِنْ بَلَغَتْ بِهِ الْحَالُ السُّكَاكَ»
هذا كافور — والسُّكَاكَ بضم السين هو الجو والهواء — وكانت حاله الظاهرة
كانها في السماء إلا أن حاله الباطنة التي كان يريه إيّاها عقله الباطن في منامه
كانت في الحضيض .

«وإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَلْوَنُكَ أَسْوَدٌ مِنْ الْجَهْلِ أَمْ قَدْ صَارَ أَبْيَضَ صَافِيَا»

أى فارق « شعبية الزنج » الذين يتبعون التأثيرين أمثال أبى الطيّب ، وتأنق مع المحفوفى الشوارب من الأنباط البيض حوله فهو يظن نفسه أبيض مثلهم . . . عنده عقدة اللون .

وكأن أبا الطيّب لم يكن يرى السواد فى ذات نفسه عيباً بآية إتباعه ذكر (٢٣) السواد صفة أخرى كلما ذكره ، كقوله : « كأن الأسود اللَّابِئىَّ الخ » « وأنّ ذا الأسود المثقوب مشفره الخ » « فكيف الخصية السود » « من علم الأسود المخصى » « وأسود مشفره نصفه » . وإذا كان ابيضاض النفس « خيراً من ابيضاض القباء » فاسودادها شر من اسوداده ، وإنمّا الجلد ملبس ، واسودادهما كارثة . وصار « الخلق المطهم » قبحاً .

« وشعرٌ مدحت به الكركدن » بين القريض وبين الرقى
« وتُعجّينى رجلاك فى النعل إننى رأيتك ذا نعلٍ وان كنت حافياً
فان كنت لآخرأ أفدتُ فإننى أفدتُ بلحظى مشفرَيْك الملاحيا
ومثلُك يؤتّى من بلاد بعيدة ليضحك ربّات الحداد البواكيا »
قال العكبرى « وقد صرّح فى هذا البيت بجميع ما كان أخفاه فى مدحه بقوله فى غير هذه :

« وما طربى لما رأيتك بدعةً لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب »
وليس مقال العكبرى بصواب ، وإنمّا رجع أبو الطيّب يتأول ويلتمس لنفسه وجوه التبرير .

« ولولا فضولُ الناسِ جئتُك مادحاً بما كُنتُ فى سِرِّى به لك هاجيا
تظنُّ ابتسامانى رجاءً وغِبطَةً وما أنا إلاّ ضاحكٌ من رجائيا »
وهذا شعر صنعه ليسمعه المصريون لروح النكتة فيه وما كان إلى ذلك سبيل فكتمه حتى خرج . كم قد حرص ، رحمه الله ، على البقاء بمصر .
ولكن كيد حلب اتصل بالفُسْطَاط فلم يكن له إلاّ الفرار .

« ألا كلُّ ماشيةٍ الحَيَزَلَى فِدَى كُلِّ ماشيةٍ الهَيْدَبَى »

والماشيات الخيزلى هُنَّ الخارجات من الحمام بالفسطاط . . . كأنَّ له نفسا
كانت تراوده على البقاء .

« وكل نجاة بجأوية خنوف وما بى حُسْنُ المشى
ولكنهن حبالُ النجاة وكَيْدُ العداة وَمَيْطُ الأذى
ضربت بها التيسه ضرباً القمارِ إمّا لهذا وإمّا لهذا

والذين أعدوا له السودان فى كفر عاقب ، ومن كان على رأسهم
بين مصر والعراق كانوا عليه حراسا يُسِرُّون مقتله فاحترس كل الاحتراس

« لتعلم مصرُ ومن بالعراق ومن بالعواصم أنسى الفتى
وأنى وفيتُ وأسى أبيتُ وأنى عتوتُ على من عتا »

هذا يقوله لقومه فى الكوفة . . . طلبت الملك ومدحت الملوك وهأنذا أعود
اليكم . وليس بعد هذا جميعه فى شعر أبى الطيب مرارة جقد كالح على
كافور كما فى هجائه ابن كيغلغ ، اذ هجاه وهو حى . .

« يَمْشِي بِأَرْبَعَةٍ عَلَى أَعْقَابِهِ تَحْتَ الْعُلُوجِ وَمِنْ وَرَاءِ يَلْجَمِ
وَجَفُونَهُ مَا تَسْتَقِرُّ كَأَنَّمَا مَطْرُوفَةٌ أَوْفَتْ فِيهَا حِصْرُ
وَإِذَا أَشَارَ مُحَدَّثًا فَكَأَنَّهُ قَرْدٌ يَقْهَقُهُ أَوْ عَجْزُوزٌ تَلْظُمُ
وَتَرَاهُ أَصْغَرَ مَا تَرَاهُ نَاطِقًا وَيَكُونُ أَكْذَبَ مَا يَكُونُ وَيَقْسَمُ
وَالذِّلُّ يَظْهَرُ فِي الذِّلِيلِ مَوْدَةً وَأَوْدُ مِنْهُ لِمَنْ يُوَدُّ الْأَرْقَمُ »

ثم هجاه لما بلغه أنه قتله غلماناه فقال :

« إِنْ مَاتَ مَاتَ بِلَا فَتَقْدٍ وَلَا أَسَفٍ أَوْ عَاشَ عَاشَ بِلَا خَلْقٍ وَلَا خُلُقٍ
مِنْهُ تَعْلَمُ عَبْدٌ شَقٌّ هَامَتَهُ خَوْنُ الصَّدِيقِ وَدَسَّ الْغَدْرِ فِي الْمَلَقِ
وَحَلَفَ أَلْفَ يَمِينٍ غَيْرَ صَادِقَةٍ مَطْرُودَةٌ كَكُعُوبِ الرُّمَحِ فِي نَسَقِ
لَوْلَا اللَّئِيمُ وَشَيْءٌ مِنْ مِثَابَةِ لَكَانَ الْأُمُّ طِفْلٌ لُفٌّ فِي خِرِقِ

كلامٌ أَكْثَرُ من تلقى وَمَنْظَرُهُ مما يَشْقُ عَلَى الآذان والحدق
وَأَمْرٌ ما وقع فى هجائه لكافور وَخَزْ لِنَفْسِهِ وتقرّيع ، إذ بلغ به كَرَاهِ السُّكَاكِ (٢٤)
ليصحو ويحد أن حاله فى الحضيض .

«أَنْوَكُ (١) من عَبْدٍ ومن عرسه مَنْ حَكَمَ الْعَبْدَ عَلَى نفسه
الْعَبْدُ لا تَفْضِلُ أَخْلَاقَهُ عن فَرْجِهِ الْمُنْتَنِ أَوْ ضِرْسِهِ
لا يُنْجِزُ المِيعَادَ فى يَوْمِهِ ولا يَعْصِي ما قال فى أَمْسِهِ
فلا تُرَجِّحِ الْخَيْرَ عِنْدَ أَمْرِي مَرَّتْ يَدُ النَّخَّاسِ فى رَأْسِهِ
وإن عراكَ الشُّكِّ فى نفسه بِحَالِهِ فَاَنْظُرْ الى جَنْسِهِ»
أى إلى العبيد ، أو كما قال :

«إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسٌ مَنَاقِدُ»

والمراد ههنا هجاء جنس الرق والأرقاء لاجنس السواد . . ومصدر
الهجاء خيبة أمل الشاعر لا اعتقاده . . كأنه يرجع به كارها إلى اعتقاد عامة
الناس . وموضع ملامة النفس ظاهر فى جميع هذا . ومن أمرٌ مالا م به
نفسه قوله :

«ما كنت أَحْسِبُنِي أَحْيَا الى زَمَنِ يُسَيِّئُ بى فيه كَلْبٌ وهو محمود»
كأنه التمس من يوافقه على ملامة كافور فى مطله إِيَّاه فلم يجد ، لما كانت
عليه الحال من التزام سَمَتِ الطاعة وضبط الأنفس من أجل الحضارة والولاء
وأراد أبو الطيب تحقيقاً لقوله فى ابن كيغلف أن اللثام يتشابهون أن يجد مشابه
منه فى كافور .

(١) أى أشد حمقاً من العبد من سلط العبد على نفسه

« جَوْعَانِ يَأْكُلُ مِنْ زَادِي وَيَمْسِكُنِي

لَكِي يَقَالَ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَقْصُودُ »

فقد أثبت أنه عظيم القدر مقصود كما ترى . ولم يكن ليستقيم له غير ذلك وقد عذره حيث قال :

« أُولَى اللِّثَامِ كَوَيْفِيرٌ بِمَعْدَرَةٍ

فِي كُلِّ لُؤْمٍ وَبَعْضُ الْعُيُودِ تَفْنِيدُ

وَذَلِكَ أَنَّ الْفَحُولَ الْبَيْضَ عَاجِزَةٌ

عَنِ الْجَمِيلِ فَكَيْفَ الْخَصِيَّةُ السُّودُ

فَاسْتَوَى الْفَحْلُ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ الْخَصِيُّ

« أَرَانَبُ غَيْرِ أَتْهَمُ مُلُوكُ مَفْتَحَةٌ عِيُونُهُمْ نِيَامُ »

وكافور خير منهم ولام أبو الطيب نفسه ، إذ خالف سبيله الأولى حين رام

تضريب أعناق الملوك . . ومع ذلك قد بقيت صورة النيل والدعة المصرية

والصبايا الخارجات من الحمام عالقة بفؤاده :

« وَكَانَ أَطْيَبَ مِنْ سَيِّفِي مُضَاجَعَةٌ

أَشْبَاهُ رَوْنَقِهِ الْغَيْدُ الْأَمَالِيدُ

أَكَلَمًا اغْتَالَ عَيْدُ السَّوءِ سَيِّدُهُ

أَوْ خَانَهُ فَيْلَهُ فِي مَصْرَ تَمْهِيدُ

صار الخصى إمام الآبقين بها

فالحرُّ مستعبدٌ والعبدُ معبودٌ »

هل طمعت نفسه إلى أن يكون هو إمام الآبقين ؟

« سَادَاتُ كُلِّ أَنْاسٍ مِنْ نَفُوسِهِمْ

وَسَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْأَعْبِدُ الْقُرْمُ »

وهذه بقية من روح الثورة التي ثار بسماوة كلب -

« بِكُلِّ مُنْصَلَّتٍ مَا زَالَ مُنْتَظَرِي حَتَّى أَدَلْتُ لَهُ مِنْ دَوْلَةِ الْخُلْدِ »

كَانَ الْمُسْلِمِينَ هُمُ «الشَّعْبُ» لَا كَافُورَ وَبِلَاظِهِ . . يَقُومُ مِنْ ادْعَى النُّبُوَّةَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا يَدْعَى الْمَمْلَكَةُ مَعَ كَافُورٍ ؟ !
 «أَلَا فَتَى يُوْرِدُ الْهِنْدِي مُهْجَتَهُ حَتَّى تَزُولَ شُكُوكُ النَّاسِ وَالتَّهْمُ
 فَإِنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِي الْقُلُوبَ بِهَا مِنْ دِينِهِ الدَّهْرُ وَالتَّعْطِيلُ وَالْقِدَمُ»
 هَذَا كَأَنَّهُ صَدَى مِنْ أَيَّامٍ :

« سَأَطْلُبُ حَتَّى بِالْقَنَا وَمَشَايِخ »
 وَاحْتِمَالُ الْأَذَى وَرُؤْيَا جَانِبِ غِذَاءِ تَضَوَّى بِهِ الْأَجْسَامُ
 وَسِرْعَانِ مَا يَخْفَتُ الصَّدَى حِينَ يَغْمُرُهُ صَوْتُ التَّجَرُّبَةِ الطَّوِيلَةِ الْحَزِينِ .
 « مَا أَقْدَرُ اللَّهَ أَنْ يَخْزِي خَلِيقَتَهُ وَلَا يُصَدِّقَ قَوْمًا فِي الَّذِي زَعَمُوا »
 ذَلِكَ بِأَنْ مِصْرَ مِمَّا يُثَبِّتُ وَجُودَهُ . . . وَمَنْ حَقَّ أَبِي الطَّيِّبِ أَنْ يَشْكُرَ لَهَا
 كَمَا شَكَرَ لِلخَيْلِ إِذْ أَوْصَلَتْهُ إِلَيْهَا .
 « وَكَيْفَ أَكْفُرُ يَا كَافُورُ نِعْمَتَهَا وَقَدْ أَتَيْتُكَ بِي يَا خَيْرَ مُطْلُوبٍ »
 وَمِنْ آيَةِ شُكْرِهِ أَنْ شَعْرَهُ الْمِصْرِي آمَنَ لَا يَسْتَشْعِرُ خَوْفًا ، لَا فِي مَدْحِهِ وَلَا
 فِي هِجَائِهِ — بَلْ هُوَ مُطْمَئِنٌّ غَايَةً الْأَطْمَئِنَّانِ حَضَارِي النِّكْهَةِ :

« أَمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَرِيمٍ تَزُولُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ الْهَمُومِ
 أَمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَكَانٌ يُسَرُّ بِأَهْلِهِ الْخَارُ الْمَقِيمِ
 تَشَابَهَتْ الْبُهَامُ وَالْعِبْدِيُّ عَلَيْنَا وَالْمَوَالِي وَالصَّمِيمِ
 إِذَا أَتَتْ الْإِسَاءَةُ مِنْ لَثِيمٍ وَلَمْ أَلَمْ الْمُسِيءَ فَمَنْ أَلُومِ »
 وَقَدْ كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ مُرَّآ سَاخِنَ النَّفْسِ
 « أَقْرَارًا أَلَذُّ فَوْقَ شَرَارِ وَمَرَامًا أَبْغَى وَظُلْمِي يُرَامِ
 دُونَ أَنْ يَشْرِقَ الْحِجَازُ وَنَجْدٌ وَالْعِرَاقَانِ بِالْقَنَا وَالشَّامِ »
 وَبَلَغَ غَايَةَ ذَلِكَ فِي مِيمَةٍ « مِنْ شَحْمِهِ وَرَمِ » :

« أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدَبِي وَأَسْمَعْتُ كَلِمَاتِي مِنْ بِهِ صَمِّمُ
 أَنَا مِثْلُ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقَ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ »

وجاهلٍ مدّة في جهله ضحكى حتّى أتته يدٌ فرأسته وفم
إذا نظرت نيوبَ الليث بارزةً فلا تظنّ أن الليث يتسم
ومُهجةٌ مُهَجَّتِي من همٍّ صاحبها أدركتها بجوادٍ ظهّره حرّم
رجلاه في الركنُض رجلٌ واليدان يدٌ

وفعلُهُ ما تريد الكفُّ والقَدَمُ
ومُرْهَفٍ سِرَّت بين الجَحْفَلَيْنِ به

حتّى ضربتُ ومَوَجُّ الموتِ يلتطم
فالخَيْلُ واللَّيْلُ والبيداءُ تعرفُنِي

والضَّرْبُ وَالطَّعْنُ والقِرْطَاسُ والقلم
صَحِبتُ في الفَلَواتِ الوَحْشَ منفرداً

حتّى تَعَجَّبَ مِنِّي القُورُ والأَكَمُ
كم تَطْلُبُون لَنَا عَيْباً فيعجزكم

ويَكْزُرُهُ اللهُ ما تَأْتُونَ والكَرَمُ
والفتاة التي على البعيرِ المقلّد الواخِد

« ما أَبْعَدَ العَيْبَ والنَقْصانَ من شرفي
أنا الثريّا وذانِ الشَّيْبِ والهرمُ

ليت الغمامَ الذي عندي صواعقه
بُزِيلُهُن إلى من عِنْدَهُ الدِّيمُ »

أبى فراس وابن خالويه ولفّهم جميعاً
« أرى النوى تَقْتَضِيْنِي كلَّ مرحلة

لا تَسْتَقِيلُ بها الوخّادةُ الرُّسُمُ
لئن تَرَكن ضُمَيْراً عن ميامننا

ليَحْدُثُنْ لِمَنْ ودّعَهم ندم

إذا تَرَحَّلْتَ عن قومٍ وقد قدروا
 ألاَّ تُفارقِهِم فالأراحلونَ همُ »
 وقد رحل كافر عنه لاهو عن كافر
 « مِنْ عبيدي إِنْ عِشْتُ لِي أَلْفُ كافٍ »
 روى من نذاك ريف وتيل »

— هيهات —

« شَرُّ البلاد مكانٌ لا صديق به
 وَ شَرُّ ما يكسبُ إلا إنسان ما يَصِمُ »
 وَ شَرُّ ما قَنَصَتْه رَاحَتِي قَنَصُ
 شُهْبُ البُرْزَةِ سِوَا فِيهِ وَ الرَحْمُ
 بِأَيِّ لَفْظٍ نَقُولُ الشَّعْرَ زِعْنِفَةً
 تَجُوزُ عِنْدَكَ لَا عُرْبُ وَلَا عَجْمُ
 وَمَا عَنِي بِهَذَا إِلَّا أَبَا فِرَاسٍ . . وَكَأَنَّهُ طَعَنَ فِي نَسَبِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
 وقد جعل اللفظ كما ترى عنوان البيان ، وهو إن شاء الله كذلك ، وما
 يروم النقاد من فصل المعنى عنه ضرب من شق الشعر . والله دره اذ قال
 يذكر عضد الدولة

« تُشْرِقُ تِيجَانَهُ بَعُورَتَهُ إِشْرَاقَ أَلْفَاظِهِ بِمَعْنَاهَا »
 وقد كان أبو الطيب في دهره الأول صيدحاً ، يجمع إلى مرارة
 الشكيمة أَرْنَ الحماسة وحيوية الشباب وحدة الطموح (٢٥)
 « فَيَا لَيْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَبَّتِي مِنْ الْبُعْدِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوَابِ
 يَهْوُونَ عَلَى مِثْلِي إِذَا رَامَ حَاجَةً
 كَثِيرُ حَيَاةِ الْمَرْءِ مِثْلُ قَلِيلِهَا
 إِلَيْكَ فَانِي لَسْتُ مِمَّنْ إِذَا اتَقَى
 أَتَانِي وَعِيدُ الْأَدْعِيَاءِ وَأَنْتَهُمْ
 مِنْ الْبُعْدِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوَابِ
 وَ قُوعُ الْعَوَالِي دُونَهَا وَالْقَوَاصِبُ
 يَزُولُ وَبَاقِي عُمْرِهِ مِثْلُ ذَاهِبِ
 عَضَاضِ الْأَفَاعِي نَامَ فَوْقَ الْعِقَارِبِ
 أَعْدُوهُ إِلَى السُّودَانِ فِي كَفْرِ عَاقِبِ »
 ما أعظم جهازة هذا الشعر وأشجى رنيه
 « فَمَا لِي وَلِلدُّنْيَا طَلَابِي نَجُومُهَا وَمَسْعَايَ مِنْهَا فِي شِدْوَاقِ الْأَرَامِ »

من الحليم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الحليم طُرق المظالم»
ولم يأخذ هذا من الجعدى « ولاخير في حلم إذا لم الخ » إلا من حيث ظاهر
المعنى وإنما أخذ من بشار « إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن الخ » والشبه طريقة
التأتى والمنهج وروح الاقتداء من حيث فخامة الأرب وجلاله

« وأن تبرد الماء الذى شطره دمٌ فتسقى إذا لم يسقى من لم يزاحم
ومن عرّف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رُحمة غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم»
وبعد هذه الآفاق البعيدة الأغوار أصداء الكهنوت والعرافة : (٢٦)

« أرى دون ما بين الفرات وبرقة ضراباً يمشى الخيل فوق الجماجم
وطعن غطاريف كأن أكفهم عرقن الرذينيات قبل المعاصم

حمته على الأعداء من كل جانب
سيوف بنى طنج بن جف القماقم»

أو كما قال الآخر

« قتلنا بعبد الله خير لئلا ته ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب»
قيل لو شاء لبلغ به معد بن عدنان . أو سد ذى القرنين

« هم المحسنون الكرم فى حومة الوغى

وأحسن منه كرمهم فى المكارم

ولولا احتقار الأسد شبّهتها بهم
سرى النوم عنى فى سراى إلى الـ
لكنها معدودة فى البهائم
ذى صنائه تسرى إلى كئل نائم
كريم نفضت الناس لما بلغته
كأنهم ماجف من زاد قادم
وكاد سُرورى لايفى بندامتى
على تروكه فى عمرى المتقادم»

هذا يقوله فى ابن سادة كافور وهو مقبل من وراء الغيوب إلى مديح كافور
وقد بقيت من مرارة أبى الطيب—مرارة الحمية والحماسة عهد الأمل

— بقية لاذعة بعد فراقه حلب . . بقية بعد إذ أمن تمنى معها الموت

« كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا

وحسب المنيا أن يَكُنَّ أمانيا

تمنيتها لما تمنيت أن ترى

صديقاً فأعيا أو عدواً مداجيا

حببتك قلبى قبل حبك من نأى

وقد كان غداً أرا فكن أنت وافيا

أقلَّ أشتياقاً أيها القلب ربما

رأيتك تُصفي الودَّ من ليس جازيا

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شيبى موجع القلب باكيا »

قيل يعرض بسيف الدولة . والراجح التعريض بحلب كلها — وفيها

محبوبة بآية قوله فى البائية التى مدح بها كافورا ؟ —

« ولأسرَّ منى موضع لا يناله نديمٌ ولا يُفضى إليه شراب

وللخود منى ساعة ثم بيننا فلاةٌ إلى غير اللقاء تجباب »

وكان كما قال :

« وما العشقُ الا غيرةٌ وطماعةٌ يُعرِّضُ قلبه لنفسه فتصاب

وغير فؤادى للغوانى رميةٌ وغير بنانى للرخاخ ركاب »

وما ذكر الرخاخ إلا وقد كان له بها عهد وربك أعلم أى ذلك كان .

« فراق ومن فارقت غير مذممٍ وأمٌ ومن تمت خير ميم

وما منزل اللذات عندى بمنزل إذا لم أبجلْ عنده وأكرم

سجيةً نفس ما تزال مليحةً من الضيم مرماً بها كلٌ يخرم

رحلت فكم بالك بأجفان شادن على وكم بالك بأجفان ضيغم »

وما عنى أهله وجواريه ولكن العقائل من آل حمدان . . . ولولا بعض هذا

الشعور لما لُحج فى مرأثيه لمن بعض ما استكره نقاد شعره ببغداد وجعله أبو

منصور من باب إساءة الأَدب بالأَدب كقوله :

« صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقُنَا حَنْوُوطٌ عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْفَرِّ بِالْجَمَالِ »

قال « فلا أدري هذه الاستعارة أحسن أم وصفه وجه والدته ملك يرثيها بالجمال أو قوله في وصف قرابتها وجواربها

« أَتُسَهِّلُ الْمُصِيبَةَ غَافِلَاتٍ فَدَمَعُ الْحَسَنِ فِي دَمْعِ الدَّلَالِ »

قال : « وكان أبو بكر الخوارزمي يقول ، لو عزّاني لإنسان على حرمة

لي بمثل هذا لأحقته بها الخ » في هذا المجرى من الحسد الكالـح .

والحق أن أبا الطيّب كان شاعر بلاط الأَمير ، تشركه فيه الكرائم .

ولم يكن بندي فحشاء وكان ذلك من أمره معلوما . وكان بلاط الأَمير لا يخلو

من دعوى رجعة إلى المجد القديم حين لم يكن الغزل نائرة إذ هو شريف ،

عَهْدَ اخْتَفَى ابْنُ الرِّقِيَّاتِ عِنْدَ كَثِيرَةٍ ، وَتَشَفَّعَ بِأَمِّ الْبَنِينَ ، وَاعْتَذَرَ ابْنُ أَبِي

رَبِيعَةَ عَنْ مَدْحِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِمَدْحِ النِّسَاءِ وَفِيهِنَّ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ ، وَلَمْ يَزِدِ الْحِجَاجَ ،

وَكَانَ مَغْيَارًا مَعْرُوفًا بِذَلِكَ ، عَلَى تَوَعُّدِ النَّمِيرِيِّ لَمَّا ذَكَرَ زَيْنَبَ أُخْتَهُ ، كَأَنَّ

هَذَا كَانَ لَوْنًا مِنْ « النِّيْوَ كِلَاسِكِيَّةِ » يَتَطَرَّفُ بِهِ بِلَاطِ الْأَمِيرِ الْحَمْدَانِي التَّغْلِبِي

ظَرْفًا يَجْمَعُ بَيْنَ حَاضِرِهِ الْبَغْدَادِي الشَّامِي الْمَثَرَفِ ، وَمَاضِيهِ الْبَدَوِي السَّمَحِ

الْبَسِيطِ . . وَمَصِيفِ الْبَادِيَةِ طَرْفٍ مِنْ هَذَا . . وَمَشْتَى الصَّحْصَحَانِ . .

وَاصْطِنَاعِ الْجَزَالَةِ الَّذِي عِنْدَ ابْنِ الرُّومِيَةِ أَبِي فِرَاسٍ

« إِذَا خِفْتُ مِنْ أَخْوَالِي الرُّومَ خُطَّةَ تَخَوَّفَتْ مِنْ أَعْمَامِي الْعُرُبِ أَرْبَعًا »

« وَفَارَقَ عَمْرُو بْنُ الزُّبَيْرِ شَقِيقَهُ وَخَلَّى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَقِيلَ »

« وَلَا خَيْرَ فِي دَفْعِ الرَّدَى بِمِثْلِهِ كَمَا رَدَّهَا يَوْمًا بِسُوءَتِهِ عَمْرُو »

وما كان من بساب إساءة الأَدب ذكر أبي الطيّب النساء إذ رثى أم سيف

الدولة فقال :

« مَشَى الْأَمْرَاءُ حَوْلَ لَيْنِهَا حُفَاةً كَأَنَّ الْمَرُوءَ مِنْ زِفِ الرِّثَالِ »

أى كأن الحجارة من ريش صغار النعام . .

« وَأَخْرَجَتِ الْحِجَالَ مَحْبَاتٍ يَضَعْنَ النَّفْسَ أَمْكِنَةَ الْغَوَالِي »

وفيهن ذات البعير المقلد لا ريب . .

«أَتَتْهُنَّ الْمَصِيبَةُ غَافِلَاتٍ فَدَمَعُ الْحَزْنِ فِي دَمْعِ الدَّلَالِ»
ونفر من هذا أبو منصور بذوقه المتفقه المتحضر المنتطس — وما أراد أبو
الطيب إلا أن يجعل الأميرات إزاء الأمراء، وهؤلاء حفاة فوق المرو وهم
الرقاق النعال، وهؤلاء عليهنّ النقس وهنّ ذوات الدلال، ولا شك أن سيف
الدولة والألى معه ما أنكروا من مقال أبي الطيب شيئا وأنّ الأميرات قد
أعجبهن وربما كن قد دسسن من يشير على الشاعر بأن يذكرن .
ومثل هذا التأين فيه مدح ذن . .

«وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَثَلِ هَذِي لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
وَمَا التَّائِيْتُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ وَمَا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهَلَالِ» (٢٧).
وقول أبي الطيب :

«رَحَلْتُ فِكَمِ بَاكِ بِأَجْفَانِ شَادِنٍ عَلَى وَكَمِ بَاكِ بِأَجْفَانِ ضَيْغَمٍ»
ومن هذا النهج . .

«وَمَا رَبَّةُ الْقُرْطِ الْمَلِيحِ مَكَانُهُ بِأَجْزَعٍ مِنْ رَبِّ الْحَسَامِ الْمَصْمَمِ
ومع أنّ ظاهر المعنى يحتمل العموم ، أي الرجال أشد جزعا على فقدى من
النساء والعهد في شأن النساء أن يكنّ أكثر جزعا، إلا أنّ السياق يدلّ على
امرأة بعينها ذات قرط مليح وفارس ضرب ذى حسام رهيب — وهو سيف
الدولة بلاريب ، إلا أنّ الباكي بأجفان الضيغم أشبه بأن يكون أبا العشائر وما
إيّاها يلوم أبو الطيب ولا إيّاها . . ولكنّ المعتمّ ذا الحسام

«فَلَوْ كَانَ مَابِي مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ عَدَّرْتُ وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ مَعْمَمٍ
رمى واتقى رميى ومن دون ما اتقى هوى كاسير كفتي وقوسى وأسهمى»
وفى هذا على ما فى ظاهره من المجاز إشارة إلى ما كان من محاولة اغتياله
عشيّة انتسب له راميه إلى أبى العشائر . .

ثم يشوب المرارة حزن عميق . .

«إِذَا سَاءَ فِعْلُهُ الْمَرْءُ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمٍ
وَعَادَى مُحِبِّهِ بِقَوْلِ عِدَاتِهِ وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشُّكِّ مَظْلَمٌ
أَصَادِقُ نَفْسِ الْمَرْءِ مِنْ قَبْلِ جِسْمِهِ وَأَعْرِفُهَا فِي فِعْلِهِ وَالتَّكَلُّمِ»
— مسكين أبو الطيّب —

«وَأَحْلُمُ عَنْ خِلِيٍّ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى أَجْزَاهُ حِلْمًا عَنِ الْجَهْلِ يَنْدَمُ»
— وهذا احترس به أمام كافور حفاظا على مكارم الأخلاق، وخشيّة
الآلِ يَحْمِلُ مَقَالَهُ مَحْمَلُ حَيَاقٍ الْهَجَاءِ لِمَنْ كَانَ مَمْدُوحُهُ مِنْ قَبْلِ —
«وَأِنْ بَذَلَ لِلْإِنْسَانِ لِي جُودَ عَابَسَ جَزَيْتُ بِجُودِ التَّارِكِ الْمُبْتَسِمِ»
هي «التارك» لاريب ومن زعم أنّها «الباذل» لزمه أن يعتذر للتكرار فيما
بين «جود» و «الباذل» إذ ليس يعدو معنى «جود» ههنا معنى «فعل» (٢٨)
لدلالة الباذل عليه .

«وَأَهْوَى مِنَ الْفُتَيَانِ كُلِّ سَمِيْدَةٍ نَجِيبٍ كَصَدْرِ السَّمْهَرِيِّ الْمَقُومِ
خَطَّتْ تَحْتَهُ الْعَيْسُ الْفَلَاةُ وَخَالَطَتْ بِهِ الْخَيْلُ كِبَاتِ الْخَمِيسِ الْعَرْمَرَمِ
وَلَا عَفَّةٌ فِي سَيْفِهِ وَسَنَانِهِ وَلَكِنَّهَا فِي الْكِفِّ وَالْفَرْجِ وَالْقَمِ
وَمَا كُلُّ هَاوٍ لِلْجَمِيلِ بِفَاعِلٍ وَمَا كُلُّ فَعَالٍ لَهُ بِمُتَمِّمٍ»
وقد عرّض لهذا المعنى بعينه من بعد، فجاء به خاليا من المرأة، أملاً بروح
الحزن العميق :

«عَجِبْتُ لِمَنْ لَهُ قَدْ وَحْدٌ وَيَنْبُو نَبْوَةَ الْقَضِيمِ الْكَهَامِ»
يعنى سيف الدولة

«وَمَنْ يَجِدُ الطَّرِيقَ إِلَى الْمَعَالِي فَلَا يَذَرُ الْمَطَى بِلَا سَنَامٍ»
يعنى نفسه

«وَلَمْ أَرْ فِي عَيُوبِ النَّاسِ شَيْئاً كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ»
يعنى كافوراً

«أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ فَلَا وَرَائِي تَخُبُّ بَنَى الرِّكَابِ وَلَا أَمَامِي

وَمَلَّنِي الْفِرَاشُ وَكَانَ جَنَبِي
قَلِيلٌ عَائِدِي سَقَمٌ فُؤَادِي
يَمَلُّ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عَامٍ
كَثِيرٌ حَاسِدِي صَعْبٌ مَرَامِي
وَإِذَا كَثُرُوا وَهُوَ مَنفَرِدٌ فَلَا بَدَّ لَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَيْهِ آخِرُ الْأَمْرِ —

«عَلِيلُ الْجَنَسِ مُمْتَنِعُ الْقِيَامِ
وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بَيْنَهُمَا حَيْسَاءٌ
شَدِيدُ الْسُكْرِ مِنْ غَيْرِ الْمُدَامِ
فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
«أَرَأَيْتَ وَقْتُهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ
وَيَصْدُقُ وَعْدُهَا وَالصَّدْقُ شَرٌّ
مُرَاقِبَةُ الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ
إِذَا الْفَقَاكُ فِي الْكُرْبِ الْعِظَامِ»

— ولا يبتك مثل خبير —

أَبْنَتُ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بِنْتٍ
جَرَحَتْ مَجْرَحًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ
فَكَيفَ وَصَلْتَ أَنْتَ مِنَ الرَّحَامِ
مَكَانَ الْأَسْيُوفِ وَلَا السَّهَامِ
أَلَا يَالَيْتَ شَعْرِي أُنْمِسِي
وَهَلْ أُرْمِي هَوَايَ بِرَاقِصَاتٍ
فَرُبَّمَا شَقِيئَتُ غَلِيلَ نَفْسِي
وَصَاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَصْتُ مِنْهَا
هَذَا نَفْسٌ مِنْ عَهْدِهِ الْأَوَّلِ ، إِلَّا أَنْ أَعْيَاءَ التَّجَرُّبَةِ وَمَوْضُوعِيَّتِهَا أَغْلَبَ
عَلَى سِنِّهِ — وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَقْدَمَ أَبُو الطَّيِّبِ فَفَارِقَ كَافُورًا حَتَّى كَانَ
فِرَاقُهُ لَهُ شِفَاءً لِنَسِيمَةِ نَفْسِهِ أَوْ كَمَا قَالَ :

فَرُبَّمَا شَقِيئَتُ غَلِيلَ نَفْسِي ... الْخ

ذهبت الماراة بأسرها ، وبقي رضا الصبر والشكر ومقالة المال ،
وحسرات الإخفاق بعد انقلال شبة الطموح . . على صخرة الحياة :

« هُوَ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنَظَرُهُ فَلَمَّا يَفْقَظَاتُ الْعَيْنِ كَالْحُلُمِ
وَلَا تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ فَتَشْمِئْتُهُ شَكْوَى الْجَحْرِيحِ إِلَى الْغُرْبَانِ وَالرَّخَمِ »
إِذَا كَانَ يَسِيلُ دَمًا وَهُمْ يَلْعُقُونَ ، الْأَسْوَدُ اللَّابِئُ وَالْجَوَارِحُ الَّتِي مَعَهُ . .
وَالْجَوَارِحُ الَّتِي لَقِيَ مِنْ قَبْلُ وَسِيلَقِي مِنْ بَعْدُ .

«وَكُنْ عَلَى حَدَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتَرُهُ وَلَا يَغْرُكُ مِنْهُمْ تَغَرُّ مُبْتَسِمٍ»
— كافور أو سواه —

«غَاظِبِ الْوَقَاءَ فَمَا تَلَقَّاهُ فِي عِدَةٍ وَأَعْوَزَ الصَّدْقُ فِي الْإِخْبَارِ وَالْقَسَمِ»
كوعد كافور أو الذي نعى إليه من وعده ، وكقسم ابن حترابة وكان أكرم
عنده أوّل الأمر وأوثق من أيمان ابن كيغلق المطردات ككعوب الرُمح في
نسق . ولعلّه هو أيضا أن يضطر فيفعل كما يفعلون —

«سُبْحَانَ خَالِقِ نَفْسِي كَيْفَ لَدَتْهَا فِيمَا التَّمُوسُ تَرَاهُ غَايَةَ الْإِلْمِ»
الدّمّرُ يَعْجَبُ مِنْ حَمَلِي نَوَائِبِهِ وَصَبْرُ نَفْسِي عَلَى أَحْدَاثِهِ الْحَطَمِ
وَقَتٌ يَضِيعُ وَعُمُرٌ لَيْتَ مُسَدَّتُهُ فِي غَيْرِ أُمَّتِهِ مِنْ سَالِفِ الْأُمَمِ
أَنَّى الزَّمَانُ بَنُوهُ فَيُشَبِّهُ شَبِيبَتِهِ فَتَسَرُّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الْحَرَمِ
أَيُّ زَمَانٍ تَمْنَى أَبُو الطَّيِّبِ أَنْ يَكُونَهُ فِي مِصْرَ مِنْ عَهْدِهَا السَّالِفَاتِ . .
أو من عهوده هو السَّالِفَاتِ . .

«قَمِيصُ يَوْسُفَ فِي أَجْفَانٍ يَعْقُوبِ»

«لَوْلَا الْعُلَى لَمْ تَجِبْ بِي مَا أَجُوبُ بِهَا

وَجَنَاءَ حَرْفٍ وَلَا جَرْدَاءَ قَيْدُودُ
وَكَانَ أَطِيبَ مِنْ سَيْفِي مُضَاجَعَةً أَشْبَاهُ رَوْنَقِهِ الْغَيْدُ الْأَمَالِيدُ
لَاشْكُ أَنَّهُ كَرِهَ الرِّحْلَةَ مِنْ مِصْرَ . وَقَدْ كَانَ قَالَ مِنْ قَبْلُ :

«مَنْ أَطَاقَ التِّمَاسَسَ شَيْءٌ غِلَابًا وَاغْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالًا»
وقد أعمل فكره وشعره لينال العلى في مصر بالسؤال عند عزيزها كافور ،
إذ عمل القلم سؤال . ثم أخفق بعد أن كاد ينجح كما قد أخفق في أوّل الصبا
من قبل حين رام العلى بالغلاب والاعتصاب في سماوة كلب بين البدو
والطغام بعد أن كاد ينجح — لقد كانت وسائله في المرّة الأولى هي المجديّة
لو كان التزم بها وحافظ عليها . ولكن شيطان الشعراء راوده عنها فأضلّه
الضلال البعيد ، وذلك حيث يقول :

«ما زِلْتُ أَضْحِكُ إِبْنِي كُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَى مَنْ اخْتَضَبَتْ أَخْفَافُهَا بِدَمٍ -
إلى دولة الخدم بلاريب ! -

«أُسِيرُهُمَا بَيْنَ أَصْنَامٍ أَشَاهِدُهَا وَلَا أَشَاهِدُ فِيهَا عَفَّةَ الصَّنَمِ»
حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ إِلَى الْمَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ
اكَتُبْ بِنَا أَبَدًا بَعْدَ الْكِتَابِ بِهِ فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلْأَسْيَافِ كَالْخُدَمِ
أَسْمَعْتَنِي وَدَوَائِي مَا أَشْرَتْ بِهِ فَإِنْ غَفَلْتُ فِدَائِي قَلَّةُ الْفَهْمِ
مَنْ اقْتَضَى بِسِوَى الْمُنْدِيِّ حَاجَتَهُ أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلْ يَلِمُ
تَوَهُّمُ الْقَوْمِ أَنَّ الْعَجْزَ قَرَّبَنَا وَفِي التَّقَرُّبِ مَا يَدْعُو إِلَى التَّهْمِ
وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الْإِنْصَافِ قَاطِعَةً بَيْنَ الرَّجَالِ وَإِنْ كَانُوا ذَوِي رَحِمٍ
جَهَارَةُ الشَّجِي ، وَمُوسِيقَا الْأَعْمَاقِ الَّتِي مِنْ سِيْنَخٍ شَعَرِ أَبِي الطَّيِّبِ قَدْ فَارَقَهَا
هَهْنَا أَرْنَ الشَّبَابَ ، وَمِرَارَةَ النِّضَالِ الْبَاسِلِ ، وَطَرِبَ الْخَفَّةَ إِلَى الْأَمَلِ ،
وَخَالَطَهَا عَنَاءُ السَّفَرِ وَمَجَاهِدَةُ اللُّغُوبِ ، وَاسْتَشْعَارَ الْمَأْسَاةَ :

«عَلَى لَا حَيْبَ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ

إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ الدِّيَافِي جَرَجَرًا (٢٩)

تَقَطَّعَ أَسْبَابُ اللَّبَانَةِ وَالْهَوَى عِشِّيَّةَ جَاوَزْنَا حِمَاةَ وَشَيْرَا
أَوْ كَمَا قَالَ عُلُقَمَةُ :

«هَدَانِي إِلَيْكَ الْفَرْقَدَانِ وَلَا حَيْبُ لَهُ فَوْقَ أَصْوَاءِ الْمَتَانِ عُلُوبُ (٣٠)
بِهَاتَا جَيْفُ الْحُسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا فَبَيْضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ
تُرَادُ عَلَى دِمْنِ الْحِيَاضِ فَإِنْ تَعَفَّ فَإِنَّ الْمُنْدِيَّ رَحْلَةً فَرُكُوبُ»
وَقَدْ أَرَادَ أَبُو الطَّيِّبِ نَفْسَهُ الْعُزُوفَ عَلَى دِمْنِ الْحِيَاضِ فَعَافَتْ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا
الرَّحْلَةُ فَالرُّكُوبُ حَتَّى تَسْقُطَ بَيْنَ جَيْفِ الْحُسْرَى . .

«وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الْإِنْصَافِ قَاطِعَةً بَيْنَ الرَّجَالِ وَإِنْ كَانُوا ذَوِي رَحِمٍ»
كَمَا خَرَجَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ ابْنُ عَمِّهِ وَقَتْلَ نَاصِرِ الدَّوْلَةِ عَمِّهِ . . أَمَّ الْمَعْرِفَةَ أَقْوَى
مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ .

«فَلَا زِيَارَةَ إِلَّا أَنْ تَزُورَهُمْ أَيْدِي نَشْأَنَ مَعَ الْمَصْفُوعَةِ الْخُدَمِ

مِنْ كُلِّ قَضِيَّةٍ بِالمَوْتِ شُفْرَتَهُ مَابَيْنَ مُنْتَقِمٍ مِنْهُ وَمُنْتَقِمٍ «
ماخرج أبو الطيّب من مصر إلّا وهو يريد العلى عن طريق السيف كما قال :
« فلا زيارة إلّا أنْ تَزُورَهُمْ أَيْدٍ نَشْأَنَ مَعَ المَصْقُولَةِ الخُذْمِ »
ومن « دُونِهَا غَوْلُ الطَّرِيقِ وَبَعْدُهُ »

وكلا هذين نبوءة وبيان . . هل كان أبو الطيّب لم يزل فى قلبه الحنين
إلى حلب سيف الدولة وأنطاكية أبى العشائر

تَقُودُ مستحسن الكلام (له) كما تقود السحاب عظامها
لعلَّ شيئاً من هذا قد كان ، والله تعالى أعلم .

قال أبو الطيب :

«عَدِمْتُ فَرْوَادًا لَمْ تَبِتْ فِيهِ فَضْلَةٌ لِغَيْرِ الثَّنَائِيَا الْغُرِّ وَالْحَدَقِ النَّجْلِ»
 كَأَنَّهُ ههنا أَقْرَأَتْهُنَّ يَأْخُذْنَ مِنَ الْفَرْوَادِ قَدْرًا عَظِيمًا . قال أبو تمام :
 «أَهْنُ عَوَادِي يُوسُفُ وَصَوَاحِبُهُ فَعَزَّ مَا فَقَدَ مَا أَدْرَكَ النَّجَجَ طَالِبُهُ»
 قال تعالى « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » — قيل حتى (١)
 أَبْنَتْهَا ولم يشعرن . وقيل « حَزًّا حَزًّا » ، وهذا يدل على تعمُّدٍ مِنْهُنَّ
 والإكبار جعلهنَّ لا يشعرنَّ . ولا زال الفتيان في بعض النواحي إذا
 أعجبهم الفتيات حَزُّوا أَيْدِيَهُمْ بالسكاكين ، حَزًّا حَزًّا . كأنهن فعَلْنَ ذلك
 تسليما لها بعظم ما رَأَتْ واعترافا ، والله تعالى أعلم .

« ذَرِينِي أَنْزِلْ مَا لَا يُنَالُ مِنَ الْعُلَى »

فَصَعَبُ الْعُلَى فِي الصَّعْبِ وَالسَّهْلُ فِي السَّهْلِ

تُرِيدِينَ لُقْيَانَ الْمَعَالَى رَخِيصَةً (٢)

وَلَا بَدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ »

أَيُّ سِؤَالٍ وَالتَّمَسُّاسِ كَمَا ظَنَّ بِمَصْرٍ حِينَ أَعْجَبَتْهُ الدَّعَةُ وَالتَّبَسُّ عَلَيْهِ أَمْرُهَا

بَأَمْرِ الْعُلَى . . . حَتَّى خَاطَبَ حُمَامَةَ رَبِيعَةِ الْهُودَجِ مِنْ وَرَاءِ التَّيِّهِ :

«مِمَّا أَضَرَ بِأَهْلِ الْعِشْقِ أَنْتَهُمْ هُوُوا وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَلَا فِطْنُوا (٣)
 تَفَنَّى عِيُونُهُمْ دَمْعًا وَأَنْفُسُهُمْ فِي إِثَرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنٌ
 تَحَمَّلُوا حَمَلَتِكُمْ كُلُّ نَاجِيَةٍ فَكُلُّ بَيْتٍ عَلَى الْيَوْمِ مُؤْتَمِنٌ (٤)
 مَا فِي هَوَادِجِكُمْ عَنْ مَهْجَتِي عِيَوضٌ»

إِنْ مِتُّ شَوْقًا وَلَا فِيهَا لَهَا ثَمَنٌ »

فإن كان المشوق إليها إنسان أبى العشائر فعلها أيضا كانت ذات دالة عند آل سيف الدولة . وقد رأى أبو الطيّب خولة ، وكانت كبرى أختي سيف الدولة ، وذلك قوله :

«فَمَا تَقْلَدَ بَالِيَا قُسُوتٍ مُشْبِهِيهَا وَلَا تَقْلَدَ بِالْهِنْدِيَّةِ الْقُضْبِ
وَلَا ذَكَرْتُ جَمِيلاً مِنْ صَنَائِعِهَا إِلَّا بِكَيْتٍ وَلَا وَدٌّ بِلَا سَبَبٍ (٥)
قَدْ كَانَ كُلُّ حِجَابٍ دُونَ رُؤْيَيْتِهَا
فَهَلْ قَنِعَتْ لَهَا يَا أَرْضُ بِالْحُجْبِ
وَلَا رَأَيْتِ عِيُونَ الْإِنْسِ تُدْرِكُهَا
فَهَلْ حَسَدَتْ عَلَيْهَا أَعْيُنَ الشُّهْبِ»

— ولم يقل تبصرها وما صنع أدق —

«وَهَلْ سَمِعَتْ سَلَاماً لِي أَلَمْ يَهَيَّأْ

فَقَدْ أَطْلُتُ وَمَا سَلَّمْتُ مِنْ كَثَبِ»
وإن جاز أن يكنى بها عن سيف الدولة جاز أن يكنى به عنها أو عن سواها من يمت إليهما متى سلم له السياق بذلك. قال أبو منصور: «وماله يُسلم على حُرْمِ الملوكة ويذكر منهن ما يذكره المتغزل»
«وَكَيْفَ يَبْلُغُ مَوْتَانَا الَّتِي دُفِنَتْ وَقَدْ يُقَصِّرُ عَنْ أَحْيَانَا الْغَيْبِ»
قال العكبري: «يُعرض بسيف الدولة وأنه يقصر سلامه دونه . وأنكر ابن (٦) فورجة هذا التعريض ، وقال : هو على عمومه ، يريد أن السلام يقصر عن الحى الغائب فكيف عن الميت ، وليس فى الكلام سيف الدولة . » أ . ه .
وصدق ليس فى الكلام سيف الدولة ولكن حياً غائباً آخر ..

«يَا أَحْسَنَ الصَّبْرِ زُرْ أَوَّلَى الْقُلُوبِ يَهَيَّأْ

وهو سيف الدولة ، أو أبو الطيّب . ثم سيف الدولة بعد أنفع السحب ، وفى الكلام ، كما لا يخفى ، دعاء بالسقيا :

«وَقُلْ لِّصَاحِبِهِ يَا أَنْفَعَ السُّحُبِ»

وما أشبه أن تكون خولة قد كانت بَرَزَةً ذات حجب للمهابة والإمارة وكانت لها صنائع . وكان أبو الطيّب يُدعى بها ويسلم عليها أدبا وتكريمًا ويدكر حسن ابتسامها فضيلة لها :

« بلى وحرمة من كانت مُرَاعِيَةً لِحُرْمَةِ الْمَجْدِ وَالْقُصَادِ وَالْأَدَبِ »
وَمَنْ مَضَتْ غَيْرَ مَوْرُوثٍ خَلَاتُهَا

وَلِنْ مَضَتْ يَدَهَا مَوْرُوثَةُ النَّشَبِ
وَهَمَّهَا فِي الْعُلَى وَالْمَجْدِ نَاشِئَةٌ

وَهَمْ أَتْرَابُهَا فِي اللَّهِوِ وَاللَّعِبِ »

— وإذن فقد تقدمت بها السن —

يَعْلَمُنَ حِينَ تُحَيَّا حُسْنَ مَبْسِمِهَا وَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهَ بِالشَّئِبِ
قال أبو منصور : « وكان أبو بكر الخوارزمي يقول لو عزاني لإنسان

عن حرمة لي يمثل هذا لأخفته بها وضربت عنقه على قبرها . » وخفي عنه ما في الفضيحة من ضرب عنق رجل على قبر حرمة له . وهذا يَجْحُجُ لَزَجٌ وكان قد ألمَّ ببلاط سيف الدولة منتجعاً فمأعدا ههنا أن ذمه وهو إنما يريد ذم أبي الطيّب فتأمل .. وكالذي ذهب إليه كان يفعله البيهقي (٧) حين يتهمون أسود منهم بأمرأة بيضاء ، يؤمر بقدر فيملاها ماءً ويوقدُها حتى إذا غلت أمير قد خلها حتى إذا همدو بردت ، حملها أصحابه فألقوا جنازته المنضجة على قبر البيضاء لتأكلها السباع — وتكون هي قد قتلت بالسم فيقال انتحرت أو ماتت موتاً طبيعياً . وقد تكون هي أمرت الأسود فأطاع ، كالذي رامت امرأة العزيز وصواحبها من يوسف فعصمه العاصم وقال أبو الطيّب :

« مَسْرَّةٌ فِي قُلُوبِ الطَّيِّبِ مَفْرَقُهَا وَحَسْرَةٌ فِي قُلُوبِ الْبَيْضِ وَالْيَلْبِ »
يَلْبُ الدَّرُوعِ الْيَمَانِيَةِ وَالْبَيْضُ الْخُودَاتِ . وهذا البيت من شواهد أنها

مُسِنَّةٌ ، قد تضع من ثوبها غير متبرجة بزينة لتضع من الطيب على مفرقها وقد يكون من طيب ذات المودج . وفي البيت صفة مشاهد . وأغضى عنه أبو منصور أن يجعله من باب إساعة الأدب بالأدب وجعله في باب إبعاد

الاستعارة والخروج بها عن حدّها ، قال : « فجعل للطيّبِ والبَيّضِ
والْيَدَبِ قُلُوبًا »

« إِذَا رَأَى وَرَأَاهَا رَأَسَ لَابِسِهِ رَأَى الْمُقَانِعَ أَعْلَى مِنْهُ فِي الرُّتَبِ »
ورأس مفعول به لرأى الأولى . وفي البتين تفضيل لخولة على الرجال ،
مطلق العموم ، وأخوها مستثنى — أم لعلّه فيهم — بحكم السياق . وهذا كقوله :
« فَمَا تَقَلَّدَ بِالْيَاقُوتِ مُشَبِّهُهَا وَلَا تَقَلَّدَ بِالْهِنْدِيَّةِ الْقُضْبِ »

وفي تكرار هذا المعنى إشعار بالجلال معرفة وسابقة من معروف وود . ولعلّ
خولة كانت تشفع لأبى الطيّب عند أخيها وتدافع عنه من كيد أبى فراس
وآله وتعلم من أمر ذات الهودج وتصون .

وكان سيف الدولة قد جزع لوفاة أخته الصغرى أيام أبو الطيّب بحلب ،
فعزاه أبو الطيّب بلاميته :

« إِنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِي الرِّزْيَةِ فَضْلًا تَكُنْ الْأَفْضَلُ الْأَعَزَّ الْأَجَلًا »
قاسمتك المنون شخصين جوراً جعل القسم نفسه فيك عدلاً
أى أخذها ما أخذت جوراً وتركها ما تركت عدلاً — لا أنّ الكبرى
أحبّ إلى سيف الدولة من الصغرى . —

« فَإِذَا قِيسَتْ مَا أَخَذْنَا بِمَا أَغْدَرْنَا سَرَرَى عَنِ الْفُؤَادِ وَسَلَّى »
لأنّهنّ أبقيته وأبقينها . والفؤاد ههنا فيه عموم مطلق ؛ فؤاد سيف الدولة
وفؤاد أبى الطيب وهلم جرا . ولا يخلو سيف الدولة أن يكون قد أنشد هذه
اللامية أو أنشدها لما ألمّت مصيبة الكبرى بعد بين أبى الطيّب ، فحنّ إلى
عزاء منه أو أشير عليه بذلك . . أشار عليه أبو العشائر مثلاً ، فكتب إليه
ينعاه ، فذلك قوله :

« طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبَرٌ فَرَزَعْتُ مِنْهُ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ »
حتى إذا لم يدع لي صيدقه أملاً شرقت بالدّع حتى كاد يشرق بي

أى حتى أختلط النخيج بالعبرات وتناثر الدمع فهذا قوله : « كاد يشرق بى »
وأخذه من قول امرئ القيس :

« كَأَتَى غَدَاةَ الْبَسِينِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا لِدَى سَمُرَاتِ الْحَيِّ نَاقُفٌ حَنِظُلٍ »
ومن صورة من صور صباه ظلت عاتقة فى ذهنه — يدلك على ذلك أنه لم
يقبل حتى شرق بى ، واكن كاد يشرق بى ، وفى هذا علاج وحركة
ومكابدة كما ترى .

« تعثرت به فى الأفواه ألسنها (٨)

وَالْبُرْدُ فِي الطَّرْقِ وَالْأَقْلَامُ وَالْكُتُبُ »

كَأَنَّهُ ههنا يرى أفواهاً تَتَعَثَّرُ بنعيتها وَبَرِيداً يَسْتَنُ فى طرق يعلم وَأَقْلَاماً
فى أَكْفِ بين حلب وَأَنْطَاكِيَّةِ وَخُدُودِ الْغَانِيَاتِ وفوقها الدموع «دموع» (٩)
تُذِيبُ الْكُحْلَ فى الأعين النجل . .
تَبِيلُ الثَّرَى سُوداً من الْمِسْكِ وحده

وقد قَطَرَتْ حُمْراً عَلَى الشَّعْرِ الْجَثَلِ »

وذلك أَنَّهَا اختلطت بالدم — دم حمرة الحدود يرف ضوءها عليها وهى
تسقط على الشعر الجثل ، ثم يخالطها سواده وسواد المسك فيجعله الشاعر
أفواها فى المدام .

« شَرِفْتُ بِالْدمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي »

أم يذكر أبو الطيب عهد إذ نعت جدته لأُمِّه ؟!
غِيْبَتِهِ فكتب إليها كتاباً فلمَّا وصلها قبلته وفرحت وكانت قد يئست منه لطول
وَحُمَتٍ من وقتها لما غلب عليها السرور فماتت .

« يَقُولُونَ لِي مَا أَنْتَ فى كُلِّ بَلَدَةٍ وَمَا تَبْتَغِي ؟ ! مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسَمَّى
كَأَنَّ بَنِيهِمْ عَالِمُونَ بِأَنْنَسِي جُلُوبُ إِلَيْهِمْ من معادنيه أَلَيْسَمَا »
وذلك أَنَّهُ خَيْرَ الْيَتَمِ . تَوَفَّى أبوه حين ترعرع وبرع . وأُمُّه من قَبْلُ أو بعدُ ،
وَجَدَّتُهُ الَّتِي صَفَتْ كِتَابَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الْآنَ إِنَّمَا هِيَ من معدن كتابه إليها :

أَتَاهَا كِتَابِي بَعْدَ يَأْسٍ وَتَرْحَةٍ فَمَاتَتْ سُوراً بِي فَمُتْ بِهَا غَمّاً
 حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي السُّرُورُ فَإِنِّي أَعُدُّ الَّذِي مَاتَتْ بِهِ بَعْدَهَا سُمّاً
 تَعَجَّبُ مِنْ خَطِيٍّ وَلَفْظِي كَأَنَّهَا تَرَى بِحُرُوفِ السَّطْرِ أُغْرِبَةً عَصْماً
 وَتَلَدَّ شَمُهُ حَتَّى أَصَارَ مِسْدَادُهُ مَحَاجِرَ عَيْنَيْهَا وَأُنْيَابَهَا سُحْماً
 وَقَدْ هَزَىءَ الدُّكْتُورُ طَهَ مِنْ جَمِيعِ هَذَا بِأَنَّ الْمَدَادَ الَّذِي أَصَارَ مُحَاجِرَ عَيْنَيْهَا
 وَأُنْيَابَهَا سُحْماً لَعَلَّهُ هُوَ الَّذِي قَتَلَهَا . وهذا فرض بعيد إذ الغالب في مداد
 البدو أن يكون من السَّكَنِ -- أي سواد النار -- مع الصمغ . قال الجوهري
 في مادة صمغ : « وَحِبْرٌ مُصَمَّغٌ أَيْ مُتَّخَذٌ مِنْهُ » .

وقد مزج أبو الطيب مزجاً مذهلاً كما ترى بين صورة سرورها بكتابه
 وما كان يأمل من فرح لقاءها وعناقها -- كمزجه ههنا بين شرقة بالدمع به
 وتعرُّ أفواه من يحب بمنعى خولة .. نَعَيْنُهَا إِلَيْهِ فِيمَا بَيْنَ أَنْطَاكِيَّةٍ وَحَلَبٍ .

وقد كانت جَدَّةُ أَبِي الطَّيِّبِ قَارِئَةٌ كَاتِبَةٌ -- وَكَأَنَّهُ كَانَتْ مِنْ خَوْلَةٍ فِيهَا (١٠)
 مشابه من حزم وكرم نفس وقوة شخصية وحبٌّ لأبي الطيب وعطف عليه
 « وَمَا انْسَدَّتْ الدُّنْيَا عَلَى لَضِيقِهَا وَلَكِنْ طَرَفًا لَا أُرَاكَ بِهِ أَعْمَى
 فَوَ أَسْفَا أَلَا أَكْبَ مَقْبَلًا لِرَأْسِكَ وَالصَّدْرُ اللَّذِي مُلْئَا حَزْماً (١١)
 وَ أَلَا أَلَا قَى رُوحَكَ الطَّيِّبَ الَّذِي كَأَنَّ ذِكْرِيَّ الْمَسْكُ كَانَ لَهُ جِسْماً
 وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتِ أَكْرَمِ وَالِدٍ لَكَيْتَ أَنَّ أَبَاكَ الضَّخْمَ كَوْنُكَ لِي أَمَّا
 وَرَبِّمَا كَانَ مِنْ آيَةٍ حَزَمَهَا أَنَّهَا رَامَتْ صَدَّهَ عَنِ الشَّامِ إِذْ عَادَ إِلَى الْكُوفَةِ بَعْدَ
 مَوْتِ أَبِيهِ . وزعم أبو العلاء في الغفران أَنَّ أَوَّلَ طُلُوعِهِ الشَّامَ كَانَ عَامَ أَحَدٍ
 وَعَشْرِينَ وَثَلَاثِينَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانَ عَشْرَةَ ، وَأَنَّهُ عَادَ بَعْدُ إِلَى الْعِرَاقِ فَلَمْ يَقُمْ إِلَّا
 قَلِيلاً وَذَلِكَ حِينَ نَظَّمَ كَلِمَتَهُ :

« كَفَيْتِ أَرَانِي وَيَكْ لَوْ مَكَ الْيَوْمَا »

والراجح ما ذكره الثعالبي وهو أقرب داراً وعهداً بمبدأ أمر أبي الطيب
 ومنتهاه ، قال : « ذَكَرَتِ الرُّوَاةُ أَنَّهُ وُلِدَ بِالْكُوفَةِ فِي كِنْدَةَ سَنَةِ ثَلَاثِ

وثلاثمائة وأنَّ أباه سافر إلى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها ومن مدرها إلى وبرها ويسلمه في المكاتب ويردِّده في القبائل، ومخايله نواطق بالحسنى عنه وضوا من النجح فيه حتى توفي أبوه وقد ترعرع أبو الطيّب وشاعراً وبرَّع الخ . . . فهذا خبر مثبت كما ترى . ويجوز أنْ نظمت هذه الميمية بعد وفاة أبيه وقبل دعواه مادعى ببادية الشام ، قال أبو العلاء : « وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من دونه ، وإنما هي مقادير » .

وتكون عودته إليها بعد خروجه من السجن بزمان
«أردتُ لِمَا حَظَّأْتُ وَفَاتَنِي وَقَدْ رَضِيتُ بِي لَو رَضِيتُ بِهَا قَسَمًا»
وهذا يدلُّ على أنَّها وحدها التي بقيت من أهله .
ولعلَّه كان من بيت فضل ودين إذ لا يسلمه أبوه إلى المكاتب ، وتكون
جَدَّتُهُ تَقْرَأُ :

« تَعَجَّبُ مِنْ خَطِّي وَلَقِطِي كَأَنَّهَُا

تَرَى بِحُرُوفِ السَّطْرِ أَغْرِبَهُ عَضْمًا » (١٢)
ويكون مع ذلك من أجلاف البدو . وبل ربَّما يدلُّ هذا على أنَّهم كانوا من
مشايخ الحىِّ الذى كانوا فيه من كندة وأكثرها ما يكون المشايخ من قريش ،
قد ينتسبون فى القبيلة التى يصحبونها وتختلف حالهم فى الفقر والغنى بحسب
أحوال القبيلة وأحوال بعضهم من بعض . ولا يقدح فى الذى نطن ههنا ما قيل
من أن أباه كان سقاءً فقد يضطر البدوى إلى أن يكون سقاء بالحاضرة وليس
ذلك بناقصه عند نفسه أو عند قبيلته . وما أشبه أن يكون البغداديون قد
أصقوا هذا بأبى الطيّب كما ألقىوه بأبى تمام كأنه نيز ينزون به كلَّ من
قدم عليهم من فضلاء البدو ففلج أمره . وقد ألمع ابن خلكان إلى شيء من
سِنِّهِ هذا المعنى فى معرض ترجمته له ولأبى تمام .

وفى شعر أبى الطيّب مما يدلُّ على كرم أصله شواهد مثل قوله :
«لَا يَقُومِي شَرَفْتُ بَلْ شَرُّفُوا بِي وَبَنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
وَبِهِمْ فَخَرُّ كُلِّ مَنْ تَنَطَّقَ الضَّأ دَوْغُوْتُ الْجَنَانِي وَعَوْنُ الطَّرِيدِ»

وكقوله :

«وَأَسْتُ بِقَانِعٍ مِّنْ كُلِّ فَخْرٍ بِأَنْ أُعْزَى إِلَى جَدِّ هُمَامٍ»
فهذا يدلُّ على افتخار بالجدود . . . وكذلك قوله :

«أَتَانِي وَعِيدُ الْأَدْعِيَاءِ وَأَنْتَهُمْ أَعْدُوا لِي السُّودَانِ فِي كَفْرِ عَاقِبٍ»
فلو كان دَعِيًّا ما قاله ، وقد كثرت القالة فيه فما ذكروا أَنَّهُ دَعِيٌّ . (١٣)
ولم يكن ليقول في ابن كيغلغ :

«وَأَرْفُقُ بِنَفْسِكَ إِن خَلَقْتُكَ نَاقِصٌ وَاسْتَرُ أَبَاكَ فَإِنَّ أَصْلَاكَ مُظْلِمٌ»
وقال أبو العلاء في رسالة الغفران : «وقد دلّت أشياء في ديوانه أَنَّهُ
كان مُتَأَلِّهاً ومثل غيره من الناس مُتَدَلِّهاً ، فمن ذلك قوله : (١٤)
«وَلَا قَبِيلًا إِلَّا لِحَالِقِهِ حُكْمًا»

وقوله :

«مَا أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُخْزِي خَلِيقَتَهُ وَلَا يُصَدِّقَ قَوْمًا فِي الذِّى زَعَمُوا»
الخ ما قال « - ولكأنَّ أبا العلاء ما أراد بقوله « ومثل غيره من الناس » أحدا
سوى نفسه . قياسا على قوله على لسان لبيد بن ربيعة في بيته :
«تَرَاكَ أُمُكِّنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَ هَمَّا أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضُ النَّفْسِ حِمَامُهَا»
(وإنَّما أردت نفسى ، وهذا كما تقول للرجل إذا ذهب مالك أعطاك
بعض الناس مالا وأنت تعنى نفسك فى الحقيقة ، وظاهر الكلام واقع على كل
إنسان .)

وقد كان أبو العلاء من بيت علم ودين فى الحضر . . وفى شعر أبى
الطيب تصوف كثير راسخ من لدن قال :

«أَنَا مُبْصِرٌ وَأُظُنُّ أَنِّى نَائِمٌ مِنْ كَانَ يَحْلَمُ بِالْإِلَهِ فَأَحْلَمَا»
«فإن يكن المهدى من بان هدىه فهذا وإلّا فالهدى ذا فما المهدى»
يُعَلِّسُنَا هَذَا الزَّمَانُ بِيَدِ الْوَعْدِ وَيَخْدَعُ عَمَّا فِي يَدَيْهِ مِنَ النَّقْدِ

إلى أن قال :

« هل الخَيْرُ شَيْءٌ لَيْسَ بِالْخَيْرِ غَائِبٌ »

أَمْ الرُّشْدُ شَيْءٌ غَائِبٌ لَيْسَ بِالرُّشْدِ »

هل كان أبو الطيّب يُعَلِّلُ نفسه لضرب من المهدية ؟!

أم لم تكن نبوته التي ادعى في الحق إلّا مهديّة صوفيّة السُّنخ ثم نبذة من بعد كما ينبز الشعراء . .

« وَإِنِّي لَمَنْ قَوْمُ كَأَنَّ نَفْسَهُمْ »

بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا »

هل كان أبو الطيّب كاذباً ، كما احتس أبو العلاء لنفسه إذ قال

« وَاذَا رُجِعَ لِلْحَقَائِقِ فَإِنَّ نَطْقَ اللِّسَانِ لَا يَنْبِئُ عَنْ اعْتِقَادِ الْإِنْسَانِ ، لِأَنَّ الْعَالَمَ مَجْبُولٌ عَلَى الْكَذِبِ وَالنِّفَاقِ الْخ »

« كَذَبَا أَنَا يَا دُنْيَا إِذَا شِئْتِ فَاذْهَبِي »

وَيَا نَفْسُ زِيْدِي فِي كِرَائِبِهَا قُدَمَا

فَلَا عَبَرْتُ بِي سَاعَةً لَا تُعْزِيْنِي وَلَا صَحْبَتُنِي مُهْجَةً تُقْبَلُ الظَّلَامَا
وَإِذَا صَدَقَ فِي هَذَا فَلِمَ يَكُونُ كَذَبَ فِي ذَاكَ ؟

« إِلَى أَى حِينِ أَنْتِ فِي زَى مُحْرَمٍ وَحَتَّى مَتَى فِي شِقْوَةٍ وَإِلَى كَمِ »

وإِنْ لَا تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مَكْرَمَا

تَمُتْ وَتُقَاسِ الدُّلَّ غَيْرَ مُكْرَمِ

فَتِيبُ وَائْتِ بِاللَّهْمَا وَثَبَّةً مَاجِدِ

يرى الموتُ في الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ »

هيهات ذلك الزمان إذ يهيبُء نفسه للخروج في مثل سن مسلم ابن عقيل (١٥)

ومن زمانه وهو يمدح دليز بن لشكروز ويذكر عهد البيضاء : (١٦)

« فَلَا تَنْدُكَ أَلْيَا لِي إِنْ أَيْدِيهَا إِذَا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ النَّبْعَ بِالْغَرْبِ (١٧)

وَلَا يُعْنِ عَدُوًّا بَسَتْ قَاهِرَهُ فَانْهَنَّا يَصِيدُن الصَّفَرَ بِالْخَرْبِ

وَأَنْ سَرَرْنَ بِمَحْبُوبٍ فَجَعْنُ بِهِ وَقَدْ أَتَيْتُكَ فِي الْحَالَيْنِ بِالْعَجَبِ

وَرُبَّمَا احْتَسَبَ الْإِنْسَانُ غَايَتَهَا وَفَاجَأَتْهُ بِأَمْرِ غَيْرٍ مُّحْتَسَبٍ
 هل كان أبو الطيّب يؤمل العودة إلى حلب ؟ !
 وَمَا قَضَى أَحَدٌ مِنْهَا لُبَّانَتَهُ وَمَا انْتَهَى أَرْبٌ إِلَّا إِلَى أَرْبٍ
 وهذا ينبىء عن قلق فى الأعماق . .
 « تَخَالَفَ النَّاسَ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ »

إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالْخِلْفِ فِي الشَّجَبِ
 فَفَقِيلَ تَخَالُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً
 وَقِيلَ تَشْرَكَ جِسْمُ الْمَرْءِ فِي الْعُطَبِ
 وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا وَمُهَنْجَتِهِ

أَقَامَهُ الْفَكْرَ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالتَّعَبِ
 غناء وعزاء وحديث حزين . لعلّما كان تحدث ببعضه إلى أبى نصر
 الفارابى أول سنتيه مع سيف الدولة .
 (١٨)

« تَقُولِينَ مَا فِي النَّاسِ مِثْلُكَ عَاشِقٌ »
 جَدَى مِثْلَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ تَجْدِى مِثْلِي
 مُحِبُّ كُنْتُ بِالْبَيْضِ عَنْ مَرْهَقَاتِهِ

وبالحُسْنِ فِي أَجْسَامِهِنَّ عَنْ الصَّقْلِ
 وبالسُّمْرِ عَنْ سُمْرِ الْقَنَا غَيْرَ أَنْنِي
 جَنَاهَا أَحِبَّائِي وَأَطْرَافُهَا رُسُلِي
 ذَرَيْنِي أَنْلَ مَا لَا يُنَالُ مِنَ الْعُلَى
 فَصَعَبُ الْعُلَى فِي الصَّعْبِ وَالسَّهْلُ فِي السَّهْلِ

تُرِيدِينَ لِقْيَانَ الْمَعَالَى رَخِيصَةً
 وَلَا بَدْءَ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ
 وما هو إلا أن جاءه كتاب سيف الدولة يستدعيه . .
 « وَلَيْسَ التَّذَى يَتَّبَعُ الْوَبْلَ رَائِدًا كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ الْوَبْلِ »

وما أنا ممن يدعي الشوق قلبه

ويحتج في ترك الزيارة بالشغل

ولكنه احتج : —

« وَمَا عَاقَنِي غَيْرُ قَوْلِ الْوُشَاةِ وَإِنَّ الْوِشَايَاتِ طُرُقَ الْكَيْدِ »
وفهم سيف الدولة أن هذا رفض ، وعمل أعداء أبي الطيب على تأكيد
هذا الفهم وكادوه به الكيد القاتل . وكان اتجاه أبي الطيب إلى فارس يريد
عَضُدَ الدَّوْلَةِ قد قَوَّى حُجَّتَهُمْ .

على أنَّ الراجح أنَّ أبا الطيب ما اتجه إلى فارس وهو يلتمس لنفسه أن
يُرَوَّى في الأمر . . . أيعود أم لا . . .

« وَمَا قَسَنْتُ كَيْلَ مُلُوكِ الْبِلَادِ فِدَعُ ذِكْرِ بَعْضِ بَنِي حَلَبِ »
وكانَّ أعداءه أحسوا هذا من قصده أو توقعوه فعملوا على أن يحولوا
دونه . . . وكان أبو فراس في الأسر إلاَّ أنَّه قد خُفِّفَ عنه وأُذِنَ له في
الحركة ، وهادن الدمستق وفاوضه . . .

« أَرَى الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمَشْرِكِ نَإِمًا لَعَجَزُ وَإِمًا رَهَبُ

وَأَنْتَ مَعَ اللَّهِ فِي جَانِبِ وَدَانَ الْبَرِيَّةُ بَابُنْ وَأَبِ

وكانت سخينة أمه ، وابنتها ومن حولهما ، كل أولئك يوافونه بأنباء (١٩)

أبي الطيب وما كان من أمره . وكتب إلى سيف الدولة يعرض بلاشك ،
بانصراف أبي الطيب عنه إلى المشرق : « مفاداتي أن تعذرت فأذن لي في
مكاتبة أهل خراسان ومراسلتهم ليفادوني وينوبوا عنك في أمري » قال
أبو منصور « فأجابه سيف الدولة بكلام حسن وقال ومن يعرفك بخراسان ؟ !
فكتب إليه أبو فراس : أسيف الهدى وقريع العرب الخ »

والقصيدة كما ترى مجازاة لبائية أبي الطيب وفيها يقول :

« وَإِنَّ خُرَّاسَانَ إِنْ أَنْكَرَتْ عُسْلَايَ فَقَدْ عَرَفَتْهَا حَلَبُ
وَمِنْ أَيْنَ يُنْكَرُنِي الْأُبْعَدُونَ أَمِنْ نَقْصٍ جَدُّ أَمِنْ نَقْصِ أَبِ

أَلَسْتُ وَ إِيَّاكَ مِنْ أُسْرَةٍ وَبَيْنِي وَبَيْنَكَ عِزْرٌ النَّسَبُ
ولعلّه لم يبعث إليه بكتاب وإنما بعث بهذه القصيدة بدءاً .

ومما يقوّى أَنَّ بعض ذوى أبى فراس ومن يكون على رأيهم حدّس أن
أبا الطيّب عائد إلى حلب ، أبيات قيل أنها وجدت فى رحل أبى الطيّب ، من
الشعر الذى ليس فى ديوانه ، منها كلمة مطلعها :

« أَفَيْقَا خُمَارُ الْهَمِّ بَغْضَنِى الْخُمْرَا وَسُكْرَى مِنَ الْأَيَّامِ جَنَّبَنِى السُّكْرَا »
حوكى فيها أسلوب أبى الطيّب ليس به ، وفيها من ذم كافور :

« نَوَيْبِيَّةٌ لَمْ تَدْرُ أَنَّ بُنْيَهَا التَّوَيْبِيَّةُ دُونَ اللَّهِ يُعْبَدُ فِى مِصْرَا »
وهو من قوله « فالحر مستعبد والعبد معبود » وركاكة « دون الله »
ورقاعتها لاتفى ولو كان كافور نوبيا لقال أبو الطيّب « كأن الأسود النوبى »
ولم يقل « اللابى » وكان يعرف أنّه من الجبال وأنّه من جنس السودان زنجى
لأنوبى وقد كان يعرف من أجناس مصر وما حولها كقوله « وَكُلُّ نَجَاحَةٍ (٢٠)
بُاجَاوِيَّةٌ » مثلاً . فالذى قال هذا جاهل بذلك لاريب .

وكلمة أخرى مطلعها :

« قَطَعْتُ بِسَيْرِى كُلَّ يَهْمَاءٍ مَفْرَعٍ وَجَبْتُ بِجَنَيْلِى كُلَّ صَرَمَاءٍ بَلْقَعٍ »
وفيها من ذم كافور :

« أَقِيمِ عَلَى عَبْدٍ خَصِيٍّ مُنَافِقٍ لَيْمٍ رَدِىءِ الْفَعْلِ لِلْجُودِ مُدَّعٍ »
وهذا من قول أبى الطيّب « إِنِّى حَمَلْتُ بِكَذَابِىنِ الْخِ » وقوله « منافق
لئيم الخ » ضعيف . كما ترى وهذه الأبيات تشبه أسلوب أبى فراس وكان
بطبعه يقلد أبا الطيّب فإذا تعمد من ذلك شيئاً ما كان ليزيده التعمد كبير
خروج عن الديدن الذى درب عليه . ومما كان يقلد أبا الطيّب فيه ، مذهبه فى
تفخيم بعض المطالع مما يقع فيه عجز البيت كأنه استمرار لصدره أو صوت
بياربه ويجاوبه كقوله :

« عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِى الْعَزَائِمُ
وَتَأْتِى عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ »

وقوله :

« لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا
وَعَادَةُ سَيْفِ الدُّوَلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعَدَا »

وقوله :

« طَوَالَ قَنَا تَطَاعِنُهَا قِصَارُ وَقَطْرُكَ فِي وَغَى وَتَدَى بَحَارُ »
غير أنه كان متى استقام له صدر البيت كقوله :
« أَبِي غَرِبُ هَذَا الدِّمِغِ إِلَّا تَسِرُّعَا »
لحقه إعياء في عَجْزِهِ فجاء به كأنه تكرر له أو صدى فاطر منه كما في
قوله :

« وَمَكُونُ هَذَا الْحُبِّ إِلَّا تَضَوُّعَا »

وقوله :

« أَمَا لِحَمِيلٍ عِنْدَكَ ثَوَابُ وَمَا لِمُسَى عِنْدَكَ مَتَابُ »
وقوله :

« دَعَوْتُكَ لِلجَمْعِ الْقَرِيبِ الْمُسَهَّدِ إِلَى وَلِلنَّوْمِ الْقَلِيلِ الْمُشْتَرَدِ »
ومطالعا القصديدين من هذا السنيخ :
قوله :

« أَفَيَقَا خُمَارُ الْهَمِّ بَغَضَنِي الْخَمْرَا
وَسُكْرِي مِنَ الْإِيَّامِ جَنَّبَنِي السُّكْرَا »
العَجْزُ تكرر للصدر كما ترى من غير زيادة أو حسن تفریع .

وقوله :

« قَطَعْتُ بِسَيْرِي كُلَّ يَهْمَاءٍ مَفْزَعٍ وَجُبْتُ بِخَيْلِي كُلَّ صَرْمَاءٍ بَلْقَعٍ »
العَجْزُ أيضا تكرر للصدر جعل فيه الخيل مكان السير والصرماء البلقع
مكان الهيماء المفزع ، وهذا بعيد من نحو ما قدمنا من مطالع أبي الطيب ،
ومن نحو قوله :

« ذِي الْمَعَالِي فَلْيَعْلَوْنَ مَنْ تَعَالَى هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا »
وقوله :

« كَدَّ عَوَاكَ كُلُّ يَدٍّ عَيَّ صِحَّةَ الْعَقْلِ
وَمَنْذَأَ الَّذِي يَدْرِي بِمَا فِيهِ مِنْ جَهْلٍ »
وقوله :

« بَغَيْرِكَ رَاعِيًا عَبَثَ الذِّثَابُ وَغَيْرِكَ صَارِمًا ثَلَمَ الضَّرَابُ »
تأمل اختلاف معاني الأعباز عن معاني الصدور في كل ذلك أو ما يقع فيها من زيادة أو تفريع حين اشتداد الشابه .

هذا وكلتا هاتين القصيدتين اللتين نسبتا إلى أبي الطيب فيهما إلحاح على تفضيل سيف الدولة وإظهار الندم على فراقه كقوله :
« وَفَارَقْتُ خَيْرَ النَّاسِ قَاصِدَ شَرِّهِمْ وَأَكْرَمَهُمْ طَرًّا لِأَلَامِهِمْ طَرًّا
فَعَاقَبَنِي الْمَخْصِيُّ بِالْغَدْرِ جَازِيًا لِأَنَّ رَحِيلِي عَنْ كَانَ حَلَبٍ غَدْرًا »
وكقوله :

« وَقَدَّرْتُ مِنْ فَرْطِ الْجَهَالَةِ أَنِّي أَقِيمُ عَلَى كَيْدٍ رَصِيفٍ مُصَنَّعٍ
أَقِيمُ عَلَى عَبْدٍ خَصِيٍّ مُنَافِقٍ لَيْمٍ رَدِيءِ الْفَعْلِ لِلْجُودِ مُدَّعِي
وَأَتْرُكُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْمَلِكِ الرِّضَا كَرِيمِ الْمُحِبِّ أَرُوعَ وَابْنِ أَرُوعَ
مِمَّا كَانَتْهُ رَمَزٌ مِنْ صَنَعِ هَذَا الْكَلَامِ الْغَثُ (لله درأبي منصور إذ أعرض
عنه أعراضا فلم يذكر له وجودا وهو الذي قيل رواه فتأمل) عما كان (٢١)
يعتقده من نية أبي الطيب العودة إلى حلب بعد الانصراف من شيراز .

ومع الرمز نوع من الشماتة بمصرع أبي الطيب والسخرية به ، تحسه من محاكاة أسلوبه ، ونسبة ما لم يكن قط ليقوله في معارض ما كأنه كان يقول ، من ذلك مثلا :

« لَيْسَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ أَحْشَنَ مَلْبَسٍ
فَعَرَقَنِي نَابًا وَمَزَقَنِي ظُنْفَرًا »

وفى كل لحظ لي ومستمع نعمة
 يلاحظني شزرا ويسمعني هجرا
 سد كت بصرف الدهر طفلا ويافعا
 فأفنيته عزما ولم يفني صبرا
 أريد من الأيام ما لا يريد
 سواي ولا يجرى بخاطره فكرا

ومثلا :

«وثلمت سيفي في رؤوس وأذرع وحطمت رهي في نحور وأضلع
 وصبرت عزمي بعد رأيي رائدي وخالف آراء تواليت بمسمعي
 ولم أترك أمرا أخاف اغتياله ولا طمحت نفسي إلى غير مطمع»
 وكان جماعة سدكوا بأبي فراس يقترحون عليه، أخذا من ألفاظ (٢٢)
 أبي الطيب ومعانيه، وتحليلا لنفسيته بجهد ما تستطيعه نفسياتهم، وهو يصوغ.
 وأقل تأمل يربك مجازاة ميمته في جدته وسواها من نحو: «وما
 علمتني غير ما القلب عالمه» «أود من الأيام ما لا تودّه»
 «وأعلم قوما خالفوني فشقوا الخ» وهلم جرا .
 ومما جوري به هجاؤه كافورا :

«ومصر أعمري أهل كل عجيبة
 وما مثل ذا المخصي أعجوبة بكرة
 يعد إذا عدّ العجائب أولا
 كما يتدا في العد بالأصبع الصغرى

فيا هرم الدنيا ويا عبرة الوري
 ويأيتها المخصي من أم لك البطرا
 نويبية لم تدري أن بنيها النوي
 دون الله يعبد في مصر

وَيَسْتَخْدِمُ الْبَيْضَ الْكَوَاعِبَ كَالدُّمَى

وَرُومَ الْعَبْدَى وَالْغَطَارِفَةَ الْغُرَا (٢٣)
قَضَاءٌ مِنْ اللَّهِ الْعَظِيمِ أَرَادَهُ أَلَا رُبَّمَا كَانَتْ إِرَادَتُهُ شَرًّا

وليس في شيء من هذا نفحة أبي الطيب : والطنن على عقيدته في البيت الأخير لا يخفى كأنه من حكمه الفلسفية من طراز « تَمَتَّعَ مِنْ سُهَادٍ أَوْ رُقَادٍ » وَقِيلَ تَشْرُكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ « تَيَقَّنْتُ أَنَّ الْمَوْتَ ضَرَبُ مِنْ الْقَتْلِ » وقد تقدم ما ذكرنا من الخطأ في نعت كافور بأنه نوبى . وما كان أبو الطيب ليصف من هجاهم فقال « رَحِمَ وَرُومٌ وَبِهَاتِمٌ وَعَيْدَى » بقوله « الغطارفة الغرأ » فهذا هو العي والحصر - والاعتماد بعد على ألفاظ أبي الطيب لا يخفى .. « وَرُومَ الْعَبْدَى هَاطَلَاتُ غِمَامِهِ » « مُهْدَى الْكَوَاعِبِ وَالْجُرْدُ السَّلَاهِبِ » « وَخَلَّتِي الْعَذَارَى وَالْبَطَارِيْقُ وَالْقُرَى » « فَيَا شَوْقُ مَا أَبْقَى وَيَا لِي مِنَ النَّوَى » « أَقْوَمَهُ الْبَيْضُ أَمْ أَبَاؤُهُ الصَّيْدُ »

وأما قولهم :

« وَمَصْرُ لِعَمْرِي دَارُ كُلِّ عَجِيبَةٍ وَمَا مِثْلُ ذَا الْمَخْصِيِّ أُعْجُوبَةٌ بَكْرًا »
فمن « وماذا يَحْصِرُ مِنَ الْمُضْحِكَاتِ » و « أَفَدْتُ بَلَحِظِي مِشْفَرِيكَ الْمَلَاهِيَا » و « فَمَا يَفْعَلُ الْفَعَلَاتُ إِلَّا عِدَارِيَا »

وشاهد الإنحال بعد ، الصوتُ الصَّحِيلُ والتكرار في الأعجاز بعد (٢٤)
الصدور مما برىء المتنبي منه في شعر صباه فكيف بعد أن اشتد أسره واستمرت قواه والله دره إذ قال :

« وَمَا قُلْتُ مِنْ شِعْرِ تَكْنَادُ بَيُوتِهِ »

إِذَا كَتَبْتُ يَبْيِضُ مِنْ نُورِهَا الْحَبْرُ »

وإذ قال :

« بَلَعْتُ بِسَيِّفِ الدُّوَلَةِ النُّورَ رُتْبَةً أَثَرْتُ بِهَا مَا بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ »
إِذَا شَاءَ أَنْ يَكْهُوَ بِلَحِيَّةٍ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غِبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقُّ

وما كَمَدُ الحُسَّادِ شَيْئاً قَصَدْتُهْ وَلَمَكِنَّهْ مَنْ يُزَحِّمُ الْبَحْرَ يَغْرُقُ
ولعلَّ المجلس الذي انتحل القصيدتين انتظم بُعِيدَ خلاص أبي فراس
من الأسر ، في الفترة التي كان فيها فرحاً . . . قال أبو منصور : « لم تطل
أيام فرحته » . . لكن المؤامرة حيك منذ عهد بعيد « عشيّة شَرْقَى الحَدِّ إِلَى
وَعَرْبُ » وأحكمت أيامَ التخفيف ومهادنة الدمستق . .

« وَغَرَّ الدُّمُسْتُقُ قَوْلُ الْعُدَاةِ أَنْ عَيْلِيًّا ثَقِيلٌ وَصَبُّ
« وقد عَلِمْتَ خَيْلَهُ أَنَّهُ إِذَا هَمَّ وَهُوَ عَيْلِيلٌ رَكِبَ »

ولما قال أبو الطيّب :

« وقد رأيتُ الملوكَ قاطِبَةً وَسِرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مَوْلَاهَا »

وذكر الشامية التي ذكر فقال :

« شَامِيَّةٌ طَالَمَا لَمَسَتْ بِهَا تُبْصِرُ فِي نَظَائِرِ مُحْيَاهَا

فِيهِنَّ مَنْ تَقْطُرُ السَّيُوفُ دَمًا إِذَا لِسَانُ الْمُحِبِّ سَمَّاهَا »

أخذ الوشاة في التقليل والتكثير . وعاد أعداء أبي الطيّب إلى أسلوبهم
القديم من طاب الترخيص لهم في دمه . وكان آل حمدان منذ مبدأ أمرهم
فُتّاً كما لهم بالشعراء فتنة . ومن تغرير ابن حمدان مطاح ابن المعتز من قبل
وطاح ابن حمدان معه . ولعلَّ السامري ، إن كان حياً ، سعى في دم أبي
الطيّيب هذه المرّة كسعيه عشيّة يوم إنشاده الميمية « وأحرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ
شَبِمْ » . ولعلّه كان طرفاً من هذا الكيد أمرُ الجارية الرومية التي قيل « كان (٢٥)
سيف الدولة لا يرى الدنيا إلّا بها فحسدتها سائر حظاياها على لطف محلها منه
وأزمن إيقاع مكروه بها من سم أو غيره » فقال في ذلك :

« رَاقِبْتَنِي الْعَيُونُ فَيْكَ فَأَشْفَقْتُ وَلَمْ أَخْلُ قَطُّ مِنْ إِشْفَاقِ (٢٦)

وَرَأَيْتُ الْعَدُولَ يَحْسُدُنِي فَيْكَ مُجْدٍ يَا أَنْفَسَ الْأَعْلَاقِ »

إلى آخر ما قال . ولعلَّ العدول كانت أخت أبي فراس والجارية كانت
تودُّ آل أبي العشائر . ولعلّه كان لناصر الدولة بالموصل ضلع في هذا الأمر .
وكان مقام أبي الطيّب في فارس ما كان إلا حلماً :

«وَكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ مِنْ حَزَنِينَ يَقُولُ لَهُ قُدُومِي ذَا بَدَاكَ
وَمِنْ عَذَابِ الرُّضَابِ إِذَا أَنْخَنَّا يُقْبِلُ رَحْلَ تَرُوكَ وَالْوَرَاكَ
يُحَرِّمُ أَنْ يَمَسَّ الطَّيْسَ بَعْدَى وَقَدْ عَبَقَ الْعَبِيرُ بِهِ وَصَاكَ
وَيَمْنَعُ ثَغْرَهُ مِنْ كُلِّ صَبٍّ وَيَمْنَحُهُ الْبَشَامَةَ وَالْأَرَاكَ
يُحَدِّثُ مُقْلَتَيْهِ النَّوْمَ عَنِّي فَلَيْتَ النَّوْمَ حَدَّثَ عَنْ نَدَاكَ
وَلَنْ الْبُخْتِ لَا يُعْرِقُنِ إِلَّا وَقَدْ أَنْضَى الْعُذَافِرَةَ اللَّيْكََاكَ
وَمَا أَرْضَى لِمُقْلَتَيْهِ بِحُلْمٍ إِذَا انْتَبَهَتْ تَوَهَّمَهُ ابْتِشَاكَ»

وقد كان «المتنبه» كما كان يقول المغاربة فيما نقل ابن خلكان عن
أبي القاسم الوزير . فعلم أن الذي كان فيه جميعه حلم ، متى انتبه من (٢٧)
النوم ، وإنما كان نومه هو ، وجده ابتشاكاً أى كذاباً .

«فَزُلْ يَا بُعْدُ عَنْ أَيْدِي رِكَابٍ لَهَا وَقَعُ الْأَسِنَّةُ فِي حَشَاكَ
وَأَيَّا شَيْتٍ يَا طِرْفِي فَكُونِي أَذَاةً أَوْ نَجَاةً أَوْ هَلَاكًا»
قال أبو منصور ، ونص على أن هذه القصيدة آخر شعره وأمره «جعل
قافية البيت الملاك فهلك» — قال العكبري : « قيل أن عَصَدَ الدولة قال
تَطِيرْتُ عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِهِ النَجَاةُ بَيْنَ الْأَذَاةِ وَالْمَلَاكِ »

«فَلَوْ سِرْنَا فِي تَشْرِينَ خَمْسٍ رَأُونِي قَبْلَ أَنْ يَرَوْا السَّمَاءَ كَا»
قالوا « يشير إلى سرعة السير » قال العكبري فكأنه يقول : « إذا أخذ
السَّمَاءَ فِي الطَّلُوعِ وَأَخَذْتَ فِي السَّيْرِ سَبَقْتَهُ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ » ا . ه .

هذا على تقدير ردِّ الضمير من « رأوني » إلى أهله بالكوفة ، وطلوع
السماك في خمس تشرين (أكتوبر) — أم كان ينظر من عين الغيب إلى
الراصدين ليصرعوه عند دير العاقول . . . قبل أن يصل إلى بغداد فيتلشب به
الطريق إلى الكوفة فالشام .

وَرُوحُ الْحُلُمِ وَالْوَهْمِ وَالنَّشْوَةِ الْمَتَزَوِّدَةِ الْعَجَلَةِ . . .
انعم وكذا فلأمورٍ أو آخرُ أبدأ إذا كانت لُيْنٌ أوائلُ

لَّهُمْ آوِنَةٌ تَمَرُّ كَأَنَّهَا قُبُلٌ يَزُودُهَا حَبِيبٌ رَاحِلٌ
كل ذلك مستبين في شعره بفارس ، من لدن قال بُعِيدَ لِقَائِهِ
عَضُدَ الدَّوْلَةِ :

«أَوْهَ بَدِيلٌ مِّنْ قَوْلَتِي وَأَهَا لِمَنِ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا»
إلى أن قال فُبَيْل وداعه له :

«فَلَوْ أَنِّي اسْتَطَعْتُ خَفَضْتُ طَرْفِي وَهَذَا الشَّوْقُ قَبْلَ الْبَيْنِ سَيْفٌ
إِذَا التَّوْدِيعُ أَعْرَضَ قَالَ قَلْبِي وَلَوْلَا أَنَّهُ أَكْثَرَ مَا تَمَنَّى
قَدْ اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ وَكَمْ طَرِبَ الْمَسَامِعَ لَيْسَ يَدْرِي
إِذَا اشْتَبَهَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودِهَا وَقَدْ بَلَغَ الْحَلَمُ هَهُنَا أَوْجَهَهُ فَصَارَ نُبُوءَةً ، وَامْتَزَجَ فِيهِ الْحُزْنُ الْعَمِيقُ
عِنْدَ قَوْلِهِ :

«زُودُنَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِكَ مَاذَا مَوْحُسُنَ الْوُجُوهَ حَالُ تَحْوَلٍ»
بالبهجة الثملة في قوله !

«مَلَاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانٌ لَسَارَ بِتَرْجُمَانٍ
وَلَكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ
لَهَا ثَمَرٌ تُشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهَا بِأَشْرِبَةٍ وَقَفْنَ بِلَا أَوَانِي»
وكان أبو الطيب أتمل ما كان إذ نظم هذه القصيدة - أتمله الروض
الساحر والأمير المسحور . . . كم ودَّ لو أن سيف الدولة ارتفع إلى بعض
كفائته على حبه وعهده ووفائه له والشوق إلى أطيايف ذراه . . .

«وَأِنِّي لَا تُسَبِّحُ تَسْذَكَارَهُ صَلَاةَ الْإِلَهِ وَسَقَى السُّحْبُ
وَأُنَى عَلَيْهِ بِالْأَلَايَةِ وَأَقْرُبُ مِنْهُ نَأَى أَوْ قَرُبُ

وإن فارقَتْنِي أَمْطَارُهُ فَأَكْثَرُ غَدْرَانِهَا مَا نَضَبَ

وإنما كان غدرانها الشوق والجهد والذكريات :

أَرَوْضُ النَّاسِ مِنْ تَرْبٍ وَخَوْفٍ وَأَرْضُ أَبِي شُجَاعٍ مِنْ أَمَانٍ
تُذِمُّ عَلَى الْأَصْوَصِ لِكُلِّ تَجَرٍّ وَتَضْمَنُ لِلصَّوَارِمِ كُلِّ جَانٍ
واللصوص لقوه بعد أن فصّل من ملك فناخسرو . . . والجناة أصابوه
قبيل أن يدخل بغداد .

وما أيسر ماصرف الحافظ الذهبي نفسه عن قضية مصرع أبي الطيّب
إذ قال : في حوادث سنة ٣٥٤ هـ في كتابه العبر : « وفيها المتنبي شاعر العصر ،
أبو الطيّب أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي الكوفي ، في رمضان ، بين
شيراز والعراق ، وله إحدى وخمسون سنة ، قتله قطّاع الطرق ، وأخذوا
المال الذي كان معه ، وقد مدح عِدّة ملوك ، وقيل إنّه وصل إليه من ابن
العميد ثلاثون ألف دينار ، ومن عضد الدولة بشيراز مثلها ، وليس في العالم
أحد أشعر منه ، أما مثله فقليل » ا . هـ . والقليل عند أهل اللغة والمعدوم
كأنهما بمعنى .

أما قول الحافظ الذهبي : « قتله قُطّاع الطريق » فيندرج تحته تفكير
كثير مع انصراف عن الحرص على اتهام أحد ، والله تعالى أعلم .
« أَرَوْضُ النَّاسِ مِنْ تَرْبٍ وَخَوْفٍ وَأَرْضُ أَبِي شُجَاعٍ مِنْ أَمَانٍ
تُذِمُّ عَلَى اللَّصُوصِ لِكُلِّ تَجَرٍّ وَتَضْمَنُ لِلصَّوَارِمِ كُلِّ جَانٍ
إِذَا طَلَبَتْ وَدَائِعُهُمْ ثِقَاتٍ دُفِعْنَ إِلَى الْمَحَانِي وَالرَّعَانِ
فَبَيَّاتَتْ فَوْقَهُنَّ بِلَا حِجَابٍ تَصِيحُ بِنِ يَمْرُ أَمَّا تَرَانِي »
« حَمَى أَطْرَافَ فَارَسِ شَمَرِيٍّ يَحْضُّ عَلَى التَّبَاقِي بِالتَّمَانِي
بِضَرْبِ هَاجِ أَطْرَابِ الْمَنِيَا سِوَى ضَرْبِ الْمِثَالِثِ وَالْمِثَانِي » (٢٩)
أو كما قال :

« أَتَى الظُّعْنُ حَتَّى مَا تَطِيرُ رَشَاشَةٌ مِنْ الدَّمِ إِلَّا فِي نُحُورِ الْعَوَاتِقِ » (٣٠)

ثمَّ تجاوزت أصداء الماضي مع الحاضر . .

«كَأَنَّ دَمَ الْجَمَّاجِمِ فِي الْعَنَاصِي كَسَا الْبُلْدَانِ رِيَشَ الْحَيْقُطَانِ»
وهو طائر ذو ريش ألوان - وهذا كقوله من قبل «كالريحان تحت
الشقائق» - والأنعام والألوان ذكرت أبا الطيب حصي الثوية
والحدق الحسان . .

«فَلَوْ طُرِحَتْ قُلُوبُ الْعِشْقِ فِيهَا لَمَّا خَافَتْ مِنَ الْحَدَقِ الْحَسَانِ»
وغوطة دمشق والثرد اللبيق

«مَنَازِلُ لَمْ يَزَلْ مِنْهَا خِيَالٌ يُشِيعُنِي إِلَى النَّوْبَتِ دَجَانِ
إِذَا غَنَى الْحَمَامُ الْوَرَقُ فِيهَا أَجَابَتْهُ أَغَانِي الْقِيَانِ
وَمِنْ بِالشَّعْبِ أَحْوَجُ مِنْ حَمَامٍ إِذَا غَنَى وَنَاحَ إِلَى الْبِيَانِ»
إنَّ الحسام أقوى بيانا من القيان إذ هيَّجَ أبا الطيب فذكره الصحراء
فحنَّ إليها . . . أو من بالشعب هو أبو الطيب، ولا بد له من البيان إذا غنَّى
وناح ووَدَّ لو لم يقدر أن يبين . . . وإذن لسعد سعادة الحمام وسعادة القيان .
«وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوَصَفَانِ جِدًّا وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ
يَقُولُ بِشَعْبِ بَوَّانٍ حَصَانِي أَعَنْ هَذَا يُسَارُّ إِلَى الطَّعَانِ
أَبُوكُمْ آدَمُ سَنَ الْمَعَاصِي وَعَلَمَكُمُ مُفَارَقَةُ الْجِنَانِ»

إلى حلب عن طريق دَيْرِ العاقول .. !

(٣١)

« مَا أَجْدَرَ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي
بِأَنْ تَقُولَ مَالَهُ وَمَالِي
لَا أَنْ يَكُونَ هَكَذَا مَقَالِي
فَتَى بِنِيرَانِ الْحُرُوبِ صَالِي
مِنْهَا شَرَابِي وَبِهَا اغْتَسَالِي
لَا تَخْطُرُ الْفَحْشَاءُ لِي بِبَالِي »

وإنَّما وثب إلى هذا المعنى لاتصال فكرة الموت في الحرب — الاغتسال
الدم — بفكرة الاغتيال ، وهذا المعنى بعينه هو الذى فى الميمية حيث قال :
« ما أبعدَ العَيْبَ والنَّفْصَانِ عَنِّ شَرَفِي
أنا الثَّريَّا وذانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ »
وانحسر ثمل النوثية عن حزن يسير . . .

« سَقِيًّا لِدَشْتِ الْأَرْزَنِ الطُّوَالِ
بين المُرُوجِ الفَيْسَحِ وَالْأَغْيَالِ
مُجَاوِرِ الْحِزْبِ وَالرُّبَالِ
دَانِي الْخَنَاصِصِ مِنَ الْأَشْبَالِ
مُسْتَشْرِفِ الدُّبِّ عَلَى الْغَزَالِ
مُجْتَمِعِ الْأَضْدَادِ وَالْأَشْكَالِ »
— أخذ أبو العلاء من هنا فى رسالة الغفران والله أعلم —
« كَأَن فَنَّاخُسْرَ ذَا الْإِفْضَالِ
خَافَ عَلَيْهَا عَوَزَ الْكَمَالِ
فَجَاءَهُمَا بِالْفَيْلِ وَالْفَيْالِ »
« فَحَشْ نَجْدٌ مِنْهُ فِي بَلْبَالِ »
« نَوَافِرُ الضَّبَابِ وَالْأُورَالِ »
« وَالْخَاضِبَاتِ الرُّبْدِ وَالرُّئَالِ
وَالطَّبْنِ وَالْخَنَسَاءِ وَالذِّيَالِ
يَسْمَعْنَ مِنْ أَخْبَارِهِ الْأَزْوَالِ
مَا يَبْعَثُ الْخُرْسَ عَلَى السَّوَالِ »
« لَمْ يَبْقَ إِلَّا طَرْدُ السَّعَالِ
فِي الظُّلَمِ الْغَائِبَةِ الْهَلَالِ
عَلَى ظُهُورِ الْإِبِلِ الْأَبَالِ »

« فِي لَا مَكَانَ عِنْدَ لَا مَنَالِ »
« وَرُبَّ قَبْحٍ وَحُلِيٍّ ثَقَالِ »
أَحْسَنَ مِنْهَا الْحُسْنُ فِي الْمَعْطَالِ
فَخَرُّ الْفَتَى بِالنَّفْسِ وَالْأَفْعَالِ
مِنْ قَبْلِهِ بِالْعَمِّ وَالْأَخْوَالِ »

أترى أبا الطيب ههنا يأخذ على قومه العرب غلوهم في أمر الأنساب ؟
.. والمعنى قديم عنده ..

« أرى الأجداد تغلبها كثيرا على الأولاد أخلاق اللثام »
وحديثه في كافور من مجراه ... ولاريب أن الفضل الذي رأى
بفارس قد راعه ... وحسب المرء الفضائل فذلك أعلى من كل نسب ..
« قَالَتْ أَلَا تَصْحُو فَقُلْتُ لَهَا أَعَلِمْتَنِي أَنَّ الْهَوَى ثَمَلُ
لَا يَسْتَحِي أَحَدٌ يُقَالُ لَهُ فَضْلُكَ آلُ بُوَيْهِ أَوْ نَضَلُوا
قَدَرُوا وَعَقُّوا وَعَدُوا وَفَوَّاسُ لَوْ أَعْطَوْا عَكَوْا أَعَلَوْا وَلَوْ عَدَلُوا
فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ مَا طَلَبُوا فَإِذَا أَرَادُوا غَايَةَ نَزَلُوا
قَطَعَتْ مَكَارِمَهُمْ صَوَارِمَهُمْ فَإِذَا تَعَذَّرَ كَاذِبٌ قَبِلُوا
لَا يَشْهَرُونَ عَلَى مُخَالِفِهِمْ سَيِّفًا يَقُومُ مَقَامَهُ الْعَدْلُ
لَا أَقْبَلُوا سِرًّا وَلَا ظَفَرُوا غَدْرًا وَلَا نَصَرْتَهُمُ الْغِيْلُ (٣٢)
لَا تَلْقَ أَفْرَسَ مِنْكَ تَعْرِفُهُ إِلَّا إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الْحَيْلُ »
وقد يكون أفرس منك يُقْبَلُ سِرًّا ويظفر غَدْرًا وتنصره الغيالات ...
وقد ضاقت بأبي الطيب الحيل فحمل الجراز إلى البراز وما اياه يخشى ، فما
كان أحد في ذلك بأفرس منه .

وقد أحكم أعداؤه الخطّة كما لم يحكموها من قبل ..
« أَنَانِي وَعَيْدُ الْأَدْعِيَاءِ وَأَنَّهُمْ أَعْدَاؤُا لِي السُّودَانُ فِي كَفَرِ عَاقِبِ
وَلَوْ صَدَّقُوا فِي جَدِّهِمْ لَحَدَرْتُهُمْ فَهَلْ فِي وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ »

إذ كانوا حيراصا على أن يادروه قبل أن يصل هو إلى الذي رخص (٣٣)
 في دمه فيخلص خلاص الخسر من نسج الفدام . . ويعود الأمر جذعة :
 « فَوْتُ الْعَدُوِّ الَّذِي يَمَمَّتْهُ ظَفْرُ فِي طِيَّةِ أَسْفَ فِي طِيَّةِ نِعَمٍ
 قَدْ نَابَ عَنْكَ شَدِيدُ الْخَوْفِ وَأَصْطَنَعَتْ
 لَلَّكَ الْمَهَابَةُ مَا لَا تَصْنَعُ الْبُهِمُ
 يَا عَدْلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي
 فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصَمُ وَالْحَكَمُ
 أَعْيِدْهَا تَنْظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةٌ
 أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فَيَمْنِ شَحْمُهُ وَرَمُ . .
 وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَظَرِهِ . .
 أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدَبِي . . »

« قتلته قطاع الطرق » . . . بهذه العبارة الموجزة رفض الذهبي قصة
 انتقام فاتك وخبر « ما أنصف القوم ضبة » . . وهلم جرا .
 . . . زعم البديعي أن أبا الطيب « كان يكمّ نسبه فسئل عن ذلك فقال
 إني أنزل دائما على قبائل العرب وأحبُّ ألا يعرفوني خيفة أن يكون لهم في
 قومي ثأر » . ا . ه . كأن هذا فرع من خبر فاتك .

وكان سيف الدولة قريب السن من أبي الطيب . وما كان بقاؤه بعده
 إلا سنة وأشهرًا . قالوا مات بعسر البول وما بقي عنده من عزاء عنه بعد موته
 غير غبار القصائد التي صنعها فيه يحيئه به أبو فراس والمتشاعرون . . . وغير
 نفص غبار الغزوات التي غزاها وكان قد جمع منه « شيئا وعمله لبنة بقدر
 الكف وأوصى أن يوضع عليها خده فنفذت وصيته في ذلك »

« لَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ ضَجْعَةٍ لَا تَقْلِبُ الْمُضْجَعِ عَنْ جَنْبِهِ »
 « وَغَايَةُ الْمَفْرِطِ فِي سِلْمِهِ كَغَايَةِ الْمُفْرِطِ فِي حَرَبِهِ »

قال ابن خالويه — فيما روى ابن خلكان — «لما مات سيف الدولة عزم أبو فراس على التغلب على حمص، فأتصل خبره بأبي المعالي بن سيف الدولة و غلام أبيه فرغوية فأنفذوا إليه من قتله . وقد ضرب ضربات فمات في الطريق.» وفي الخبر اختزال وطئ كما ترى إذ كان ابن خالويه ضلعه مع (٣٤) أبي فراس.. وما كان أبو المعالي إلا ابن عشر وست أو خمس آنذاك. وعن بعضهم أن أبا فراس كان خاله . وليس بمحقق ، ويدل ذلك على ذلك أن ابن خالويه لا ينص عليه . قيل ولم يعلم — (ولعله قد علم) بقتل أبي فراس حين قتل و «بتيت جثته مطروحة بالبرية إلى أن جاء بعض الأعراب فكفنه ودفنه» — أو بعثهم أخلاء أبي فراس ليفعلوا ذلك . وذلك قول ابن خالويه « فمات في الطريق » . وما أشبه الأبيات : « زين الشباب أبو فراس » أن يكون صنعها وهو في أسر الروم ، إذ ليس فيها شيء يدل على قتله كما لاحظ ابن خلكان .

وأغلب الظن أن أبا فراس إنما أطاح في ثأر أبي الطيب وأن فتكة فرغوية ما كانت إلا عن ملائمة إحدى الممخبات اللاتي يضعن النفس (٣٥) أمكنة الغوالي لعنصر التشنى الذي فيها كما ترى . وقد كان لأبي الطيب عند غلمان سيف الدولة أياد كما كانت له عند مولاهاهم : مدحهم في معرض مدحه له كقوله يصف الجيش :

« حَوَالِيهِ بَحْرٌ لِلتَّجَافِيفِ مَائِجٌ يَسِيرُ بِهِ طَوْدٌ مِنْ الْخَيْلِ أَيْهَمُ
وَكُلُّهُ فِتْيٌ لِلْحَرْبِ فَوْقَ جَبِينِهِ مِنَ الضَّرْبِ سَطَرٌ بِالْأَسْنَةِ مُعْجَمٌ
يَمُدُّ يَدِيهِ فِي الْمُقَاضَاةِ ضَيْغَمٌ وَعَيْنِيهِ مِنْ تَحْتِ التَّرِيكَةِ أَرْقَمٌ »

ومدحهم برثائه الذي رثى يماك حيث قال :

« لَا بَقِيَّ يِمَّاكُ فِي فَوَادِي صَبَابَةٍ إِلَى كُلِّ تَرْكِي النَّجَارِ جَلِيبِ
وَمَا كُلُّ وَجْهِ أَبْيَضَ بِمُبَارَكٍ وَلَا كُلُّ جَفْنٍ ضَيَّقَ بِنَجِيبِ
لَشِنْ ظَهَرَتْ فِينَا عَلَيْهِ كِتَابَةٌ لَقَدْ ظَهَرَتْ فِي حَدِّ كُلِّ قَضِيبِ
وَفِي كُلِّ قَوْسٍ كُلُّ يَوْمٍ تَنَاضُلٍ وَفِي كُلِّ طَرَفٍ كُلُّ يَوْمٍ رُكُوبِ »

وإنّما عني بهذا رهطه من الأتراك إذ قد كان هو مستأً منهم بدليل قوله
 « وَأَوْفَى حَيَاةِ الْغَابِرِينَ لِصَاحِبِ حَيَاةٍ أَمْرِي خَانَتَهُ بَعْدَ مَشِيبٍ »
 وكان أبو الطيّب صاحب خيل وسهام وطراد فأغلب الظنّ أنّه كان
 قوياً الصلّة بغلمان مولاه . ولعلّ منهم من أعانه على الحرب ، ليلة غادر حلب
 وَمَنْ حَذَرَهُ مَا دَبَّرَهُ لَهُ حَزْبُ أَبِي فِرَاسٍ ، ليلة هُمّ باغتياله ... وقد كان
 شاعرهم إذ كان شاعر أميرهم . وإنّ كان سيف الدولة قد رخص في دمه
 فلا بدّ أن يكون قد ندم ندماً مضاً على ذلك . ومهما يك من الأمر فلا بدّ
 أنّه حزن لما بلغه موته وظهر ذلك منه .

وما كانت عداوة أبي فراس لأبي الطيّب يسرّ .
 ولما خرج أبو فراس بعد موت سيف الدولة كانت تلك فرصة الانتقام ..
 وما كانت ذات الهودج عنها يبعد ... والقِتْلَةُ الَّتِي قَتَلَهَا أَبُو فِرَاسٍ
 دَالَّةٌ عَلَى رُوحٍ مِنْ تَشَفٍّ مَرِيرٍ ..

« وَفِي تَعَبٍ مِنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءُهَا
 وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِيَ لَهَا بِضَرْبٍ »

رحمهم الله جميعاً إنّهُ غفور رحيم . .

قال أبو الطيب :

« يَقُولُ لِيَ الطَّيِّبُ أَكَلْتُ شَيْئًا وَدَاؤُكَ فِي شَرَايِكَ وَالطَّعَامِ
 وَمَا فِي طَبِّهِ أَتَى جَوَادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طَوْلُ الْجِمَامِ
 تَعَوَّدَ أَنْ يُغَبَّرَ فِي السَّرَايَا وَيَدْخُلَ مِنْ قَتَامٍ فِي قَتَامِ
 فَأَمْسَكَ لَا يُطَالُ لَهُ فَيَرْعَى وَلَا هُوَ فِي الْعَلِيقِ وَلَا الدِّجَامِ
 فَإِنْ أَمْرَضُ فَمَا مَرَضَ اضْطِبَارِي وَإِنْ أَحْمَمَ فَمَا حُمَّ اعْتَرَامِي
 وَأَنْ أَسْلَمَ فَمَا أَبْقَى وَلَكِنْ سَلِمْتُ مِنَ الْحِمَامِ إِلَى الْحِمَامِ »

فكان كما قال وكان يعلم ما يقول :

« تَمَتَّعَ مِنْ سُهَادٍ أَوْ رُقَادٍ وَلَا تَأْمُلْ كَرَى تَحْتَ الرِّجَامِ (٣٦) »

فَإِنَّ لِثَالِثِ الْحَالِسِينَ مَعْنَى سَيَوَى مَعْنَى انْتِبَاهِيكَ وَالْمَنَامُ
 قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ: « قَالَ ابْنُ جَنِّي أَرْجُو أَلَّا يَكُونَ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ نَوْمَةَ
 الْقَبْرِ لَا انْتِبَاهَ لَهَا . » وَلَمْ يُرَدِّ — عَلَى الْأَرْجَحِ — مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، إِنَّمَا أَرَادَ
 مَحْضُ التَّفَكُّرِ فِي نَفْسِهِ وَفِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَحَسِبَهُ هَذَا شَافِعًا
 عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ،

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

عبد الله الطيّب

تذيل

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى وآله وصحبه وسلم تسليماً .
أما بعد، فقد أشار على بعض أهل الفضل ممن قرأوا الطبعة الأولى
فإذا الكتاب أن الحق به ذيلًا يشرح بعض مغمضه . وهذا حين أبدأ بأذن
الله تعالى وعونه .

المُسَمِّدُ مَسَّةُ

١ - وقد حمل امرؤ القيس معه صحراء العرب -

« تَطَاوَلَ اللَّيْلُ عَلَيْنَا دَمُؤُنْ »

الإشارة ههنا إلى أن امرأ القيس قد كان شديد الحنين إلى ديار بني أسد
حيث نشأ ، وحيث كان ملك أبيه . وقد كان يخس هذا وهو بدْمُون
فكيف به حين صار إلى القسطنطينية ؟!

٢ - وقد حمل أبو الطيّب ملتقاها بالسواد : أى ملتقى الصحراء بالسواد إذ
قد نشأ بالكوفة وثم كان مصارعُ الشهداء من آل البيت إذ قد قتل
الحسين رضى الله عنه بكر بلاء ممنوعا من ورود ماء الفرات .

٣ - ولكنه بعد ما عدا أنه ألم به غبار الخ - ههنا إشارة إلى قول أبي الطيّب
يذكر أن سيف الدولة كان إذا أراد أن يسخر من شاعر كلّفه أن يجاريه
وذلك ما لا استطاع :

« إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُوْا بِلُحْيَةٍ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقِّ »

٤ - كأخذ امرئ القيس حين يقول الخ

« كَحَقِيقَةِ النَّقَا يَمْشِي الْوَلِيدَانِ فَوْقَهُ »

بِمَا احْتَسَبَا مِنْ لَيْنِ مَسٍ وَتَسْهَالِ »

أى مثل كتيب الرمل ، أى عجزها لنا وامتلاء وحسنا كأنه كتيب الرمل

الذى يستلذُّ الولدان الصغيران المشى فوقه لنعومته ويسره . والشاهد
ههنا أخذ امرئ القيس أما من تجربة مشاهدته لطفلين يتسابقان على
كثيب أو من زمان طفولته حين كان هو يفعل ذلك .

« دَرَبِرْ كَحِذْرُوفِ الْوَلِيدِ أَمَرَهُ تَتَابَعُ كَفَيْهِ بِحَيْطٍ مُوَصَّلٍ »
هذا فى المعلقة يصف به جرى حصانه وأنه فى سرعته وأنخرطه مثل
النعلة التى يلعب بها الولد الصغير بحيط يُمِرُّه بين كَفَيْهِ واللعبة من
لعب الاطفال معروفة .

« أَصَاحِ تَرَى بَرَقًا أَرِيَاكَ وَمِيضَهُ كَالْمَعِ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَمَّلٍ »
فى المعلقة يصف برقا ويقول انظر إلى التماع ذلك البرق كحركة يدين
يلمع بهما صاحبهما إشارة أو نداء من مكان بعيد وهذا من التجارب
المشاهدة . ويجوز أن يكون عنى بلمع اليدين ههنا حركة اشارة اليدين
من الفتاة التى فى أوائل القصيدة حيث قال :

« تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَقَيِّبُ بِنَاظِرَةً مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةً مُطْفَلٍ
وَتَعْطُو بِرُخْصٍ غَيْرِ شَيْءٍ كَأَنَّهُ أَسَارِيْعُ طَبْيٍّ أَوْ مَسَاوِيكُ إِسْحَلٍ »
وهذا كأنه أقوى فى التأويل عندى والله تعالى أعلم .

٥ — كعودات امرئ القيس إلى عهد طفولته فى أمثال قوله
« يَنْزِلُ الْغَلَامُ الْخُفَّ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ وَيَلْوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثْقَلِ »
فأشبهه شئ أن يكون الغلام الخف هذا أراد به الشاعر نفسه أيام كان
غلاما ويكون العنيف المثلث شخصا آخر يعرض هو به أو هو نفسه بعد
أن ذهب عنه الشباب وصار إلى الذكريات . والله أعلم .

الفصل الأول

١ - « كقوله يحمى الخ. » البيت من قصيدة أبى الطيب التتى مطلعها :
« لِمَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لَا تَعْلَمُ عَرَاضًا نَظَرْتُ وَخِلْتُ أَنِّي أَسْلَمُ »

وهى فى هجاء ابن كيغلغ ومدح أبى العشائر . والبيت هو :

« يحمى ابن كيغلغ الطريق وعِرسُهُ مابَسَيْنَ رِجْلَيْهَا الطَّرِيقُ الْأَعْظَمُ »
أى هو يحمى الطريق لمنعه إيتاى من السفر ، وحبسى كيما أمدحه مضطرا ،
وكان أولى به أن يحمى امرأته فلا تفجر - وهذا من خبيث الهجاء
وبديته كما ترى .

٢ - « أُرْسَلَتْ تَسْأَلُنِي الْمَدِيحَ سَفَاهَةً صَفَرَاءُ أَضِيقُ مِنْكَ مَاذَا أَرْعُمُ »
هكذا البيت كاملا وهو من فاحش القول واتهمه فيه أنه مأبون والبيت
من القصيدة المشار إليها فى (١) .

٣ - شَمَّ رِيحَ الْمَوْتِ - هذا من قول الحارث بن هشام يعتذر من فراره يوم
بدر :

« وَشَمَمْتُ رِيحَ الْمَوْتِ مِنْ تِلْقَائِهِمْ وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أَقَاتِلُ أَجْهَدِ
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أَقَاتِلُ وَاحِدًا أَقْتُلُ وَلَا يَضُرُّ عِدْوِي مَشْهَدِي »

٤ - هذا هو المجلس الذى انشد فيه أبو الطيب قصيدته المشهورة :
« وَاحِرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شِيمٌ وَمِنْ الْجِسْمِ وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ »
فقد أغضب سيف الدولة حتى رماه بدواة . وسعى السامرى هذا لدى
سيف الدولة ليأذن للسادة الذين حضروا المجلس آنذ أو من كان على
رأيهم فى قتله . ومثل هذا كان قد يحدث فى مجالس امراء ذلك الزمان
- بل لعلّه لم يخل من نحوه زمان . وقد رَوَوْا أَنَّ أَحَدَ النَّاسِ قَالَ لِلْمَأْمُونِ
فِي مَجَادَلَةٍ ، لَعَلَّهَا كَانَتْ فِي خَلْقِ الْقُرْآنِ أَوْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ « يَا
أَمِيرَ الْكَافِرِينَ » فَخَطَفَتْهُ السُّيُوفُ . وَيَذْكُرُونَ أَنَّ أَحَدَ أَعْضَاءِ مَجْلِسِ

الشيخ بروما بعد عهد اغسطوس قال كلمة حق أو باطل مما عسى أن يكون لايرضاه الإمبراطور فاغمد أحد زملائه فيه خنجرًا وأعانه آخرون يتقربون بذلك إلى الملك فسبحان الله القادر .

٥ - وفي البائية الخ - المراد قوله :

« أَغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغَالِبُ »

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ وَالْوَصْلِ أَعْجَبُ »
وهي من عيون شعر أبي الطيب، مدح بها كافورا وأشدها إياه. قوله :
« وَكَمْ لَظْلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُخْبِرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ »
أى أنت مدين لليل بحسنات كثيرة تدل على بطلان مذهب المانويين .
وهؤلاء كانوا يرون الليل والظلام كله رمزا للشر والشيطان وهم التنوية أتباع ماني وانتشر مذهبهم بفارس في الدهر القديم وأخذ الزنادقة بطرف منه ومن حسنات الليل التي يقصدها أبو الطيب أنه ستره عن الأعداء فوقاه من أن يقتلوه مع أنه كان يجتاز بديارهم ومن حسناته أنه زاره فيه ذو الدلال المُحَجَّب، فمن ذو الدلال المُحَجَّب ومتى زاره ؟ هذا إذا أراد التدقيق . ويجوز حمل الكلام على عمومه أى زارك فيه الأحباء فلم يرهم من يغار عليهم . ويسوغ لنا أن نطلب التخصيص والتحديد علمنا أنه أخذ قوله في صدر البيت « وَقَاكَ رَدَى الْأَعْدَاءُ » من التجربة الشخصية مباشرة . وقد قال :

« وَيَوْمَ كَلِيلِ الْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ أَرَأَيْتَ فِيهِ الشَّمْسَ أَيْانَ تَغْرُبُ »

فدل على أنه ماهرب إلا ليلا، وأنه كان كامنا بالنهار يترقب مجيء الليل، وكان نهاره هذا قد طال جدا من شدة قلقه هو وانتظاره؛ كما يطول ليل العاشق الذي يسهر يتذكر حبيبته أو يتوقعه أن يزور فلا يزور .

٦ - رائية امرئ القيس هي التي مطلعها :

« سَمَا كَلِمَتُ شَوْقٍ بَعْدَمَا كَانَ أَقْصَرَا »

وَحَلَّتْ سَلِيمَى بَطْنِ ظَبْيٍ فَدَعَرَعَرَا »

نظمها يحن فيها إلى بلاد العرب ويصف طريقه إلى قيصر وقد وصف فيها خيل البريد وهي خيل غير عربية وذلك قوله :

« عَلَى كُلِّ مَقْصُوصٍ الذُّنَابِيُّ مُعَاوِدٌ

بَرِيدَ السَّرَى بِاللَّيْلِ مِنْ خَيْلِ بَرَبْرَا

إِذَا زُعْمَتَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كَلَيْهِمَا مَشَى الْهَيْدِيُّ فِي دَفْعِهِ ثُمَّ فَرَفَرَا »

٧ - وهو غير التي قال فيها :

« وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بَهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ »

وهذه كما لا يخفى هي الحمى وقد وصفها في القصيدة التي منها هذا

البيت وهو أوّل أبيات وصفها . ومطلع القصيدة :

« مَلُومُكُمْ مَا يَجِلُّ عَيْنِ الْمَلَامِ وَوَقَعَ فَعَالِيهِ فَوْقَ الْكَلَامِ »

٨ - ولا ينبغي له الخ قول أبي الطيّب :

« كَأَنَّ فَعْلَةً لَمْ تَمَلَأْ مَوَاقِبُهَا دِيَارَ بَكْرٍ وَلَمْ تَخْلَعْ وَلَمْ تَهَبِ »

فيه نهاية التهذيب والاحتراس . والمراد بقوله « فعلة » هو خولة ولكن

أبا الطيّب رأى أنّ هذا موضع كناية لا ينبغي أن يذكر فيها اسم الحرّم .

ولم تكن الأذواق عهد أبي الطيّب لإشديدة التقبل لمثل هذا الاحتراس

منه . وفي بعض طبقات ديوان أبي الطيّب يضعون « خولة » وليس

بجيد إلا أنّ تشبّه به رواية « صحيحة » عن الشاعر وهذا بعيد جدا .

٩ - قال أبو الطيّب :

« لَقِيتُ بِدَرْبِ الْقَلَّةِ الْفَجْرَ لِقِيَةً شَمَتَ كَمْدِي وَاللَّيْلُ فِيهِ قَتِيلُ »

أى كنت مع حبيبى ليلة كاملة حتى طلع الفجر علينا بدرب القلّة

فكأننى قد قتلت الليل ذا الظلماء بنور إشراق الحبيب فاتّصل نوره

بنور الفجر وشفى ذلك كمدى إذ بذلك اللقاء الباهر قد انتقمت من الليل

الذى طالما أمضىنى قبل بالسهر فى ظلماته والهموم .

يشعرنا السياق أنّ لقاء أبي الطيّب من لاقى قد كان أثناء السير وهم

فى طريقهم إلى قتال الروم .

فمن الظعينة التى لاقاها أبو الطيّب وسأيرها حتى طلع عليهم الفجر فى

درب القلّة فودّعها وهو راضٍ ذاهبُ الكمد ؟

١٠ - وآخر القصيدة بلاريب قوله :

«يَهُونُ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا وَتَسْلَمَ أَعْرَاضُ لَنَا وَعُقُولُ»

هذا نقوله على وجه من وجوه الخدس والترجيح لأن آخر القصيدة في الديوان معروف . والذي يتأمل شعر أبى الطيّب في سيف الدولة يجد أن في كثير من قصائده زيادات لا يحتملها السياق الذي عليه بيان الشاعر . ولم يكن أبو الطيّب بالضعيف الركيك الذي يخلط الساقط من القول بالجلد ولا يأبه لذلك في عهد نضجه الذي نعلم . ويختل إلى أن بعض من كانوا يحبون أبا الطيّب ويشفقون عليه كانوا يحملونه على أن يذكر سيف الدولة بالمدح الصريح كلما أُلِّفَوه قد انهمك في نعت السير والقتال ومقدمات النسيب وما أشبه ذلك مما هو بعيد من الممدوح . ومن أجل هذا ما كان (فيما نحسب) يلوذ أبو الطيّب بالتلاعب بمعنى السيف ليضمّنه معنى سيف الدولة وهلّم جرّا ، استجابة لاصدقائه . من ذلك مثلا ، آخر هذه القصيدة اللامية وفيه البيت المشهور :

« إذا كان بعضُ النَّاسِ سَيْفًا لِدَوْلَةٍ

ففى النَّاسِ بُوقَاتٌ كَلَامًا وَطُيُولُ »

ومن ذلك مثلا الأبيات التي بعد النسيب في قصيدته « فِدَيْتَاكَ مِنْ رَبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرُبَا » - من نحو قوله :

«تَهَابُ سُيُوفُ الْهِنْدِ وَهِيَ حِدَائِدُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ زِرَارِيَّةً عُرْبَا
وَيُرْهَبُ نَابُ اللَّيْثِ وَاللَّيْثُ وَحْدَهُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ اللَّيْثُ لَهُ صَحْبَا
وَيُخَشَى عِبَابُ الْبَحْرِ وَهُوَ مَكَانَهُ

فَكَيْفَ يَمْنُ يَغْشَى الْبِلَادَ إِذَا عَبَا »

والله تعالى أعلم .

١١ - وفي النونية بِمِ التَّعَلُّلُ - هي التي مطلعها :

«بِمِ التَّعَلُّلُ لَا أَهْلٌ وَلَا وَطَنُ وَلَا تَدِيمُ وَلَا كَأْسُ وَلَا سَكَنُ
أُرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِي مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ »

١٢ - الرياح النكب: أى المائلة المنحرفة . أى سمت النظام غالب على دولته حتى الرياح المائلة تستقيم به .

١٣ - هذا البيت :

«إِذَا سَارَتْ الْأَحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِهِ تَهْمَاوَحَ مِسْلُكُ الْغَيَانِيَاتِ وَرُنْدُهُ»
جميل جداً . الأحداج هى الموارج . أى إذا سارت الموارج فوق مروج هذا المكان ذوات الرند، وهو من النبات العطر ، عم السرور والبشر الشذى الطيبُ - المسك يتفاح من ثياب الغانيات وابشارهن ، ومن طيب النبات وزهره ذى العبير ، ولا يخفى ما يشيعه مثل هذا الجو من البهجة وانسراح الصدور .

١٤ - تمام البيت « وَهَمَّاسُ رَاهُ عَلَى خَفٍّ وَلَا قَدَمَ » وهو مطلع قصيدة من جِيَاد شعر أبى الطيب ، ذكر فيها وفاة فاتك وخروجه هو من مصر .

١٥ - قَرَى : بوزن فعيل أى جدول والمراد ههنا من أسلوب كذا وكذا وجمع قرى (قاف مفتوحة وراء مكسورة وياء مشددة) قُرَيَان بضم القاف وسكون الراء وياء بعدها الف ونون وأبو العلاء قد يؤثر هذه الكلمة أحيانا ومنه اخذناها . والبيت « ملومكما » تمامه :

« مَكْدُومُكُمْ مَا يَجِلُّ عَنِ الْمَلَامِ وَوَقَعُ فَعَالِهِ فَوْقَ الْكَلَامِ »
وهو مطلع قصيدة نظمها أبو الطيب بمصر وذكر فيها الحمى وشكا الدهر ، قالوا وأنشدها كافورا فكأنه لم يرض عنها .

١٦ - إلى النَّوْبَنْدَجَان ، إشارة إلى قول أبى الطيب :

« مَنَازِلُ لَمْ يَزَلْ مِنْهَا خِيَالُ يُلَاحِقُنِي إِلَى النَّوْبَنْدَجَانِ »

وهو من قصيدته المشهورة التى مطلعها :

« مَغَانِي الشَّعْبِ طِيْبًا فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ »

وقولنا إلى دمشق لبيق الرد الخ

أى وقد لاحقه خيال كما قال هو إلى النوبندجان . ثم قد سرح فكره

فى الذكريات فرأى أطياف دمشق — دمشق ذات الرجل الشهم الكرىم
الذى كان يصنع له الثرىد الجىء (هذا معنى قوله لىق الثرد وىقدم
للأضياف فى الجفان الصيىنات ، وهذا ىكون سيف الدولة أو
أبا العشائر أو من كان هو أى أبو الطىب ضيفا لىه من آل حمدان
ولیه الإشارة فى القصيدة الهائية

« أحبُّ حمصاً إلى خناصرة وكل نفس تُحبُّ حَمِيَّاهَا
حَيْثُ التَّمَتَّى خَدُّهَا وَتَفْأَحُ لُبُّهَا إِنْ وَتَغْرِى عَمَلَى حُمِيَّاهَا »

١٧ — قلائدُ كافور وعقايه . . . البيت — وهو مابعه من القصيدة :
« أودُّ من الأيامِ مالا تودُّه وأشكو إليها بَيْنَنَا وَهَى جُنْدُهُ »

وقالها فى مدح كافور ومنها البيت :

« إِذَا سَارَتْ الْأَحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِهِ تَفَاحَ مِسْلُكُ الْغَانِيَّاتِ وَرَنَدُهُ »
رقم ١٣ من قبل .

١٨ — ذلك بأن الله قد كتب على ابن آدم الخروج من الجنة بعد أن أذله
الشيطان هو وأمنا حواء فأخرجهما ممساكانا فيه . والقصة معروفة
وذكر الطبرى أن ابن اسحق كان يرى أن وسوسة إبليس لآدم فى
الجنة كانت من نوع وسوسته لابنائه من بعد ، لا أنه اختفى فى فم
الحية وأدخلته الجنة فتحدث إلى آدم وحواء. هذه العبارة التى فى هذا
الكتاب معناها أن ابن آدم مجبول فى طبعه على القلق حتى بالنعماء ،
ولذلك قال حصان أبى الطىب :

« أَبُوكُمْ آدَمُ سَنَّ الْمَعَاصِي وَعَآمَكُم مِّفَارِقَةَ الْجَنَانِ »

١٩ — تمامه : « وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرَاطُ وَالْقَلَمُ »

٢٠ — تمامه : « أَنَا أَهْوَى وَقَلْبُكَ الْمَتَّبُولُ »

وهو مطلع قصيدة بعث بها أبو الطىب إلى سيف الدولة بعد انصرافه
من مصر

٢١- فتاة : أى الشمس . وزادت أبها كُما العطبول - أى التى هى أبها كما زادتنى ضنىّ وسقما .. وهى أنت العطبول . والعطبول هى المرأة الحسنة الجيدة الجسم .

٢٢- ويوما كأن الحسن الخ ، راجع رقم ٨ من قبل - أى لقيت الفجر بدرب القلّة فشفيت نفسى من الليل ثم أشرق يوم جميل ، كان حسنه علامة منك ، وشمسه رسول بعثت أنت به ؛ وذلك لأنّه استمر يسايرها فاتّصلت سعادة ليله بسعادة نهاره كما ترى والله تعالى أعلم .

٢٣- أى تنظر فى عيني فترى صورة نفسها ، فقبّلت عيني وإنّما قبّلت فاها .

٢٤- وهنّ درّ فذبن أمواها : أى بكين فتساقط منهنّ الدرّ وهنّ درّ . وذلك لصفاء أبشارهنّ مثل صفاء الدرّ ودموعهنّ الذائبات على أبشارهنّ الصافيات الألوان كلُّ أولئك فسبحان الخالق القدير .

٢٥- أو عرّضت عانةً مُقرّعةً ، أى : قطع متفرق من حُمُر الوحش .

الفصل الثاني

١ - وفي النفس بعدُ من تراجم ... الخ
وذلك لشدة احتراسه كما تقدّم في النص . ولعلّه إنّما سمّى الثعالبي لا لبيعه فراء الثعالب ولكن لثعلبيّة كانت فيه ، ولعلّه ما كتب اليتيمة كله إلاّ من أجل هذا الفصل الذي عقده لأبي الطيّب لشدة حيويّته إذا قيس ذلك إلى سائر الكتاب وليس مصدر ذلك حيويّة الشاعر ولكن حيويّة أبي منصور نفسه . وقد يستطيع الكاتب البارد أن يكتب عن أبي الطيّب كتابا باردا كالذي فعل يوسف البديعيّ في كتابه الصبح المنبى عن حيثيّة المتنبى .

٢ - الشاهد ههنا أنّ الأبيات التي ذكرها أبو منصور من جيّد شعر أبي الطيّب وأصدقّه تمثيلا للصفات التي ذكرها هو في محاسنه . « مخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب الخ » ولكنه احتراسا لنفسه وصفها بأنها ربّما دخلت في باب إساءة الأدب بالأدب لجرأتها وما فيها من الدعاوى التي كان ينكرها خصوم أبي الطيّب وخصوم ذكراه . وإذا جاز أن تقع من أبي الطيّب إساءة الأدب بالأدب في مدح سيف الدولة ، فكيف يكون شأنه مع منافس له مثل أبي فراس وهو القائل :

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتِ ضَيْئِي شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِنُنِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ
لَهُ دَرُّهُ !

٣ - أمّم : أى قريب : أى أمر الجُهلاء من العلماء غير قريب . وحسبنا عزاء أنّنا جهلاء إذ الله تعالى يقول : وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا . وإنّما العلم خشيةُ الله ، واتقوا الله ويُعلّمكم الله . وجزاء التقوى يوم يقوم الأشهاد . ولو شاء الديّان لنصر الآن وهو على كل شيء قدير .

٤ - « حب ماخف عنكم ، » أى أقل سلامي حباً للتخفيف عنكم ، كأنه متى سلم على كافور كان كأنه يذكره بالوعد الذى وعده إياه من إعطائه ولاية وهلم جرا .

٥ - الملاب : ضرب من الطيب

٦ - موضع الماخذ هو أن المداعبة فى هذا المقام تناقض روح الشرف التى ينبغى أن ينعت بها الممدوح وهذا هو ماذهب إليه أبو الطيب حيث قال « يُشَبِّهَنَّكَ بِالَّذِى أَوْلَيْتَ شُكْرًا وَأَيْنَ مِنَ الَّذِى تَوَلَّى الثَّوَابُ وَلَيْسَ مَصِيرُهُنَّ إِلَيْكَ شَيْنًا وَلَا فِي صَوْنِهِنَّ لَدَيْكَ عَابٌ » تأمل قوله : « فى صونهن لديك » فمثل هذا تتقطع دونه الاعتناق . . أعناق أبى فراس وغيره . والله أعلم .

٧ - وعلى نحو قوله - تمام الكلام بعد الأبيات . هكذا اعتمد الثعالبي فى الوصف الذى وصفه لغزوات سيف الدولة .

٨ - فِدَيْتَكَ مِنْ رُبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كِبَرًا فَإِنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا

هذا هو مطلع القصيدة . ثم نصف البيت « سراياك ترى » تمامه : « سَرَايَاكَ تَتَرَى وَالْدُّمُوسُ تُقْ هَارِبٌ وَأَصْحَابُهُ قَتَلُوا وَأَمْوَالُهُ نَهَبُوا وَتَمَامٌ عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ » هو :

« عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَامُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ »

٩ - يضح مضارع وضح مثل وزن أى اتضح يتضح

١٠ - تمامه : « إِنْ قَاتَلُوا جَبَنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجَعُوا »

١١ - أى كل نبوغ له ثمن وكل نابغة تجد فيه عيبا . ولكن خص الله أصحاب النبوات بالكمال لعنائه هو جل شأنه التى أسبغها على أنبيائه حتى

يتحملوا أعباء الرسالة ويبلغوها والله أعلم .

١٢ - للإمام الغزالي في ربع المهلكات من كتابه إحياء علوم الدين فصل رائع عن الحسد وقد ذكر رضى الله عنه للحسد أدوية وهذا يخالف ما قاله أبو الطيب :

« سِوَى حَسَدِ الْحَسَادِ دَاوٍ فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ »
ويحمل كلام الغزالي ، إن شاء الله ، على أن يدرك المرء الحسد قبل أن يخلّ ويستفحل والله تعالى أعلم .

١٣ - لماذا أرسل أبو العشائر أشخاصا ليغتالوا أبا الطيب ؟
يجوز أن يكون أناس قد وشّوا بأبي الطيب عند أبي العشائر وإذا صحَّ أنه قد كانت بين أبي الطيب وبعض نساء أبي العشائر مودة فالوشاية أقرب شيء أن تكون في هذا المجرى .

والفرض المفترض ههنا هو أن أبا العشائر لم يرسل هؤلاء المغتالين ولكن أرسلهم أبو فراس وقالوا لأبى الطيب إنهم غلمان أبى العشائر على وجه التهديد له . . . كأنهم يجابهونه بأن الذى بينه وبين بعض آل أبى العشائر جريمة تستوجب قتله . وأنه إن أفلت هذه المرة فلن يُفْلِتَ مَرَّةً أخرى تلى . وما فرَّ أبو الطيب من حلب إلاّ وهو يحسُّ أنَّ حوله خطرا عظيما والله تعالى أعلم .

١٤ - تمامه : « شَدِيدُ السُّكْرِ مِنْ غَيْرِ النُّمْدَامِ . »

١٥ - تمامه : أَبَعْدَ مَا بَانَ عَنْكَ خُرْدُهَا . وهو مطلع قصيدة .

١٦ - عَيْنِيَّةٌ مُتَمِّمٌ بِنُورِيَّةٍ يَرِثِي بِهَا أَخَاهُ مَالِكُ بْنُ نُورِيَّةٍ فِي الْمَفْضِلِيَّاتِ
مطلعها :

« لَعَمْرِي وَمَا دَهْرِي بِتَأْيِينِ هَالِكٍ وَلَا جَزَعٍ مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا »
وهي من عيون المراثي في الشعر العربي .

١٧ - وهانا : يستحسن في اللغة أن يحىء اسم الإشارة بعد الضمير فيقال

هانذا وقد روى هانا وليس في الذروة من الفصاحة والله أعلم .

١٨ - تمامه : « مِثِّي بِحِلْمِي الَّذِي أَعْطَيْتُ وَتَجَرَّيْ بِي . »
أبو الطيّب منصف .. ونحن إذا تمنينا الصِّبا تمنينا أيضا معه أن تبقى معنا
تجاربنا وحلمنا لكي نجمع بين قوَّتَي الشباب والنضج وذلك هو المستحيل .
إلا عند أهل الجنَّة إذ كلَّهم شباب ، وكما وصفهم الله تعالى : لا
يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قليلا سلاما سلاما .

١٩ - شواهد الحسد في قوله : « ياناغمَ الثوب » « ياراكب الخيل » وشاهد
الغرور قوله « فآرقَ فيكَ الجَمالَ أَجْمَلُها » ... ومن كان سميئا
عند نفسه ولله در أبي الطيّب إذ قال :

« أَعْيِذُهَا نِظَرَاتِ مَنْكَ صَادِقَةً
أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ »

٢٠ - النبع ضرب شديد من الخشب ، والغَرَبُ ضعيف ، والصقر من أشد
الطيور الجوارح ، والخَرَبُ من ضعاف الطير .

٢١ - « أَبْنَيْتِي لَا تَجْزَعِي » : الأبيات ستأتي من بعد كاملة .
وابن خالويهِ كان من أعداء أبي الطيّب وشجَّهُ بمفتاح

الفصل الثالث

١ — قال أبو الطيّب ، « وما أنا إلا عاشقٌ » — هذا من قصيدته في مدح سيف الدولة التي مطلعها :
« وَقَاؤُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ »

بأن تَسْعِدَا والدَّعُ اشْفَاهُ سَاجِمُهُ »
أى أنا عاشق . وكل عاشق فالدنى يلومه من بين أصدقائه قاس عليه .
٢ — الدنى يُرَجِّحُ أَنَّهَا عَيْنُ الْمَحْبُوبَةِ الَّتِي فِي الدَّالِيَّةِ أَوْ قُلْ هِيَ الَّتِي أَهْمْتُ نَسِيبَ الدَّالِيَّةِ كَمَا أَهْمْتُ نَسِيبَ الْمِيمِيَّةِ كَمَا أَهْمْتُ نَسِيبًا كَثِيرًا عِنْدَ أَبِي الطَّيِّبِ هُوَ تَكَرُّارُ الصُّورَةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا وَتَشَابُهِهَا . مِنْ ذَلِكَ ، هَذَا الطَّيِّبُ وَالْأَرْجُ وَإِحْسَاسُ الْإِنْشِرَاحِ وَبِالْبَهْجَةِ — الْغَالِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَّفِقُ مَجَرَّدَ اتِّفَاقٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَبْعُثُهُ فِي الْأَصْلِ وَاحِدًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٣ — « وَحَالٌ كِلِحْدَاهُنَّ رُمْتُ بُلُوغَهَا — »
تشبيه الحال باحداهن فيه نوع من العهد والخصوصية والتجربة الذاتية .
أى رُبَّ حَالٍ أَطْلَبُهَا هِيَ فِي شِدَّةِ رَغْبَتِي إِلَيْهَا وَعَسِرَ مَنَالُهَا كِفْلَانَةَ الْعَزِيزَةِ الْبَعِيدَةِ الْمَنَالِ — أَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَ مَا نَذْهَبُ إِلَيْهِ فِي هَذَا الصَّدَدِ عَسَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجْهٌ قَوِيٌّ يَبْرُرُهُ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٤ — هذا البيت من قصيدة طويلة لبحرِان العَوْدِ فِي دِيَوَانِهِ الْمَطْبُوعِ (دار الكتب) وقد استشهد بهذا البيت وآخر منها أبو العلاء المعرى في رسالة الغفران وهما :

« وَأَمْسَكُنْ دُونِي كَلَّ حُجْرَةَ مِئْزَرٍ لَهْنٍ وَطَاحَ النَّوْفَلِيُّ الْمُسْزَخَرَفُ
وَقُلْدُنْ تَمَتَّعَ لَيْلَةَ النَّأْيِ هَيْدَهْ فَإِنَّكَ مَرَجُومٌ غَدَاً أَوْ مُسَيِّفٌ »
أى ، قلن لى تمتع بالأنس معنا فى أخرى لياليك هذه . وكشفن عن أوجههن وطاح النوفلى أى الخمار النوفلى — وهو ضرب من الثياب الرقاق — الذى عليه الزخرف وأبجن القبل ولكنهن منعن ما وراء ذلك

وَأَمْسَكَ حُجُزَاتِ مَآزِرِهِنَّ أَيَّ مَعَاقِدَ مَآزِرِهِنَّ وَقَلْنَ فِي امْتِنَاعٍ
وَمَدَاعِبَةِ إِيَّاكَ وَهَذَا فَإِنَّهُ يَجْرُ عَلَيْكَ الْقَتْلُ أَمَا رَجَمَا وَأَمَا بِالسَّيْفِ — ثُمَّ
يَشْعُرُ قَوْلُهُنَّ لَهُ : « فَإِنَّكَ مَرْجُومٌ غَدًا أَوْ مُسَيِّفٌ » أَنَّ هَذَا الَّذِي
اخْتَلَسَهُ مِنَ اللّٰهُوَ رَبَّمَا جَرَّ عَلَيْهِ الرَّجْمُ أَوِ السَّيْفُ إِنْ فَطِنَ لَهُ بَعْضُ مَنْ
يَغْتَارُ عَلَيْهِنَّ . وَلَا يَخْفَى بَعْدُ مَا فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مِنْ رُوحِ الْإِنْسِ
وَالْمَرْحِ . وَهَذِهِ الْفَائِيَّةُ نَظَرَ فِيهَا جِرَانُ الْعُودِ إِلَى مِنْهَجِ الْفَرَزْدَقِ فِي فَائِيَّتِهِ :
« عَزَّيْتُمْ بِأَعْيَاشٍ وَمَا كِدْتُمْ تَعُزُّوهُ
وَأَنْكَرْتُمْ مِنْ حُدْرَاءِ مَا كُنْتُمْ تَتَأَلَّفُ »

وإلى منهج رأيّة عمر بن أبي ربيعة :
« أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرٌ غَدَاةَ غَدٍ أَوْ رَائِحَ فَمُهَجِّرٌ »
ثُمَّ هِيَ بَعْدَ نَسِيجٍ وَحْدَهَا فِي بَابِهَا وَاللّٰهُ أَعْلَمُ .

٥ — مَضْغُ الْكَلَامِ ، يَسْتَحْسِنُ الْقَلِيلُ مِنْهُ فِي مَذْهَبِ الْمَلَاحَةِ وَعَلَى أَوْجِهِ
خَاصَّةً . وَهُوَ فِي جَمَلَتِهِ مَتَكَلَّفٌ بَغِيضٌ مَتَى خَرَجَ عَنْ هَذَا الْمَذْهَبِ
الَّذِي قَدَمْنَا .

٦ — مِمَّا يَنْظُرُونَ بَعِينَ الْكَشْفِ : أَيَّ كَثِيرًا مَا يَنْظُرُونَ أَوْ رُبَّمَا يَنْظُرُونَ وَمِمَّا
تَسْتَعْمَلُ فِي الْعَرَبِيَّةِ لِإِفَادَةِ مَعْنَى التَّكْثِيرِ .

٧ — مَوْضِعُ السُّؤَالِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ : وَطُلْتُ حَتَّى كَلَامًا وَاحِدًا — فَالْإِلْحَاحُ
عَلَى ذِكْرِ الطَّوِيلِ يَشْعُرُ أَنَّ الَّتِي أَوْحَتْ هَذَا الْكَلَامَ عَسَى كَانَتْ ذَاتُ
طَوِيلٍ . وَقَدْ قَالَ فِي لَامِيَّتِهِ « مَا لَنَا كُلُّنَا جَوِيَّارُ سُولٍ » :
« مِثْلُهَا أَنْتَ لَوْحَتِنِي وَأَضْنَيْتِ وَزَادَتْ أَبْهَا كُمَا الْعُطْبُولُ »
وَالْعُطْبُولُ هِيَ الطَّوِيلَةُ الْحَسَنَةُ .

وَفِي شَعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ مَا يُفِيدُ أَنَّهَا كَانَتْ قَصِيرَةً وَهَذِهِ يَجُوزُ أَنْ تَدُلَّ
عَلَى قَصْرِ الْقَامَةِ أَوْ عَلَى أَنَّهَا مَقْصُورَةٌ . وَهَذَا الْمَعْنَى فَصَّلْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ .
وَالْفِكْرَةُ هَهُنَا أَنَّ بَعْدَ الْمَسَافَةِ بَيْنَ أَبِي الطَّيِّبِ وَبَيْنَهَا جَعَلَ شَخْصَهَا
تَتَضَاعَفُ أَبْعَادُهُ فِي تَخَيُّلَتِهِ فَرَأَى طَيْفَهَا الْبَعِيدَ كَأَنَّهُ يَمْلَأُ آفَاقَ السَّمَاءِ .

ومثل هذا صنعه امرؤ القيس حينما تأمل نار محبوبته البعيدة فخيّل إليه أنّه يراها وهو بأذرعَات وهي يثرب وتلك مسافة بعيدة. بل لعلّه رآها رؤية حقيقية بعين قلبه . وأحيانا إذا أبصرت عين القلب صحت الرؤيا لدى عين البصر لأن عين البصر إنّما ترى بضوء القلب — قال تعالى : « فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ. » ومن العجب قول امرئ القيس أنّه رأى النور — نور المحبوب وهو بالشام والمحبوب يثرب . ولا يصح مثل هذا المعنى إلّا في معنى صُوفيٍّ مدارِ النَّسِيبِ فِيهِ الذَّاتُ الْمُحَمَّدِيَّةُ . ولعلّ امرأ القيس نظر بعين الكشف فأحسّ اقتراب عهد النبوة فانطقه الله بهذا القول الحسن البديع . والله تعالى أعلم .

٨ — كان جاهلا : ههنا الإشارة إلى قول العكبري ينتقد تصريح أبي الطيّب باسم ضبّة في قصيدته المقدّعة
« ما أنصف القومُ ضبّةً وأمّه الطُّرُطُبة »
فقد قال العكبري « كان جاهلا » — كأنه يشفق عليه ويعاتبه به من وراء الدهور .

٩ — أَى يَدَّعُونَ حَبًّا عَذْرِيًّا لِلْغُلَّامَانِ وَالْوَصَفَاءِ، وَيَنْظُمُونَ الشَّعْرَ فِي ذَلِكَ وَيُضْمِنُونَ مِنَ الْمَعَانِي وَالتَّجَارِبِ مَا هُوَ مُرَادٌ بِهِ حَقًّا غَزَلَ النِّسَاءُ . ولكن روح الغيرة والمحافظة على تكريمه النساء بالحجاب هي التي ألزمتهم هذه الدعوى لا الانحراف الجنسي كما قد يتبادر للناقد أحيانا والله أعلم .

١٠ — أَوْ يَغَارُونَ عَلَى النِّسَاءِ فَيَقْتُلُونَ الرِّجَالَ غَيْرَةً عَلَيْهِنَّ أَوْ طَلَبًا لِرِضَاهُنَّ .
وانما أرادت هند بقولها :

« نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقِ الطَّيِّبِ فِي الْمَفَارِقِ
وَالدَّرُّ فِي الْمَخَانِقِ »

تَحْرِيطُ فَرَسَانِ قَرِيْشٍ فَاِمَاً مِّنْعُوْهُنَّ . وَاِمَا اَبَا حُوْهُنَّ . وَالْقَوْمَ الَّذِيْنَ
صَحْبُهُمْ اَبُو الطَّيِّبِ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ . . وَدَعَا اِلَى ذِكْرِ اَبْيَاتِ هِنْدَ
مَا فِيْهِنَّ مِنْ ذِكْرِ الطَّيِّبِ وَالْدَّرِّ وَهِيَ مَعَانٍ يُلْحِقُ اَبُو الطَّيِّبِ عَلَيْهَا .
وَقَوْلُنَا : وَيَكُوْنُ الْقَنِيْصُ الْعَاشِقُ وَذَلِكَ بَقَايَا الطَّيِّبِ « اَيُّ اَنْ الْغَوَانِي
يَقْتُلْنَ قَنِيْصَهُنَّ » وَهُوَ عَاشِقُهُنَّ بِفَضْلَةِ الطَّيِّبِ الَّذِي كَسَرَنَّهُ فِي مَفَارِقُهُنَّ .
كَصْنِيعِ فَرَسَانِ الْبَدُو الَّذِيْنَ صَحْبُهُمْ اَبُو الطَّيِّبِ حِيْنَ يَذْبَحُوْنَ
مَا يَصِيْدُوْنَ بِفَضْلَةِ السِّيُوفِ وَالرَّمَاكِ الَّتِي كَسَرُوْهَا فِي مَفَارِقِ اَعْدَائِهِمْ .
هَذَا سِلَاحُهُمْ وَقَتْلُهُمْ كَمَا ذَلِكَ سِلَاحُهُنَّ وَقَتْلُهُنَّ . وَاللّٰهُ اَعْلَمُ .

١١ - وَالْحَدِيثُ الْمُخَفِّيهُ : اَيُّ الَّذِي يَخْفِيهِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ

١٢ - اَيُّ لَيْسَتْ الثَّوِيَّةُ هِيَ الْمَوْضِعُ الَّذِي قَرِبَ الْكُوفَةِ وَبِهِ مَاتَ زِيَادُ وَرَثَاهُ
حَارِثَةُ بْنُ بَدْرِ الْغَدَانِي وَقَالَ الْاَبْيَاتُ

« صَلَّى الْاِلٰهَ عَلَى قَبْرِ وَطَهَّرَهُ عِنْدَ الثَّوِيَّةِ يُسْفَتِيْ فَوْقَهُ النُّمُورُ
زَقَّتْ اِلَيْهِ قَرِيْشٌ نَعَشَ سَيْدُهَا فَتَشَمَّ كُلُّ الثَّقَفَى وَالْبَرْ مَقْبُورُ
اَبَا الْمَغِيْرَةِ وَالْدُّنْيَا مُمَجَّعَةٌ وَاِنْ مِّنْ غَرَّتْ الدُّنْيَا لَمَغْرُورُ
قَدْ كَانَ عِنْدَكَ لِمَعْرُوفٍ مَّعْرِفَةٌ وَكَانَ عِنْدَكَ لِلتَّكْرَاءِ تَمْكِيْرُ »
وَهِيَ فِي الْكَامِلِ لِلْمَبْرَدِ .

وَلَكِنْ الثَّوِيَّةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْاَرْضُ الَّتِي نَزَلَ بِهَا اَبُو الطَّيِّبِ فَكَانَ بِهَا
ضَيْفًا عِنْدَ الْبَدُو ذَاتَ لَيْلَةٍ . هَذَا تَقْرِيْبٌ لِّلْمَعْنَى .

١٣ - اِنْ كَانَ الْحَزِيْنَ بِهَا اَرَادَ - اَيُّ اِنْ كَانَ مَرَادُهُ الشَّخْصُ الْحَزِيْنَ
لِفِرَاقِهِ السَّاكِنِ بِهَا وَهُوَ مَحْبُوْبَتُهُ .

١٤ - لَهَا مَحَبَّتَانِ مِنْ هَمْزِيَّةِ اَبِي نَوَاسٍ :

دَعَّ عَنْدَكَ لَوَمِيْ فَاِنْ اللُّوْمَ اِغْرَاءً وَدَاوِنِيْ بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
مِنْ كَيْفِ ذَاتِ حَيْرٍ فِي زِيٍّ ذِي ذِكْرٍ

لَهَا مَحَبَّتَانِ لُوْطِيٍّ وَرَزَّاءٍ

وَالْعِيَاذُ بِاللّٰهِ !

١٥ - زعم أبو الفرج البيهقي أنه رأى عند أبي الطيب غلاماً. وكان أبو الطيب منصرفاً عنه يقرأ أو يكتب . ثم لما انتصف الليل صرف الغلام وأعطاه مالا جسيماً فقال له أبو الفرج إنه غلام مبتذل يرضى بما دون ذلك - وهذا الخبر موضع شك عظيم ونظر . والله أعلم .

١٦ - المراد هنا الترجيح أن قول أبي الطيب :

«ولا ترد الغدران إلا وماؤها من الدم كالريحان تحت الشقائق»
صَدَرَ عن تجربة حقيقية. ذلك بأن تشبيه المناظر الدامية بالوادعة جداً كالريحان تحت الشقائق بعيد جداً لا يسوغ إلا في حالة الزخرف البديعي المحض . والزخرف البديعي يغلب عليه روح الذكاء والبادرة الذهنية اللفظية أو المعنوية ولكن لا يخالطه انفعال وحيوية تنبئ عن تجربة . ولا أحسب القارئ ينكر أن بيت أبي الطيب هذا فيه حيوية وانفعال ينبئ بوجود منظر ريحان وشقائق شاهده الشاعر فعلاً وسجله ههنا . فأين شهيدته ولماذا علق بذهنه كل هذا العلوق ؟!

١٧ - هذه الصورة دامية جداً، صورة الطعن في حومة القتال الشديد كاللدى اشتد حتى قارب حيث الطعائن وجعل الدم يتطاير حتى سقط على نحور العواتق حين يتساقط حولهنّ الفرسان ممّن يعطفن عليهم من بعولتهنّ ومحارمهنّ . ولعلّ هذا المنظر قد شاهده أبو الطيب أيضاً وعلق بذهنه . والشبه بين جمال العواتق - إذ لم يقل العواتق إلا وهو يريد أن ينبه على جمالهنّ - يتطاير دم القتال حولهنّ وبين الريحان تحت الشقائق لا يخفى، متى ذكرنا أن الشاعر بنى صورته البيانية ههنا كلها على المزج الرهيب بين صور القتال والجمال .

١٨ - راجع ١١ من قبل

١٩ - بما كان قصيراً أحدى كذاباً - هذه صفات كثيرة في الأغاني وسواه

مما ترجموا له فيه والمراد ههنا التنبيه إلى عنصر التحامل على كثير لا شىء إلا لأنه قد كان كيسانى المذهب . كيف يكون من كان فى مثل بلاغته وأدبه كيسانياً إلا أن يكون أحق ممرورا . . . هذا هو الافتراض .

ومصدره كما لا يخفى الرغبة فى الدفاع عن العقيدة الصحيحة ولا تحتاج إلى أن يدافع عنها بمثل هذا من ضروب التعصب والله تعالى أعلم .

٢٠ - أى الطول فى المرأة الطويلة يُكسبها نوعاً من تذكير فتحتاج إلى مزيد فى الصناعة لتخفف من أثر ذلك . ومن أجل هذا ما قال كعب بن زهير :

« غَرَاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا لَا يَشْتَكِي قِصَرٌ مِنْهَا وَلَا طُولٌ »
٢١ - وازن بين الصُّور فى قول فتاة آل حمدان

« أجل عينيك فى عيني ... الأبيات »

والصورة التى فى شعر أبى الطيب . عسى أن يكون جميع هذا قد وقع اتفاقاً . ولكن يغلب الظن أن الصورة التى يحد ثنا عنها أبو الطيب والتى تحد ثنا عنها الفتاة كان مصدرهما من التجربة واحد لشدة التشابه : قول الفتاة « أَجَلُ عَيْنَيْكَ فى عَيْنِي » يشبه جداً فى معناه قول أبى الطيب « فَتَقَبَّلْتُ نَاطِرِي تَغَالِطُنِي » وقد سبق شرحه فى الفصل الأول وقولها « صافحني » يسجل نفس التجربة التى فى « ياطفلة الكف عبلة الساعد » وقولها « خُذْ سَمْعِي إِلَيْكَ » فيه معنى « لا كل سمع عن سواها بعائق » على نحو ما هو مفصّل فى النص . والله أعلم .

٢٢ - قال الوليد . . . الخ ؛ هذه جملة معترضة واستطراد ويقال قال ذلك يزيد بن عبد الملك ومن يشابه أبه فما ظلم .

٢٣ - هذا من القصيدة التى مطلعها :

« نَسِيتُ وَمَا أَنْسَى عِقَابَا عَالِي الصَّدِّ »

ولا خفراً زادت به حُمرة الحَدِّ »

وهى فى مدح ابن العميد . والسَّبْتُ بكسر السين وسكون الباء جِلْدٌ «
 رقيق كانت تصنع منه النِّعال الرقاق . وفيه قول عنتره :
 «بَطَلٌ كَانَ ثِيَابُهُ فِي سَرَحَةٍ يُحَذَى نِعَالُ السَّبْتِ لَيْسَ بِتَوَامٍ»
 أى هذه الإبل كرعن بمشافر كأنها من رقتها سببت مياه نام حولها الورد .
 لاحظ أن هذه هى نفس الصورة «الريحان تحت الشقائق» أو مقاربة
 لها والله أعلم .

٢٤ - هذا البيت لجرير ، ومحل الاستشهاد قوله فى رواية من رواد «إذا ما
 استحجن الماء» بالياء . فان هذا يعطى الإبل لونا من الرمزية والكناية
 لمعنى الحياء الذى أسبغه الشاعر عليها . والشاعر قد يكنى بالإبل عن
 نفسه وعن أحبابه . وإذ المقام مقام انصراف وتوديع جاز الاستشهاد
 ببيت جرير الحلو :

«أَتَذَكَّرُ إِذْ تُودِّعُنَا سُلَيْمَى بِفِرْعَ بَشَامَةِ سُقَيْى النَّشَامِ»
 وإنما هذه الدنيا لحظات من السعادة تُتَخَتَّلَسُ وتُسَجَّلُ ثم سائرها
 رَتِيبٌ والله أعلم .

٢٥ - أى فارس الحصان الأحمر الذى تشرع إليه القننا من كلِّ جانب أو
 فارس الظعينة ذات الهودج الأحمر الذى تشرع القننا نحو حُمَماته من
 كل جانب وهذه الصورة الثانية تكون مأخوذة من خبر غزوة الحمل
 ومثلها يكون حياً فى مثل خيال أبى الطيب المتشيع .
 وقول عنتره :

«يَدْعُونَ عَنَتَرَ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِيْثْرِ فِي ابْتَانِ الْأُدْهَمِ»
 أى الرماح مشرعة نحوه وهو على حصانه الأدهم وقد وردته بالطعن
 فصارت لطولها وكثرتها حوله مثل أشطان البئر .. أى حبال البئر؛ لأن
 الغرب أى الدلو الكبير تكون الحبال متصلة به فى شكل مخروطى
 ويجوز أن يكون عنتره ههنا يصف بشرا لها واردون كثيرون .

ونظرُ أبى الطيّبِ إلى هذه الصورة من بيان عنتره لا يخفى .
وقول أبى الطيّبِ «المشرع القنا قبله» فيه تسجيل دقيق لصورة تحفّز
الرماح بالحصان وانفعالة الحصان إزاءها مزورا مقدما — فمن أجل هذا
زعمنا أنّه نظر أيضا إلى قول عنتره :
« فازورّ من وقع القنّا بلبانِه وشكا إلى بعبرةٍ وتحمحمٍ »
والله تعالى أعلم .

٢٦ — فى الملتقى والعجاج والعجكة — رمى الدّرب بالجرّد الجياد
إلى العدا — شوائل تشوّال العقارب بالقتنا .
هذان الشطران من القصيدة اللامية :
« لىالىّ بعد الطّاعنين شكولُ »
وتماها :

« رمى الدّرب بالجرّد الجياد إلى العدا
ومّا علّموا أنّ السّهام خيولُ »
« شوائل تشوّال العقارب بالقتنا لها مَرَحٌ من تحته وصهيلُ »
والذى دعا إلى الاستشهاد والاستطراد بهما ههنا هو طلب الإيقاع فى
ذهن القارئ وقوة التشابه بين روح المرح والنشاط عند قول أبى
الطيّب :

« ودراع سيفته فخرّ لقيّ ... البيت »
وبين هذه الأبيات والجزء الذى هما منه فى قصيدتهما والله أعلم .

٢٧ — « من نفرّوه وأنفدوا حيّله »
أى غلبوه والمنافرة كانت نوعا من المغالبة يعتمد إليه المختصون فى
الجاهلية يفاخر أحدهما الآخر فى الشرف ويحتكمان إلى كاهن أو
نحوه فيحكم لأحدهما على الآخر فيكون الغالب نافرا والمغلوب
منفورا تقول نافرته أنافره فأنا أنفره أى أغلبه (باب نصر)

وكانت أم أبى فراس جارية رومية فهذا كان يجعله بلاريب دون أبى العشائر إذ لم يذكروا أن هذا هجين . فلا يخلو قول أبى الطيب « مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حَيْلَهُ » من نوع تعريض ، ولا يستبعد أن يكون أبو فراس داخلا فى هذا التعريض والله أعلم .

٢٨ - لا يخفى أن ههنا تنبيها للقارىء لعلوق معنى الطيب بقلب أبى الطيب وههنا أيضا إشارة إلى قوله :

« مَا أَسَّارَتْ فِى يَدَى ذَوَائِبِهَا جَعَلَتْهُ فِى الْمُدَامِ أَفْوَاهَا »
أى كان يلمس ذوائب شعرها فيعلق بيده الطيب فحرصا منه على هذا الطيب يجعله أفواها أى طيبا وبهارات يُطَيَّب به كئوس مدامته .
لاحظ قوله « ما أسارت » أى ما أبقت . هو نفسه قوله :

« مَا أَسَّارَتْ فِى الْقَعْبِ مِنْ لَبَنِ تَرَ كَتْمَهُ وَهُوَ الْمِسْكُ وَالْعَسَلُ »
أى ما أبقت ، لأن فمها زاك وهى كلها عِطْرَةٌ فإذا تناولت قعب لبن بالبادية تشرب منه علق طيبها به .

وأحسب أن أبا الطيب اختار كلمة « أسارت » ليرمز إلى أنه (والله تعالى أعلم) قد شرب من سورها إذ سؤر المؤمن شفاء وكذلك سؤر المحبوب إذ الحب من الايمان - متى كان خالصا لله وقد كان أبو الطيب متألها - هكذا قال أبو العلاء ولعله لحميق الحاده كان يحسده ذلك والله تعالى أعلم .

٢٩ - هذا افتراض وذهاب مع أبى الطيب فى جو من أحلامه - هل هذه الصورة التى صورها لفناحسر وإنما هى صورة حلم بها لنفسه بعد أن يرجع ظافرا إلى الشام ويلقى بدويته التى فُتنت بها الحلال وينشد روائعه كما كان يفعل أيامه الأول ويخسأ أبو فراس ومن كانوا حزبه من الناس والنسناس ؟!

٣٠ - دبرُ العاقول الذى أصيب فيه أبو الطيب كما حَقَّقَ ابن خلكان وكما ذكر الثعالبي وهو كالمعاصر كان قريبا جدا من بغداد ، وبعض

المعاصرين قد يهيمُ فيحسب أنه بعيدٌ جداً عن بغداد إذ لا يستبعد أن كان اسم « العاقول » يطلق على أكثر من دَيْرٍ واحد . والله أعلم .

٣١- أى إنَّما يَنْبُتُ القنا الذى تصنع منه الرماح من أجل أن يحملها الناس ليخوضوا الشدائد فيلقوا الممدوح إمّا ينصرونه فينالوا من جدواه أو يقاتلونه فينالوا من جدواه أو يمدحوه مجتازين بديار العدو والصوص كما فعل أبو الطيّب .

٣٢- لاحظ قوله حصى أرض وجعله هذا الحصى موضع تقبيل ، وإعطاءك صوتا مشعرا بهذا التقبيل فى قوله يلل - ألا يقوى هذا عندك معنى مارأيناه من الربط المعنوى بين صورة الحصى هنا وفى قوله :
وامّواهُ يَصِلُ بها حَصّاهَا صَلِيلَ الحَلَى فى أيدي الغواني وفى قوله :

« بلادُ إذ ازارَ الحسانَ يَغَيِّرُها حَصّى تُرْبِها ثَقَبَته لِلمَخانِقِ »
وفى قوله :

وَمَلْمُومَةٌ سِفْيَةٌ رَبْعِيَّةٌ يَصِيحُ الحَصَى فيها صِياحُ اللقالِقِ
يشعر بتجربة عميقة متصلة بالحصى فى نفس أبى الطيّب ؟ الله أعلم .
٣٣- الذى يميل بنا إلى الخدس أنّها لثغاء قول أبى الطيّب وسيأتى فى النصّ :
« تشير وبلعجلانُ فيها خَفِيَّةٌ كدَرائِنَ فى أَلِفاظِ الثَّغِ ناطِقِ »

فهذه تجربة وأشبه شيء أن تكون الصورة التى بقيت فى ذهن الشاعر وخياله صورة لثغاء تخط بين الراعين .
ثم أنّ الشاعر فى اللامية أعطانا صورة مقاربة لإنسان محبوب مقاربة آنسة ، ولكنّها غير ذات عناق ، قريبةً منه جدّاً مثل شكَلَتْنى نَصْبُ :
« دَوْنَ التَّعائِقِ نَاحِلَيْنِ كَشَكَلَتْنى نَصْبٍ أَدَقَّها وَضَمَّ الشَّاكِلُ »
فمذهبه فى التصوير ههنا يشبهه جيّداً مذهبه فى تصوير الراعين فى ألفاظ

الألغ — هل التجربة واحدة تشير إلى شخص واحد ؟ هذا مانرجحه
حدسا والله أعلم .
قوله بلعجلان أى بنو العجلان .

٣٤ — « ديار اللواتى » الأبيات من القصيدة الميمية التى مطلعها :
« انا لَأَتُمَيِّى إِنْ كُنْتَ وَقْتَ اللَوَائِمِ عَلِمْتُ بِمَا بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ »
وقالها فى الإخشيد قبل اتصاله بأبى العشائر بزمان .

٣٥ — من قصيدة فى سيف الدولة مطلعها :

« أيدرى الربع أى دَمٍ أَرَأَقَا وَأَيَّ قُلُوبٍ هَذَا الرِّكْبِ شَاقَا »
٣٦ — تَعْتَجِرُ بِهِ تَلْفُفُهُ حَوْلَ خَصْرِهَا . تقول : اعتجر بالعمامة إذا لفَّها
على رأسه .

٣٧ — هذه العبارة مقتبسة من لفظ أبى حيان التوحيدي يصف أحد الأدباء
المرتزقين من حاشية الصاحب بن عباد فليُرجع إليها هناك فى ترجمة
ياقوت له وللصاحب ، وفى كتاب مثالب الوزيرين وقد طبع منذ حين
قريب .

٣٨ — نفرض أنها أخت أبى العشائر استنادا على البيت : « يَا أُخْتَ مُعْتَنِقِ
الْفَوَارِسِ فِى الْوُغَى » وهو من القصيدة :
« لِهَوَى الشُّؤُسِ سَرِيرَةٌ لَا تُعْلَمُ »

راجع الفصل الأوّل (١) . ومعتنق الفوارس على هذا الفرض يكون
أبا العشائر . ثم إن سياق الكلام من بعد يتخلّى عن هذا الفرض ليجعل
المرأة المعينة زوجة أبى العشائر وراجع النص .

ههنا تنبيه على أن قول أبى الطيب : « فَالشَّيْبُ مِنْ قَبْلِ الْأَوَانِ تَلَشُّمُ »
كأنه وضَّحه وبيَّنه فى قوله : « وَتَكْمِلَةُ الْعَيْشِ الصَّبَا وَعَقِيَّةُ .. الْبَيْتِ » إذ
هذا يدلُّ على أن عَارِضَى أَبَى الطَّيِّبِ قَدْ خَالَطَ سَوَادَهُمَا بِيَاضٍ . فغالبُ
لُونِهِمَا السَّوَادُ الْخَالِصُ أَيَّامَ كَانَ فِى رَوْنَقِ الشَّبَابِ . وقادم البياض

حين يصير شيخا . ولم يعيش رحمه الله ليدرك تلك السن إذ قتلوه
وهو ابن إحدى وخمسين .

٣٤ - هذا الاستطراد المراد منه أن بيت أبي الطيب :

«وَقَوْفَ حَوَاشِي كُلِّ ثَوْبٍ مَوْجِهٍ مِنَ الدَّرِّ سِمِطٌ لَمْ يَتَقَبَّهْ نَاطِمُهُ»
يجوز حمله على ظاهره وهو أنه يصف صورة النساء اللاتي في نقش
الفازة (الخيمة) ووشيهما . ويجوز أن يحمل على أنه التفات إلى فتاة
النسب التي في أول القصيدة :

«حَبِيبٌ كَانَ الْحُسْنُ كَانَ يُحِبُّهُ فَأَثَرَهُ أَوْجَارَ فِي الْحُسْنِ قَاسِمُهُ
يَظَلُّ غُبَارُ الْخَيْلِ أَدْنَى سَتُورِهِ وَأَخْرُهَا نَشْرُ الْكِبَاءِ الْمَلَاذِمُهُ»
وصويحباتها فهن الخور المقصورات في الخيام اللاتي لم يطمشهنَّ إنس
ولاجان - أو كما قال :

«تَحْمُولُ رِمَاحِ الْخَطِّ دُونَ سِبَائِهِ وَتُسْبِي لِهْ مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَرَامِيهِ»
والله أعلم .

٤٠ - أى هذا الوصف المتقدم للفارس أشبه بالذى ذكره بدءا في قوله :

«يَا أَخْمَتَ مُعْتَنِقِ الْفَوَارِسِ فِي الْوَعَى»

فمثل هذا هو الذى يعتنق الفوارس مقاتلا لهم . وقد صرح هنا أن هذا
في وصف أبي العشائر ، فيكون معتنق الفوارس إذن هو أبو العشائر ،
وأخته هى موضوع نسيب أبي الطيب . ويستمر تفريع الخدس وتفصيله
على النحو الذى ورد فى النص كما سبقت إلى ذلك الإشارة . والله أعلم .

٤١ - وهنا إشارة إلى قوله :

«رَاعَتُكَ رَائِعَةُ الْبَيَاضِ بِمَفْرُقَى وَلَوْ أَنَّهُ الْأُولَى لَرَاعَ الْأَسْحَمُ»

ليس موضوع وقوفنا هنا هو عَجْزُ البيت إذ لا يخفى أن هذه فكرة
ليس إلا ، وقد كررها أبو الطيب فى قوله :

«وَمَا خَضِبَ النَّاسُ الْبَيَاضَ لِأَنَّهُ قَبِيحٌ وَآكِنٌ أَحْسَنُ الشَّعْرِ فَاحِجُهُ»

ولكن موضع وقوفنا هنا قوله «رَأَيْتُكَ رَائِعَةً الْبَيَاضِ» فهذا يُسَجَّلُ
انفعالة تجربة . فمن التي ارتاعت للشبهة التي ظهرت بـمفرق أبي الطيّب ؟
هل هي أخت معتق الفوارس ؟

ولم ير أبو الطيّب أن يصبغ تلك الشبهة لأن البياض — بَيَاض
الشَّيْب — في ذات نفسه غَيْرُ قَبِيح . ومن ههنا يظهر معنى الربط
الذي ربطناه بين هذه المعاني وبين قوله :

« وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُمَوَّهَةً
تَرَكَتْ لَوْنَ مَشِيْبِي غَيْرَ مَخْضُوبٍ
وَمِنْ هَوَى الصَّدْقِ فِي نَفْسِي وَعَادَتِهِ
رَغِبْتُ عَنْ شَعَرٍ فِي الْوَجْهِ مَكْذُوبٍ »

٤٢ — ههنا إشارة لقوله :

« يَرْنُو إِلَيْكَ مَعَ الْعَفَافِ وَعِنْدَهُ أَنَّ الْمَجُوسَ تُصِيبُ فِيْمَا تَحْكُمُ »
وههنا يجوز لنا أن نؤوّل تأويلا آخر وهو الذي استقر عليه سياق آخر
هذا الفصل — وذلك أن معتق الفوارس في الوغى هو أبو الطيّب نفسه
وتكون هي أخته في الوداد وهو يرنو إليها مع العفاف ، وإذ جعلها
أختا جاز له أن يتظرف بهذا الذي ذكّر من أمير المُجُوس .
لا يستبعد أن يكون معتق الفوارس في الوغى هو الشاعر وأبو العشائر
معا ، لأن أخيلة الشعر أشبه شيء برؤى الأحلام تجتمع فيها الأضداد
والأشباه ، ويكون المرئي جامدا ثم يطير ثم يصير شيئا آخر وهكذا
وهلّم جرا والله أعلم .

٤٣ — أي أبو الطيّب في قوله :

« وَأَنْكَرَ خَاتَمَيَّ الْخِنْصَرَ »

سَجَّلَ تجربة خاصّة لعلّها شعور بجرح أو نحو ذلك . والله أعلم .

الفصل الرابع

١ - كالصائح المحكى مثلاً - أى كأبى الطيّب لأنّه قال :
وَدَعَّ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَأَنْتَنِي
أنا الصائح المحكى والآخر الصدى »

٢ - قول أبى الطيّب :

« فَنَتَى مَاسَرَيْنَا فِيهِ ظُهُورٍ جُدُودِنَا
إِلَى عَصْرِهِ إِلَّا نَرْجَى التَّلَاقِيَا »

فيه إشارة الى عالم الذرّ ، وذلك حين جمع الله بنى آدم من ظهور آبائهم فذبوا كالذرّ ؛ أى صغار النمل ثمّ قال لهم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ - قال تعالى (سورة الاعراف) : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . »

٣ - « فَرُبَّمَا شَرِبْتَ بِمَاءٍ... الخ » أى فربما نلت العزيز النادر الذى لا يستطاع .

٤ - ابن حنّابة هذا هو ابن الفرات وزير كافور . والغرض ههنا أنّ كافور لم يعدّ أباً الطيّب ولاية ولكنّ حاشية كافور زعموا ذلك لأبى الطيّب وزينوه له . والله أعلم .

٥ - أى وجد أنفع المال أنواع الجرى وأنواع التقريب التى عند الخيل . والتقريب نوع من عدوّ الخيل ذلك بأنّها وفّت لى لمّا رأيت أنّ صروف الدهر جعلت تغدّر بى ، ووافؤها أنّها حملتنى وفاتت بى الأعداء الذين كانوا يترصدوننى وحاولوا الاتّحاق بى لمّا خرجت من حلب ووفّت لى أيضاً الرماح ، وهى صمّ الأنابيب ؛ أى القنا الذى عليه أسننتها ذو أنابيب صمّ . أى فصوص سالمة صمّاء لا عيب فيها . الجردُ السّراحيب أى

الخيال الحسان الطوال القليلات الشعر . وذلك من محاسنها فيما ذكروا .

٦ - ذكر ابن الأثير ذلك فى كتاب المثل السائر اعتمادا على الأشياء الضعيفة التي لا تنكر ممّا روى لأبى الطيّب وثبت فى ديوانه ، ومنذ الذى لا تعدّ معائبه لكنّ عبارته يستفاد منها أنّ من أسلوب أبى الطيّب كلّّه فيه ضعف وليس فصيحاً فصاحة أبى تمام والبحرّى . وفى هذا نظر . وهذه الأبيات الثلاثة ونحوها من الجزالة بمنزلة تنقطع دونها الأعناق - وبذا وهو كثير عنده بذّ الشعراء وسبحان المانح .
«تَهْوَى بِمَنْزَجَرْدٍ ، يعنى نفسه لَمّا جعل خيله جرّداً - أى قليلات الشعر - جعل نفسه منجرّداً أى منكمشاً مستمراً فى أمره جاداً لا يلوى على شيء .

٧ - قوله : «يرمى النجوم... الخ» أى تسموهمته إلى النجم . وقد نظر المعرّئ إلى صياغة أبى الطيّب لأنّه أشبه النجوم بالسلب الذى ينتهيه صاحب الغارة . فزعم المعرّئ فى اللصوص الذين وصفهم يذكر انتشارهم وشرهم فى الطريق ما بين العراق والشام أنّهم ذئاب جائعة من ذئاب الإنس يبلغ بها الشره أن تطمع فى جدى السماء لو وجدت إليه سيلاً . لَمّا جعلهم ذئاباً جعل شدّة طموحهم تبلغ بهم إلى أن يظنوا جدى النجوم شيئاً يؤكل . مسبوتا : أى نائماً .

٨ - ذكر برتراند رسل فى تاريخ الفلسفة أنّ طوما اكويناس اعتذر لإباحة الجماع (لاتصاله بمزاعم النصارى فى الخطيئة) بأنّه وسيلة النسل وعاب إلاكثار منه لأنّه حينئذ يخرج إلى الاستئناس بالخطيئة . وقد ذهب مذهبا غير جد بعيد من هذا بعض من فسّروا قوله تعالى : «وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» بالولد إلا أنّ طريقهم أقصد إذ جعلوا المراد ما أباحه الله تعالى ، ويدخل فى ذلك ما كان حلالاً من الرفث والله أعلم .

٩ - إلى تهزّم الشجو البعيد - كصوت سواقى النيل . تقول تَهْزَمَ الدُّفّ ،

وتَهَزَّمَتِ القَدْرُ وهى تغلى .

١٠ — وهل البحر إلاَّ النيل — لا يكاد أهل النيل عندنا يسمونه بغير البحر .
وليس البحر ما كان ماحا ضربة لازب فالقرآن يفيد جواز إطلاقه على العذب .

١١ — « كليل توسدنا الثويّة » إشارة إلى قوله :

وَلَيْلٍ تَوَسَّدْنَا الثَّوِيَّةَ تَحْتَهُ كَأَنَّ ثَرَاها عَنَبَرٌ فِي البَحْرِافِقِ
فهذه الليلة كانت مما أحسن فيه الدهر إلى أبى الطيّب .

١٢ — وان من الشعر لحكما . . . الخ ، كأنَّ هذا يقولونه لانفسهم .

١٣ — إشارة إلى قول « روميو » اطلعى أيتها الشمس الجميلة واكسفى القمر
الحاسد لك — الفصل الثانى — المنظر الثانى ، من روميو وجولييت
قال جرير :

« الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكى عليك نجوم الليل والقمر »

١٤ — بمن استشار كافور : أى بمن استشاره كافور .

١٥ — عيّر ، أى حمار الوحش . وهيق هو ذكر النعام ، وخنساء هى البقرة
الوحشية ، وذيال هو الثور الوحشى . والمراد أنَّ فاتكا صاحب صيد
له من الوحش ما تختار أسنّته لسبق خيله وحذقه وحذقهنّ بالصيد .

١٦ — ممّا يفسد إنشاده صفاء المجلس عند كافور متى أريد به حاقُّ الكيد .
أى أنَّ أعداء أبى الطيّب قد يكفيهم أن يشدوا كافورا شعره أيّام شبابه
ويعلّقوا عليه بأصناف الإشارات يوحون بها إلى أطماعه وانطواء نفسه
على طلب السلطان بايئتما وسيلة تنهيا له وأنه لا يؤمّن من جانبه ،
وأنَّ ضبّطه والتضييق عليه والحذر منه كل ذلك ممّا يقتضيه الحزم .

١٧ — الحبس وأكل الازواد — إشارة إلى قوله :

« جِوْعَانُ يَأْكُلُ مِنْ زَادِي وَيُمْسِكُنِي »

لِكَيْ يَقَالَ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَقْصُودُ

١٨ - وقلعت سخينة أم أبي فراس - ولامن ... الخ .
موضع الاستشهاد بالبيت أنه مما يرجح عندنا أن أبا الطيب إنما قاله
يعرض بأم أبي فراس ، إذ كانت أمه غير ذات شأن - لا يمشی الأمراء
حواليها حفاة على المرو - أي الحصى - فلا يشكون لدعه ولا رمضائه
وكأنما يسرون على ريش أولاد صغار النعام .

١٩ - ورميت جثته للكلاب - طرحتها في العراء كالقائها للكلاب بل هو
إلقاء لها إلى الكلاب ، لاريب . والله أعلم .

٢٠ - « يستحل دم الحجاج في الحرم » - أوله :

« شيخ يري الصلوات الخمس نافلة »

من قصيدته : « ضيف ألم برأسى غير محتشم » .

وقد استحل القرامطة الحرم وانتزعوا الحجر الأسود من موضعه .

٢١ - « كالذي قام » - من لزوميات المعرى .

٢٢ - « كان أسود بصاصا » : هكذا نعت كافور في ابن خلكان .

٢٣ - وكان أبا الطيب لم يكن يرى السواد .. الخ - والغالب عيب السواد والظن
به النقص فما كان أبو الطيب ليخرج من جملة أحكام بيته . وقد كره
الفقهاء السفر والاتجار بأرض العدو وبأرض السودان . وإنما أردنا
التنبيه على أن أبا الطيب لم يكن صاحب عنصرية لونية انفرد بها .
ولعله كان أقل انصرافا في خويصة أعماق نفسه عن سواد كافور ميمّن
كانوا يحيطون به من اضراب ابن حنظلة ورجال البلاط . والله أعلم .

٢٤ - إذ بلغ به كراهه السكاك الخ - إشارة إلى قوله

« ومن بلغ التراب به كراهه وإن بلغت به الحال السكاك »

٢٥ - أرن الحماسة ، أي نشاط الحماسة بفتح الهمزة والراء من أرن (باب
فرح) يأرن .

٢٦ — أصداء الكهنوت والعرافة — وقد كان الشعراء فى الزمان الماضى فى الجاهلية بعض أصناف الكهّان. والمراد ههنا أن نعت أبى الطيّب لحال القتال والفتنة فيما بين الفرات وبرقة مع أنّه صفة أمر واقع يخالطه نوع من النبوءة بفتنة وأحداث ستكون .

٢٧ — « وما التأنيث لاسم الشمس عيب » — الذى عند كثير من الفقهاء أن التأنوثة نقص ، يجعل منزلة الأنثى الحرة عند بعضهم دون منزلة العبد الذكر لان العبودية قد تفارقه فيصير حرّاً وكذلك الصغير قد يكبر وهو إن كان حرّاً متقدّم على العبد — وقال صاحب الرسالة فى الشهادة ومائة امرأة كأمرأتين . . الخ واستدلّ أبو الوليد الباجي من الحديث « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » أن فيه رخصة للزوج فى منعهن . والغيرة من الإيمان متى كان الغيور من أهل الفضل ، وإلا فالحوانية المتصلة بعنصر التملّك فيها وحب السيطرة لاتخفى ، والله أعلم .

٢٨ — معنى « فعل » لدلالة البازل عليه .

المراد أن رواية من روى « البازل » لاجدوى ولاطائل فيها ولازيادة معنى على مالمو كان قد قال :

« وَإِنْ بَذَلَ الْإِنْسَانُ لِي جُودَ عَابِسٍ
جَزَيْتُ بِفِعْلِ الْبَازِلِ الْمُتَبَسِّمِ »

إذ كلمة جود ههنا لايزيد معناها على كلمة فعل بشيء والله أعلم .

٢٩ — « على لا حب لا يهتدى بناره » — هذا شعرا مرىء القيس يذكر سفره إذ توجه إلى القيصر ، على لا حب ، أى على طريق ليس فيه منار فيهتدى به ، تنكره إبل الشام لأنه ليس بطريق إبل ولكن طريق وعر نخيل الروم وبراذينها . وقد انقطعت بين الشاعر وكيانه كلمة الأسباب بعد مجاورة شيزر وحماة والإيغال فى بلاد الروم .

٣٠ — أصواء الممتان أى الأصواء ، أى العلامات التى تكون فوق ما غلظ من متون الأرض . والعلوب الآثار . أى تبدو آثار الطريق عند الأصواء

التي فوق المتان. ثمَّ قال إنّه يريد ناقتة على الشرب من الحياض المتكدرة. ولاماء إلاّ الحياض المتكدرة. فإنّ عافت فإنّ طعامها من بعد الرحلة والركوب — هذا معني « فإنّ المندى رحلة فركوب ». والركوب من الرحلة فالفاء لتدلّ على الاتصال وهو من شواهد سيبويه ، أحسبه استشهد به في باب حتّى . والله تعالى أعلم .

الفصل الخامس

١ - « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ... الخ » - للمفسرين وجوه فى تأويل هذه الآية . ولا يستبعد أنه كان من عادة القوم إذا استحسنوا جَمْعًا أن يحزوا الأيدى إشعارًا بذلك . وليس فى ظاهر لفظ الآية ما ينفى هذا الوجه . وفى قول الطبرى « حَزًّا حَزًّا » فى بعض ما ذكر من وجوه التأويل ما عسى أن يشعر بجواز معنى من هذا التأويل والله أعلم .

قليل حتَّى أبْنَهَا - من أبان بمعنى أبعد وقطع قطعًا فاصلاً . وهذا القول فى خبر سيدنا يوسف عليه السلام فى تفسير الطبرى .

٢ - « لُقْيَانُ الْمَعَالَى . . . » - قالوا رُوِيَ بِضَمِّ اللام ، وخطأ بعضهم أبَا الطيِّب فى ذلك محتجاً بأنَّ اللقيان بكسر اللام - وانظر شرح العبرى . . وهذه الأبيات « ذَرَيْنِى أَنْلَ مَا لَا يُنَالُ مِنَ الْعُلَى . . . » من لامية جيدة لأبى الطيِّب أراها من حسناته .

٣ - حُمَاةُ رَبَّةِ الْهُودَجِ - إشارة إلى قوله :

« يَبِيتُ غُبَارُ الْخَيْلِ أَدْنَى سَتُورِهِ

وَأَخِيرُهَا نَشْرُ الْكِبَاءِ الْمَلَاذِمُ »

فالخيل تحمى الهودج الذى هى فيه - وربَّة الهودج هى محبوبة أبى الطيِّب إن صح أمرها . وقولنا من وراء التَّيِّه ، فهو الصحراء . . وقد كان هو بمصر لما قال الأبيات النونية ، فتهى سيناء وأرض الشام كلُّ ذلك كان بينه وبينها .

٤ - « تحملو . . . البيت » - أى اذهبوا ليت الإبل تذهب بكم .

٥ - قوله : « إِلَّا بِكِتٍ وَلَا وَدٍّ بَلَا سَبَبٍ » عجيب فى بابه ، ولا بدَّ للبكاء من سبب وإنَّما أخفاه كما ترى ، ولسبب هو الودُّ بلا ريب ، لا العشق ، فإن كانت تجمع بينه وبين محبوبته فقد كانت تودُّه والله أعلم .

٦ -- قال العكبري ، يعرض بسيف الدولة . قلت هذا ظاهر الكلام وباطنه أسى على أنه لا يستطيع لقاء الأحاب الأحياء .

٧ -- وكالذى ذهب إليه الخـ هكذا جاء فى قصّة «مادنجو» ينسبه إلى رواية ونصوص محققة وما أشبه ذلك أن يكون . والله أعلم .

٨ -- « تَعَثَّرْتُ بِهِ . . . » يَرَوَى أَحْيَانًا : « تَعَثَّرْتُ بِكَ . . . » والكاف خطاب للخبر ، والهاء أحبّ إلى . والعرب ممّا تختصر حركة أمثال هذه الهاء أحيانًا كثيرة . ومن ذلك فى القرآن « يَرْضَهُ لَكُمْ » فى سورة تنزيل فى رواية حفص عن عاصم ، وغيره يقرأها بإشباع ضمّة الهاء .

وتَعَثَّرُ أَفْوَاهُ من يحبـ إشارة إلى البيت «تَعَثَّرْتُ بِهِ فِى الْأَفْوَاهِ» — أى لمّا وصف أبو الطيّب حاله إذ جاءه الخبر فاضطرب له وعبّر عن ذلك بقوله :

« شَرِقْتُ بِالْدمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بَيْى »

ذكر محبوبته ومن حولها وأنها لاشك يكون قد ساءها خبر موت خولة إذ سمعت به ولعلّها كانت بأنطاكية فسمعت نعيها هناك فهذا تَعَثَّرُ خيل البريد به فى الطريق ، وتعثّر أفواه الناعين إذ ذكروا الخبر المؤسف لها ، وتعثّر لسانها هى وحزنها وشرقها بالدمع كما شرق أبو الطيّب .

قولنا من يحب إذ نعينها إليه — الضمير المذكّر يعود إلى لفظ من على إفراده وتذكيره اللفظى ولك أن تقول : إذ نعينها إليها وعيبُ هذا تكرارُ ضمير المؤنث ثم هو ينصّ على المحبوبة والضمير المذكّر بحكم عودته على من يدل عليها وعلى من يكون معها كأبى العشائر وكجوارىها وهلمّ جرّا والله أعلم .

٩ -- « دموع تذيب . . . » صدره :

« تَرَكْتُ دَمْعَ الْغَنَائِمَاتِ وَفَوْقَهَا »

وهو من قصيدة رثى بها ابنا لسيف الدولة ، هو أبو أبو الهيجاء عبد الله .

ثمَّ يخالطها سواده وسواد المسك ... الخ - الأرب ههنا إشعار القارىء
الكريم أنَّ قول أبى الطيّب :

« تَبَلُّ الشَّرَى سَوْدًا مِنَ الْمَسْكِ وَحَدَهُ

وَقَدْ قَطَرَتْ حِمْرًا عَلَى الشَّعْرِ الْجَثَلِ »

فيه صورحيّة منبئة عن مشاهدة . ولعلّها صورة المرأة التى كان يُحِبُّها
بمحض وخصاصة وحلب . وهى الموصوفة فى الأبيات الهائية :

« شَامِيَّةٌ طَالَمَا خَلُوتِ بِهَا تَبْصِيرٌ فِي نَظَائِرِ مَحْيَاها

مَا أَسَارَتْ فِي يَدَيْ غَدَائِرِها جَعَلَتْهُ فِي الْمُدَامِ أَفْوَها

أى ما أبقت غدايرها فى يدي من الطيب فأنا أطيّبُ به المدام - والإشارة
بعدُ فى سائر الجملة لا تخفى إن شاء الله .

١٠ - أى كأنه كانت نحولة مشابهة من صفات عهدها أبو الطيّب فى أمّه --
من نحولة أى نحولة . قال ابن أبى ربيعة :

« عَوْجَانِحِيَّ الطَّلَلِ الْمُحْوِلَا وَالرَّسْمُ مِنْ أَسْمَاءَ وَالْمَنْزَلَا »

أى رسم أسماء وآثار منزلها . واستشهدنا بهذا البيت لبيان معنى « مِينٌ » التى
للاضافة كاللام .

١١ - لرأسك والصدر اللذّى - أى اللذين . والعرب تقول : اللذان واللذان
بدون نون ، واللذين واللذّى كما ههنا .

١٢ - الغراب الأعصم الذى فى رجليه بياض وهو مما يتشام به . وفى
البيت تضمينٌ رمزٌ وتشبيهٌ حسن . ذلك بأن الحبر أسود كالغراب وهذا
الغراب أعصم بلون الورق . ثم كلُّ ما كتبه الى جدّته شاهد بالبين .
والغراب والين أخوان .

١٣ - فماذكروا أنّه دعى - أراد أن يتهمه بهذا الدكتورطه فى أوائل كتابه
« مع المتنبى » حدسا بلاسابقة من دليل مَرَوِيٍّ وهذا قد لا يستقيم .

١٤ - وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متألها أى مؤمنا بالله .

١٥ - إذ يهيب نفسه للخروج فى مثل سنّ مسلم بن عقيل - هو ابن عقيل بن أبى طالب ، قتله عبيد الله بن زياد وكان قد أوفده سيّدنا الحسين ليروز له أمر الكوفة . فاتبعه جماعات من الناس ثم تفرقوا عنه وخادعه محمد بن الأشعث حتى استأسر ، فما كان من ابن زياد إلاّ أن أمر به فضربت عنقه من أعلى القصر ، يظهر أمر ذلك للناس جبروتا وعتوّاً فتعالى الله الملك القادر . وكان مسلم بن عقيل لم يبلغ العشرين ولعلّه لم يبلغ الثامنة عشرة .

١٦ - عهد البيضاء : أى عهد المحبوبة .

١٧ - التّبّع شجر قوى والغربُ ضعيف ، والصقر شجاع والحرب جبان .

١٨ - أول سنّتيّه مع سيف الدولة - هذا مجرد فرض وترجيح منّا ، لأن الفارابى مات بعد سنتين من اتصال أبى الطيّب بسيف الدولة .

١٩ - وكانت سخينة وابنتها من حولها . . الخ - هذا كلّهُ من الحدس لقرب أحوال هؤلاء بعضهم من بعض .

٢٠ - وكل نجاة بجاوية - أى ناقة شديدة النجاة من أرض البجاة . والبجاة جيل من السودان يسكنون من حيث جبال البحر الأحمر غربىّ حلايب إلى شمالىّ أرتريا من أرض الحبشة .

٢١ - وهو الذى قيل رواه . إن يكن أبو منصور روى هذا الخبر فعدم إثباته له فى خبر أبى الطيّب يدل على إنكار منه له . ويجوز أن تكون الرواية كلها قد ادعت على أبى منصور كذبا والله أعلم .

٢٢ - سدكوا بأبى فراس - لازموه ولصقوا به . .

٢٣ - بقوله « الغطارفة الغراء » فهذا هو العيّ والحصَر . ثم يضاف إلى هذا ما يداخل المعنى من تفضيل عبدى الروم على كافور ، كأنّهم لياضهم

أكرم وأنفس من أن يقتنيهم أسود مثله . ومثل هذا المعنى قد يخطر
لأبى فراس ومن على شاكلته ، ولكنَّ أبا الطيّب كُتِلُ العبيد لديه
صنف واحد من شواهد ذلك مثلاً قوله :

« يَسْتَحْشِنُ الْخَزْرَاءَ حِينَ يَلْمَسُهُ وَكَانَ يُبْرَى بِظُفْرِهِ الْقَدَمُ »

٢٤ - الصَّحْلُ بالصاد المهملة والحاء المهملة بفتح الصاد وكسر الحاء من
صَحْلٍ صوته يَصْحَلُ إِذْ اعْتَرَتْهُ خَشُونُهُ وَصَارَ أَبْحً .

٢٥ - ولعلَّه كان طرفاً في هذا الكيد أمر الجارية - هذا مجرد حدس لإكمال
صورة حال ما كان عليه بلاط سيف الدولة ولم تكن المؤامرة بحاجة إلى
مشاركة سالبة أو موجبة من هذه الجارية الرومية على الأرجح والله
أعلم .

٢٦ - بيتا سيف الدولة : « راقبتني العيون فيك . . . » كان سيف الدولة
ينظم الشعر ، وذكر شيئاً من ذلك أبو منصور في أخباره في الجزء الأوّل
من يتيمة الدهر فليرجع إليه .

وقولنا ولعلَّ العذول كانت أخت أبى فراس لأنَّ هذه كانت زوجة
لسيف الدولة ، وينبغي أن تكون تنعصب وتتعزب لأخيها . وإذا كانت
فتاة آل أبى العشائر تحب أبا الطيّب وهذه الجارية تحبها ، فمكان العذل من
أخت أبى فراس لسيف الدولة لا يخفى .

٢٧ - أبو القاسم الوزير من رجالات القرن الرابع . كان داهية سياسياً
أديباً شاعراً داعياً وله أخبار ، ورثاه أبو العلاء في الازمونيّات بكلمته الّتي
يقول فيها :

« لَيْسَ يَبْقَى الضَّرْبُ الطَّوِيلُ عَلَى الدَّهْرِ وَلَا ذُو الْعَبَالَةِ الدَّرْحَايَةُ »
الدرحاية القصير . أى لا يبقى النوع الطويل من الناس ولا الغليظ القصير منهم
يا أبا القاسم الوزير ترحلْ - - - وخلفتني ثفال رحاية »

أى تركتني لزيم أحداث رحي الدهر .

« وَتَرَكْتُ الْكُتُبَ الثَّمِينَةَ لِلنَّاسِ وَمَا رُحْتُ عَنْهُمْ لِسْحَايَةٍ
إِنْ نَحْتُكَ الْمُنُونُ قَبْلِي فَإِنِّي مُنْتَحَاهَا وَإِنَّهَا مُنْتَحَايَةٌ »

٢٨ - قوله : « وكم طرب المسامع ... » يوحى بالتفكير فى حبيب يسمع شعره فيعجب من عبقريته هو ومن عبقرية الممدوح الذى ألهمه . وقوله : « إذا اشتهيت دموع . . . » كان ينعى به نفسه ، فعندما يتسامع الناس بموته فمنهم مظهر للحزن ومنهم حزين حقا .

٢٩ - قوله : « سوى ضرب المثلث والمثانى » يشير إلى حال أقوام بأعيانهم عهد منهم الإقبال على الملاحى والغناء - وقد تكرر هذا المعنى فى شعره كثيرا مثلا :

« أَلْهَى الْمَمَالِكَ عَنْ فَخْرِ قَفْلَتَ بِهِ شُرْبُ الْمُدَامَةِ وَالْأَوْتَارُ وَالنِّغَمُ »
وقوله :

« مَا الَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الْمَنَايَا كَالَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الشُّمُولُ »
٣٠ - قوله :

« أَتَى الطَّعْنَ حَتَّى مَا تَطِيرُ رِشَاشَةٌ مِنْ الدَّمِ إِلَّا فِي نَحْوِ الْعَوَاتِقِ »
يوشك أن يشعرنا أن بنى كلاب ومن إليهم داهموا سُرَادِقَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ حَتَّى رِبَعَتِ النِّسَاءُ مَعَهُ ، وَتَنَاقَرَتِ الدِّمَاءُ قَرِيبًا مِنْهُمْ . مِمَّا يَنْبَغِي بَعْضُ هَذَا قَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْقَافِيَةِ :

« تَوَهَّمَهَا الْأَعْرَابُ سَوْرَةَ مُتَرَفٍ تَذَكَّرَهُ الْبَيْدَاءُ ظِلَّ السَّرَادِقِ »
والله أعلم .

٣١ - إلى حلب من طريق دَيْرِ الْعَاقُولِ - هذه رحلة أبى الطيّب . فارق فارس وجناتها وكان أربّه أن يبلغ الشام حيث أعداؤه وأحباؤه فأنعرج به طريقه إلى دير العاقول حيث لقي حمامه - وإلى الله تصير الأمور .

٣٢ - قوله :

« لَا أَقْبَلُوا سِرًّا وَلَا ظَفِيرًا وَلَا نَصْرَتَهُمْ الْغَيْلُ »

فيه تعريض بما صنع بنو حمدان به إذ أرسلوا من يروم رمية في الظلام .

٣٣ - إلى الذى رَخَّصَ فى دمه فيخلص . . . الخ - أى إلى سيف الدولة إذ هو قد كان رَخَّصَ فى دمه كما مر بك فى خبر السامرائى .

٣٤ - إذ كان ابن خالويه ضِلْعُهُ مع أبى فراس - كما لا يخفى - وهو الذى شَجَّ أبا الطيب بالفتح . ضلعه مع أبى فراس : أى ميله وانحيازه بفتح الضَّادِ وسُكُونِ اللام .

٣٥ - اللائى يضعن النَّفْسَ أمكنة الغوالى ، إشارة إلى قوله :

« وَأَبْرَزَتِ الْخَدُورُ مُخَبَّاتٍ يَضَعْنَ النَّفْسَ أَمْكِنَةَ الْغَوَالِى »

والغوالى جمع الغالية وهى ضرب من طيب النساء .

٣٦ - « تمتع من سهاد . . . » - مثل هذا عند أبى الطيب من التأمل كثير . وقد كان واسع الاطلاع . ومن أجل هذا وأمثاله ماظنَّ الخاتمى أَنَّهُ كان يأخذ من أرسططاليس . وما يُضَيِّرُهُ إن يك قد نظر فى كتبه وأخذ عنه . قُوتِلَ الظلمُ وَلُعِنَتْ قُلُوبُ الحَسَدِ والبغضاء .

قال ابن جنى أرجو ألا يكون أراد بذلك أن ضجعة الموت لا انتباه لها . . . الخ - هذا قاله ابن جنى من شدة إشفاقه على مصير أبى الطيب ولما كان يطعن به عليه بعض أعدائه من ادعاء رقة فى الدين عليه . وقد كان أبو الطيب متألها كما قال أبو العلاء - هذا وقد كان رحمه الله من أفطن الخلق إلى التأله عند من يكون متألها .

رحمهم الله جميعا - والحمد لله أولا وأخيرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا .

الغيث المنهمر

مهداة إلى أبي الطيب

الغيث المنهمر

هَمَى عَلَيْكَ بِشَطَى دَجَلَةَ الْمَطَرُ
 وَفِي الْمَدَائِنِ رَاحَ الْغَيْثُ يَنْهَمِرُ
 إِنَّ التِّي وَدَعْنَا بَابْتِسَامَتَهَا
 لَأَزَالَ فِي خَدَّهَا مِنْ لَمْسِنَا أَثَرُ
 حَتَّى كَانَ سُيُودَاءُ الْفُؤَادِ بِهِ
 نُورًا نَجْتَلِيهَا رَوْضُهَا الْعُمُرُ
 لَمَّا لَمَسْنَا بِرِفْقٍ الْكَفَّ نُؤْنِتَهَا
 وَلَمْ نُحَازِرْ رَقِيبًا رَاعَهَا الْخَطَرُ
 وَغَضَّ عَنَّا مِنَ الْأَبْصَارِ خَائِنُهَا
 لَمَّا تَغَشَّى الْهُوَى فِي وَجْهِهَا الْحَذَرُ
 يَا حَبْدًا حِينَ نَاجَتْنَا بِأَنْمَلَةٍ
 تُشِيرُ حَيْثُ حَدِيثُ الْحُبِّ مُسْتَطَرُ
 إِنَّ الَّذِي زَوَّدَتْنَا مِنْ بَشَاشَتِهَا
 زَادَ لِعَمْرُكَ لِلْأَيَّامِ مَدَّخَرُ
 وَالْحُبُّ يَقْضَحُ أَقْوَامًا كَأَنَّهُمْ
 مِنْ الْحَيَاءِ الْعِدَارَى طَالَمَا صَبَرُوا
 وَالْغَانِيَاتُ تَرَايِيهَا مُغَالِبَةً
 لِلْمَوْتِ إِنَّ الْهُوَى فَوْقَ الرَّدَى ظَفَرُ (١)
 وَالْجِنْسُ مُخْتَلِطٌ بِالْحُبِّ شَهْوَتُهُ
 تَغَشَّى النَّفْسَ فَلَا تُبْقَى وَلَا تَدْرُ

(١) الترائي هو اظهار المحاسن .

وَالْجِسْمُ تَحْطَى بِنُودُنِيَا بِمَنْظَرِهِ
 عَصَرَ الشَّبَابِ وَمَاءُ الْحُسْنِ يَنْحَسِرُ
 وَقَدْ يَلْدُكَ قُرْبُ الْمُسْتَرِيحِ هَا
 مِنْكَ الْفُؤَادُ وَمِمَّنْ لَدَاتِكَ النَّظَرُ (١)
 وَلِلشَّبِيَّةِ فِي جَنْبَيْكَ أَرْوَاقَةٌ
 فَسِيحَةٌ وَمَدَى كَالْبَحْرِ مُنْشِرُ
 وَقَدْ تَصَرَّمَتِ الْأَعْوَامُ واقْتَرَبَتْ
 مِنَ الْمَيَّةِ بَعْدَ الْقُسُوفَةِ الْمِسْرَرِ
 وَمَا جَنَيْنَا جَنَاءَ مِنْ سَقَرِ جَلَّةِ
 بِهِمَا نَتِيهُ عَلَى الدُّنْيَا وَنَنْتَصِرُ (٢)
 هَلْ تَذْكُرْنَ أَخِي حِينَ الشَّرَاعِ سَمَا
 عَلَيْكَ بِالْمَوْجِ فِي تَيَّارِهِ النَّهَرُ
 وَالْبَابِلِيَّةُ أَجْفَانَا لِصَاحِبِهَا
 سُوءُ الْخَلِيقَةِ يَنْسُ اللَّوْمُ وَالضَّجَرُ (٣)
 يُجَاذِبُ الْحَبْلَ مَمْقُوتًا وَيَغْلِبُهُ
 ضَيْقُ الْمِزَاجِ فَكَادَ الْعِلْجُ يَنْتَحِرُ
 صَابِرَتَهُ تَبْتَغِي مَرْضَاتَهَا شَغَفًا
 بِهَا وَأَنْتَ لَهُ بِالصَّبْرِ مُحْتَقِرُ
 تَبَسَّمَتْ بِشَفَاءٍ مِنْ ثَغْرِهَا وَأَسَى
 وَفِي مَحَاجِرِهَا مِنْ جَفْنِهَا سُكْرُ (٤)

- (١) الفؤاد فاعل المستريح أى التى يستريح فؤادك لقرنها .
 (٢) اشارة الى قوله امرئ القيس : « وهاتى اذيقينا جنة السفرجل . » والسفرجل من الفواكه شبيه بالتفاح الا أنه اصغر منه وأخضر اللون .
 (٣) أجفانا تميز أى التى جفونها كالبابلية أى الحمر .
 (٤) بشفتا : يطرف .

تَمُدُّ مِنْ سَاعِدَيْهَا غَيْرَ نَاشِطَةٍ
وَفَعَمَةٌ حَيْثُ يَغْشَى سَاقَهَا الْأُزُرُ (١)
طَوِيلَةٌ هُدْبُ عَيْنِهَا بَرَهْرَهَةٌ
أَسِيلَةٌ أَخَذَ مِنْهَا اللِّسَنُ وَالصَّعْرُ (٢)
بَانَتْ وَفِي الْقَلْبِ طَيْفٌ مَنْ تَذَكَّرَهَا
وَحَسْرَةٌ لَذَعُهَا قَدْ كَادَ يَنْدَثِرُ
وَالْعَيْشُ أَطْلَالُهُ تَعَفُّو وَخَلَّتُنَا
كَأَنَّمَا وَصَلَهَا الْأَعْمَاقُ تَنْتَظِرُ (٣)
أَمَّا تَرَانِي فِي بَغْدَادَ مُغْتَرِبًا
وَنَهْرُ دِجْلَةَ سَاجٍ مَأْوُهُ كَدِرُ
أَرْنُو إِلَى الْمُنْحَى مِنْهُ ، وَشَاطِئُهُ
لِلنَّخْلِ بِالْكَرْخِ عَنْ زُؤَارِهِ زَوْرُ (٤)
وَبَائِعُو الْحُوتِ طَافَ الْمُشْتَرَوْهُ بِهِمْ
وَأَنْتَ وَحْدَكَ إِذْ تُمَسِّي وَتَبْتَكَرُ
نَاءً عَنِ الْمَنْزِلِ الْحَصْبِ الْجَنَابِ بِهِ
رَيْفُ الْخَمِيلَةِ فِيهَا الْقَطْفُ وَالزَّهْرُ
حَتَّى الْمَدَائِنِ حَيَاها الْوَكِيدُ وَقَدْ
أَوْحَتْ إِلَيْهِ بِهَا السَّيْنِيَّةُ الذِّكْرُ (٥)
لَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى الْآجُرِّ قَدْ دَرَسَتْ
أَطْلَالُهَا وَانْمَحَتْ مِنْ نَقْشِهَا الصُّورُ

(١) فعة ممتلئة والاوز جمع ازار أى ساقها خدلة .

(٢) برهرة : ناعمة بضة .

(٣) تعفو : تذهب .

(٤) الكرخ هو شاطئ دجلة الشرقى من بغداد . زور بفتحتين ميل وابتعاد .

(٥) سينية البحرى مشهورة وفيها يقول :

حضرت رحل الموم فوجهت الى أبيض المدائن عنسى . والوليد هو البحرى .

إِذِ الْمَقَاصِيرُ لَا تُوحِي الْقِيَانَ وَلَا
 مِنْ رَسْمِ صُورَةِ أَنْطَاكِيَّةٍ خَبَرَ (١)
 وَلَا الدَّرَفْسُ أَنْوَ شُرَوَانَ يُحْفِزُهُ
 وَلَا أَبُو الْغَوْثِ فِي كَأْسَاتِهِ وَطَرُ (٢)
 لَكِنَّ كَأْسَاتِ سَامِرًا يُشْعِشِعُهَا
 عِنْدَ الْخَلَائِ لَدَى الْمَلُوءَةِ السَّمَرُ (٣)
 وَالْجَعْفَرِيُّ خَرَابٌ حَوْلَهُ حِلْدَلُ
 مِنَ الرُّكَّامِ خَرَابٌ وَسَطُهَا الْجُدُرُ
 وَالْمَسْجِدُ الْجَامِعُ الْعَافِي مَنَارَتُهُ
 تَخَالُهَا جَبَلًا طَابُوقُهُ حَجَرُ (٤)
 وَقَدْ قَرَّتْكَ الَّتِي صِيغَ الْقَرِيضُ لَهَا
 قَرَى مِنْ الْوُدِّ وَالْإِحْسَانُ يُخْتَبَرُ
 وَالنَّهْرَوَانُ فَقِيْدُ النَّهْرِ خَاوِيَّةُ
 أَرْجَاؤُهُ مَأْوُهُ الْأَدْحَالُ وَالْحُفَرُ (٥)

- (١) إشارة الى قول البحرى :
 وكأن القيان بين المقاصير يرجعن بين حو ولس .
 وقال : واذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرنس
 (٢) الدرفس العلم وهنا إشارة لقول البحرى « وأنو شروان يزجى الصفوف تحت الدرفس »
 وأبو الغوث ولد البحرى وقال :
 قد سقاني ولم يصرد ابو الغوث على العسكرين شربة خلس
 (٣) سامرا هى المدينة التى بناها المعتصم للجنود وبني فيها مسجدا عظيما لا يعاد ليس فى العالم
 مسجد اوسع منه وجعل منارة ملوية الدرج . وبني المتوكل قريبا منها جامعا دونه فى
 السعة الا أنه اوسع المساجد كلها بعده وجعل له منارة ملوية والجعفرى المذكور بعد هو
 قصر المتوكل والملوية المذكورة هنا هى منارة مسجده .
 (٤) هو مسجد المعتصم والطابوق هو الآجر بلهجة العراق
 (٥) النهروان احتفروه الا كاسرة وأهمل أمره بعد سقوط بغداد بزمان فصار مستنقعات
 وحفرا والأدحال جمع دحل وهو هنا حفرة المستنقع .

والدُّورُ فِيهِ قُبُورٌ لَا أَنِيسَ بِهَا
وَشَطْطُهُ مُشْرِفٌ مِنْ تَحْتِهِ الْجُزُرُ (١)
وَالرَّيْفُ شَابَ جَمَالَ الْبَاسِقَاتِ بِهِ
مِنْ الدُّخَانِ سَوَادٌ فِيهِ مُعْتَكِرُ
إِذَا دَجَا اللَّيْلُ أَبْدَى لِلْهَيْبِ سَنًا
مِنْ فَوْقِ أَسْنِمَةِ التَّنُورِ يَسْتَعِرُ (٢)
وَالْبَصْرُ مُنْخَرِطٌ سِيرَ الظَّلَامُ بِهِ
لِتَظْمِئْنَ عَلَى أَطْفَالِهَا الْأَسْرُ
وَالْجِسْمُ نَسَاءً بَعِيبِ الْيَوْمِ يَحْمِلُهُ
وَقَدْ يَكُونُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ سَهَرُ
وَقَدْ حَنَنْتُ إِلَى الْحُرْطُومِ إِنَّ بِهَا
تِلْكَ الْفَتَاةُ الَّتِي فِي ثَغْرِهَا أَشْرُ (٣)
وَالنَّيْلُ مِنْ جَوْ مِصْرَ قَدْ نَظَرْتُ إِلَى
أَصِيلِهِ وَأَثِثْتُ نَبْتَهُ الْخَضِرُ
فَرَعَاهُ لَاحَا مَعَ الْأَنْهَارِ بَيْنَهُمَا
تَحْتِ الْجِنَانِ يَرَى لَأَلَاءَهَا الْبَصْرُ
وَالضُّوءُ فِي الْجَدُولِ الْمُسْتَنِّ تُبْصِرُهُ
بِهِ أَتَمَّ عَطَاءَ الْخَالِيقِ الْبَشَرُ
إِنَّ الْعِرَاقِيَّةَ الْحَسَنَاءَ قَدْ عَلِمْتُ
أَنْتَى مُبِينٌ بِلَحْنِ الْقَوْلِ مُقْتَدِرُ

(١) الدور : موضع .

(٢) التنور هو تنور معمل الآجر .

(٣) الأشر : تحزيز في الأسنان من الضوء والجمال .

تَبَسَّمْتَ فِي سَوَادٍ مِنْ عِبَائِهَا
كَأَنَّ حَاجِبَهَا فِي وَجْهِهَا قَمَرٌ
مِثْلَ الْهَيْلَالِ تَبَدَّى مِنْ غَمَامَتِهَا
تَحْتَ النَّجَّيْنِ الَّذِي مِنْ فَوْقِهِ الشَّعَرُ
كَأَنَّ عَارِضَهَا تَجَالَوْ بِهِ أُمَمًا
خَلَّتْ فَأَنْتَ عَلَى الْآثَارِ تَعْتَبِرُ
كَأَنَّ حَاجِبَهَا لَيْلٌ بِرَابِيَةِ
فِيهَا الْقِلَاعُ الَّتِي قَدْ حَفَّهَا الشَّجَرُ
أَهْدَتْ إِلَيْنَا كِتَابًا مِنْ رِسَالَتِهَا
عَنِ الْكِتَابِ وَنَعْمَ الْآيُ وَالسُّورُ
كَأَنَّ دَهْرَكَ هَذَا لَا يَلِكُنْ إِذَا
لَا تَنْتَ صِفَاتُكَ فَاصْبِرْ فَالْعِدَا دُحِرُوا (١)
إِنَّ الَّتِي وَدَّعْنَا بِابْتِسَامَتِهَا
تَذَكَّرْتَنَا وَعَهْدُ الْخَلِّ يُدَكَّرُ
أَمْ أَنْتَ شَاقَكَ مِنْ لُبْنَانٍ رَوْنَقُهَا
لَمَّا اسْتَحْثَكَ عَنْ تَفَاحِهَا السَّفَرُ

عبد الله الطيّب

(١) صفاتك : صخرتك .

رقم الإيداع: ٢٧٣ / ٢٠٠٤

بروفيسور عبد الله الطيب

• ولد غرب الدامر سنة ٢٥ رمضان ١٣٣٩ هـ
الموافق ٢ يونيو ١٩٢١ م

• والداه الطيب عبد الله الطيب وعائشة جلال الدين
الطيب وهو ابن محمد بن أحمد بن محمد المجذوب.

• تعلم بمدارس كسلا والدامر وبربر وكلية غردون بالخرطوم
والمدارس العليا ومعهد التربية ببخت الرضا وجامعة لندن كلية
التربية ومعهد الدراسات الشرقية والإفريقية.

• نال الدكتوراة من جامعة لندن SOAS سنة ١٩٥٠ م.

• عمل بالتدريس بأمدردمان الأهلية وكلية غردون وببخت
الرضا وكلية الخرطوم الجامعية وجامعة الخرطوم وغيرها.

• تولى عمادة كلية الآداب ١٩٦١ - ١٩٧٤ م.

• عين عضواً عاماً بالمجمع اللغوي بالقاهرة ١٩٦١ م.

• تولى تأسيس كلية عبد الله بابيرو بكانو نيجيريا ١٩٦٦ م.

• عين مديراً لجامعة الخرطوم سنة ١٩٧٤ - ١٩٧٥ م.

• تولى إدارة تأسيس جامعة جوبا ١٩٧٥ - ١٩٧٦ م.

• عمل أستاذاً ممتازاً مدى الحياة (PROFESSOR EMARITEF)
بجامعة الخرطوم ١٩٧٩ م

• له عدة مؤلفات ودواوين شعر.

• منح الدكتوراة الفخرية من جامعة الخرطوم سنة ١٩٨١ م
وجامعة بابيرو سنة ١٩٨٠ م وجامعة الجزيرة سنة ١٩٨٩ م.

• شارك في عدة مؤتمرات في السودان وخارجه.

• أول رئيس لمجمع اللغة العربية بالسودان منذ تأسيسه سنة
١٩٩٠ م وحتى وفاته.

• له مساهمات في الإذاعة والتلفزيون، فسر القرآن الكريم
كله في إذاعة أمدردمان سنة ١٩٥٨ - ١٩٦٩ م مع قراءة الشيخ
صديق أحمد حمدون.

• له تفسير جزء عم ١٩٧٠ م وجزء تبارك ١٩٩٠ م وأعد جزء قد
سمع.

• عمل أستاذاً للغة العربية في جامعة سيدي محمد بن عبد
الله بفاس المغرب ١٩٧٧ - ١٩٨٦ م.

• توفي ٢٢ يونيو ٢٠٠٣ م

